

سلسلة
الفيلسوف والمرأة

٤

نساء

فلاسفة

إمام عبد الضاح إمام
الفلسفة
الكويت



92

نساء فلاسفة

الكتاب
نساء فلاسفة في العالم القديم

الكاتب
أ. د. إمام عبد الفتاح إمام

الناشر
مكتبة مديبولي
٦ ميدان طلعت حرب
ت: ٥٧٥٦٤٢١

الجمع والتنفيذ الفني
المركز العربي
للنشر والترجمة والحعاية
ت: ٥٧٥١٨٨٤

مراجعة لغوية
إيهاب غريب

تصميم الغلاف
محمد لطفي

سنة الإصدار
١٩٩٦

الفيلسوف .. والمرأة

- ٤ -

نساء فلاسفة



تأليف

أ. د. إمام عبد الفتاح إمام

أستاذ ورئيس قسم الفلسفة

جامعة الكويت

الناشر: مكتبة مديبولي

المفهرس

١١	مداخل عام
٣٣	الفصل الأول ، فيثاغورس ... ومدرسته
٣٥	أولاً : نبذة عن فيثاغورس
٤٠	ثانياً : إنشاء المدرسة
٤٣	ثالثاً : الجماعة الفيثاغورية
٤٧	رابعاً : بناء الجماعة وقواعدها
٥٦	خامساً : يوم في حياة الفيثاغوري
٦٠	خاتمة
٦١	الفصل الثاني ، نساء ... فلاسفة من الفيثاغورية المبكرة
٦٣	تمهيد
٦٥	أولاً : ثيانو Theano
٧٢	ثانياً : أريجنوت Arignote
٧٤	ثالثاً : مييا Myia
٧٩	خاتمة
٨١	الفصل الثالث ، نساء .. فلاسفة من الفيثاغورية المتأخرة
٨٣	تمهيد
٨٥	أولاً : إيزارا Aesara

- ١ - حياتها ومؤلفاتها ٨٥
- ٢ - نص من كتاب «عن الطبيعة البشرية» بقلم الفيلسوفة ٨٧
الفيثاغورية: إيزارا اللوكاتية
- ٣ - طبعة القانون والعدالة ٩٠
- ٤ - إيزارا ... وسيكولوجيا الأخلاق ٩٣
- ثانيًا : فينيس الأسبرطية ٩٦
- ١ - حياتها ومؤلفاتها ٩٦
- ٢ - الشفرة الأولى من كتاب «الاعتدال عند النساء» ٩٧
- ٣ - النساء ... والفضيلة ١٠٠
- ٤ - النساء والعدالة في المنزل ١٠٢
- ٥ - الشفرة الثانية من كتاب: «الاعتدال عند النساء» ١٠٢
- ثالثًا : بركتيوتي ١٠٥
- ١ - ترجمة نص من كتاب «هارموني النساء» ١٠٦
- ٢ - الشفرة الثانية من «هارموني النساء» ١٠٨
- ٣ - برجماتية الأخلاق.. والزوجة المخلصة ١١٢
- ٤ - الجمال الفيريفي والفساد الأخلاقي للمرأة ١١٢
- ٥ - المثالية في مقابل البرجماتية ١١٣
- ٦ - خاتمة ١١٥
- الفصل الرابع : إسيازيا .. «عصبة الخطابة» ١١٩
- أولاً : حياتها ١٢٢
- ثانيًا : خطاب بركليز الجنائزي ١٢٦
- ثالثًا : إسيازيا ... ومحاورة منيكستوس ١٣٣
- وأخيرًا : خطاب «إسيازيا» الجنائزي ١٣٥

١٣٥	١ - نيالة المحتد
١٣٦	٢ - جودة التربة
١٤٠	خامساً : حجتان ضد ميتكنيوس
١٤٣	سادساً : إيسازيا .. وحركة الخطابة السنسطنائية
١٤٦	سابعاً : خاتمة
١٤٩	المسجل الخامس : ديوتيميا .. معلومة مسقوطة
١٥١	أولاً : تمهيد
١٥٢	ثانياً : مادة أجاتون
١٥٥	ثالثاً : ديوتيميا
١٥٩	رابعاً : ديوتيميا . . . شخصية خرافية
١٦١	خامساً : ديوتيميا ... شخصية حقيقية
١٦٤	سادساً : دليل من الآثار
١٦٧	سابعاً : شهادة مكتوبة
١٧١	ثامناً : نظريات ديوتيميا
١٧١	١ - طبيعة الحب
١٧١	٢ - مولد الحب
١٧٣	٣ - ما يؤديه الحب للناس
١٧٤	٤ - الحب .. أنواع ..!
١٧٤	٥ - كيف يعبر الناس عن الحب؟
١٧٥	أ - ولادة ما هو جميل
١٧٦	ب - علة الحب والرغبة
١٧٧	ج - المعرفة
١٧٧	د - السعى نحو الخلود

- ١٨٠ - مدارج الروح في طريق الخلود
١٨١ - غاية الحب
١٨٣ - فلسفة ديوتيمات - وفلسفة أفلاطون
١٨٣ - الخير الجمالي
١٨٤ - تصور «ديوتيمات» للخلود
١٨٥ - أ - الخلود .. والهوية الشخصية
١٨٨ - ب - الخلود ... ونظرية التذكر
١٨٩ - ج - الخلود .. وتناسخ الأرواح
١٩١ - خاتمة :

- ١٩٣ الفصل السادس ، جوليا حونا .. أو جوليا الفيلسوفة
١٩٥ تمهيد
١٩٦ أولاً : حياتها
٢٠٧ ثانياً : جوليا .. الفيلسوفة
٢٠٩ ثالثاً : صالون جوليا الأولى أو حلقتهما الفلسفية
٢١٢ رابعاً : السوفسطائيون
٢١٩ خامساً : ماهي الفلسفة التي درستها جوليا
٢٢٠ سادساً : الفلسفة التي اهتمت بها جوليا
٢٢١ - خاتمة :

- ٢٢٣ الفصل السابع ، ماكريتا
٢٣٥ أولاً : حياتها ومؤلفاتها
٢٣٧ ثانياً : ماكريتا .. والتراث الروحي
٢٣٧ ١ - وحدة النفس وخلودها

٢٣٩	٢ - الزهد أو التنسك
٢٤١	٣ - الغنوصية
٢٤٣	٤ - الغنوصية.. والمسيحية ودونية المرأة
٢٤٥	تالفاً : ماكرينا وروح المرأة
٢٥٠	رابعاً : ماكرينا والخلق، والتجسيد ، والقيامة
٢٥٠	١ - ماكرينا وتراث أفلاطون
٢٥٣	٢ - ماكرينا .. وفرزيوس
٢٥٤	٣ - ماكرينا وتراث فيلر السكندري
٢٥٦	٤ - ماكرينا .. ونظريات الجسد
٢٥٩	الفصل الثامن ، هيباشيا .. فيلسوفة الاسكندرية
٢٦١	- هيباشيا : الميلاد والنشأة
٢٧٦	- أعمالها : الأنشطة التعليمية
٢٨٣	- الشروح
٢٩٤	- خاتمة
٢٩٨	خاتمة البحث
٣٠٣	مراجع البحث
٣١١	مخالفات الأستاذ الدكتور إمام محمد الفلاح إمام

مدخل عام ...

«قالت: يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى، ما كنتُ
قاطعةً أمراً حتى تشهدون».

(النمل - ٣٢)

«جنس الذكر أصلح للرئاسة من جنس الأنثى، ومن ثم
فتسلط الرجال على النساء مسألة طبيعية جداً...!»

أرسطو: السياسة ١٣٥٩ - ١

مدخل عام

هذا الكتاب -- وهو العدد الرابع من سلسلة «الفيلسوف .. والمرأة» -- دعوة إلى المرأة العربية لتستعيد الثقة بنفسها، وتنفض عنها غبار السنين الطويلة من الجهل والتخلف. إنه دعوة لنهذ الفكرة الساذجة التي تقول «إن عقل المرأة أقل من عقل الرجل»، أو أن تفكيرها يقلب عليه العاطفة والانفعال، وأن أحكامها يسيطر عليها الاندفاع والتهور، وتنقصها الرؤية والتدبر، فلا الدين يقول شيئاً من ذلك، ولا العلم يعترف به، ولا التاريخ يشهد بصحة شيء منه!

والواقع أن هذه الفكرة الساذجة قال بها أرسطو -- المعلم الأول -- ثم شاعت في العالمين العربي والغربي على حد سواء، وأصبحت هي الهادئ والمرشد عن النساء بصفة عامة، وأصبحت المرأة «رجلاً ناقصاً» لا دور لها في هذه الدنيا سوى الإنجاب وتربية الأولاد. وأخطر ما في نظرية أرسطو أنه يذهب إلى أن الطبيعة «التي لا تفعل شيئاً باطلاً» هي التي جعلت المرأة على هذا القدر من الدونية، وليس للعادات أو التقاليد أو أفعال المجتمع -- لا سيما المجتمع الذكوري -- دخل في تحديد هذه الدونية^(١).

١ - عرضنا فكرة أرسطو بالتفصيل في كتابنا «أرسطو .. والمرأة» - العدد الثاني من هذه السلسلة - مكتبة مدبولي.

والعجيب ان العالم العربى تلقف هذه النظرية الأروسطية بغبطة - لحاجة فى نفسه - وراح يضيف عليها شيئا من القداسة. وللقارئ المنصف أن يقارن بين الآية الكريمة التى صدرنا بها هذا المدخل، والتى تشهد برجاحة عقل المرأة، وسديد رأيها، وحكمتها فى تدبير شؤون الحكم، ممثلة فى صورة «بلقيس» ملكة سبأ، بعد أن جاءها كتاب سليمان الحكيم، وحوارها مع أشراف قومها - وبين عبارة أرسطو التى صدرنا بها هذا المدخل أيضاً، ليعرف كيف يفضل ضلالاً بعيداً، إنْ هو ذهب إلى أن الدين يؤيد فكرة أرسطو السانحة عن دونية عقل الأنثى وعجزها عن إدارة دفة الحكم! وسوف نعود إلى هاتين الفكرتين بعد قليل.

إننا إذا أثبتنا عن طريق شواهد التاريخ أن هناك امرأة واحدة تفلسفت، أو برهنت على رجاحة العقل وصواب الفكر عندها، فإننا نهدم بذلك آلاف الأمثلة الإيجابية التى يقول بها أصحاب الفكرة الأروسطية المتخلفة التى تغمض العين حتى لا ترى نماذج مضيئة لنساء راجحات العقل، صائبات التفكير، سديدات الرأى على نحو ما سنرى بعد قليل.

وها نحن أولاء نعرض عليك، فى هذا الكتاب، نماذج من «نساء..» فلاسفة، فى العالم القديم، يعقبه قريباً، بإذن الله، كتاب آخر يكمله ويتممه يعرض لنماذج من «نساء... فلاسفة» فى العالم الحديث، لكن علينا قبل كل شئ أن نتفق على فكرتين هامتين هما:

أولاً:

- هناك قاعدة أساسية فى فلسفة العلم تقول إن الظاهرة السلبية الواحدة أهم عشرات المرات من آلاف الظواهر الإيجابية؛ فلو أنك

جمعت آلاف مؤلفة من قطع الحديد التي تتمدد بالحرارة، ثم عثرت على قطعة واحدة لا تتمدد مهما وُضِعَتْ في النار، كانت القطعة السلبية الواحدة (التي لا تتمدد) أهم من آلاف القطع الإيجابية التي جمعتها؛ ذلك لأنها سوف تَبْطِئُ، في الحال، القانون الذي يقول: «إن الحديد يتمدد بالحرارة»، وقل مثل ذلك في «غليان الماء» أو «الطفو» أو غيرها من القوانين المعروفة، إذ يتحتم عليك في هذه الحالة أن تبحث عن قانون جديد يضم آلاف الظواهر الإيجابية مع الظاهرة السلبية التي وجدتها، وحتى ذلك الوقت سيظل «القانون» الذي يقول «إن الحديد يتمدد بالحرارة» باطلاً.

ثانياً:

— علينا أن ننتبه جيداً إلى أننا بذلك نريد أن نستبعد العبارة التي تتكرر كثيراً، والتي أُسِيَ استخدامها كثيراً أيضاً والتي تقول «إن لكل قاعدة شواذ» — فهي عبارة يرفضها التفكير العلمي السليم، فلا شذوذ في القانون، بل لابد أن تندرج تحته جميع الظواهر التي يقسم بتفسيرها. ويبدو أن عبارة «لكل قاعدة شواذ» ابتكرها النحاة عندما عجزوا عن إدراج كلمات معينة في القاعدة اللغوية التي وضعوها فاكثفوا بهذه العبارة، لكن لا شيء من هذا القبيل يمكن أن تجده في القانون العلمي، فلا تستطيع أن تقول إن الماء يغلي في درجة حرارة ١٠٠ (طبقاً لظروف معينة معروفة) ما عدا هذه الكمية القليلة من الماء الموجودة في بيتي لأنه ماء «شاذ» ولكل قاعدة شواذها! التفكير العلمي السليم يقول لك إن القانون لابد أن يكون كلياً، أعني: ينطبق على كل جزئيات الظاهرة التي تدرسها، ومن هنا كانت أهمية الظاهرة السلبية الواحدة:

لأنها تهدم صفة «الكلية أو العمومية»، ومن ثم تُبطل القانون وتُوقف العمل به إلى أن تجد قانوناً أوسع وأشمل يضم الظواهر الإيجابية والظاهرة السلبية في أن معاً.

هذا تمهيد ضروري لما ننوي أن نعرضه في هذا الكتاب، فقد جرت العادة التي أصبحت أقرب إلى البدئية الواضحة بذاتها - أن نقول: إن تاريخ الفلسفة، لا سيما الفلسفات القديمة، هو تاريخ الفلاسفة من الرجال، وبالتالي: ليس من المؤلف أن يكون هناك «نساء... فلاسفة»، بل قد يعجب القارئ إن لم يسخر في أعماقه من عنوان الكتاب! فبدائيات الفلسفة الأولى المسجلة في بلاد اليونان في القرن السادس قبل ميلاد المسيح، في منطقة أيونيا، وفي مدينة ملطية Miletus على وجه التحديد - أنتجها قلة من الرجال هم ثلاثة: طاليس Thales (حوالي ٥٨٥ ق.م)، وأنكسمندر Anaximander (حوالي ٥٦٥ ق.م)، وأنكسمنس (حوالي ٥٤٦ ق.م) أعضاء المدرسة الأيونية الموقرة، إذ هم الطبيعيين الأول، ثم توالى موكب الفلاسفة من الرجال: هيراقليطس، وفيثاغورس وإارمنيدس، وزينون، وأنكساجوراس، وديمقريطس.. إلخ حتى نصل إلى العصر الذهبي للفلسفة اليونانية: عصر سقراط، وأفلاطون، وأرسطو.... ثم بعده يسير الركب حتى نصل إلى الحركة النوفيقية في القرن الثالث المسيحي.

ولو أنك استعرضت تاريخ الفلسفة الغربية، وما يرويه المؤرخون من أمثال فينديلنت، وكونوفيشر، وكوبلستون، وإميل برييه، (بل حتى المؤرخون الفلاسفة من أمثال: هيجل وراسل... إلخ) - لوجدت أنه نستعرض لأفكار الرجال ومذاهبهم، فأنت لا تجد عندهم إشارة إلى

نساء فلاسفة باستثناء امرأة واحدة من الأفلاطونية المحدثة يذكرونها
سريعاً - وعلى استحياء - هي: هيباشيا Hypathia فيلسوفة
الإسكندرية الشهيرة التي يصعب عليهم أن يقبضوا الطرف عنها،
لشهرتها العريضة في تاريخ الفلسفة:

لو أنك سألت هؤلاء الرجال: لماذا لا نجد «نساء... فلاسفة»
طوال التاريخ؟ لأجابوا - في الأعم الأغلب - : «لأن المرأة رقيقة، عاطفية،
انفعالية، ليس لديها القدرة على التفكير المجرد، أو أن الفلسفة - في
نهاية أمرها - «عقل» والنساء «ناقصات في قدراتهن العقلية» فهن لا
يبلغن من الذكاء والعبقرية مبلغ الرجال^(١). وأعجب العجب أن تجد، في
بلادنا، من يرد هذه الأفكار الساذجة، والآراء الخاطئة إلى الإسلام العظيم
الذي قدّم لنا نماذج رائعة لنساء لا يغلب عليهن الانفعال، ولا يخضعن

١ - لا يجوز الاحتجاج بالآيتين الكريميتين «للرجال عليهن درجة» (البقرة ٢٢٨)
و«الرجال قوامون على النساء» (النساء - ٣٤) فهي آيات لا تتحدث عن الرجل
والمرأة بإطلاق، وإنما تتحدث عن علاقة الزوج بزوجته بدخل الأسرة، وترتيب
واجبات الإنفاق من ناحية، وتربية الأولاد من ناحية أخرى، حيث إن الأسرة مفهوم
أخلاقي وليس مؤسسة «سياسية»، ولهذا كان من الخطأ الفادح الخروج بفكرة
«القوامة» من حين الأسرة (الأخلاقي) إلى مجال الدولة (السياسي)، وإذا كان من
الخطأ - كما قلنا في مكان آخر - الحديث عن «ديمقراطية في الأسرة»؛ حيث إننا
في هذه الحالة نخلط بين الأخلاق والسياسة، فإن من الخطأ أيضاً أن يقول سائق
سيارة الوزيرة أو الفراش الذي يقف على باب المديرية إن له «القوامة» عليها؛ راجع
ذلك د. إمام عبد الفتاح إمام «مسيرة الديمقراطية... رؤية فلسفية» دراسة في «عالم
الفكر» عدد خاص عن الديمقراطية أصدره المجلس الوطني للثقافة والفنون بدولة
الكويت - العدد الحادي والعشرون عام ١٩٩٣.

للعاطفة، ولا يتصف سلوكهم بالتهور؛ ومن هنا تأتي أهمية الآية الكريمة التي صدرنا بها هذا المدخل على لسان «بلقيس» ملكة سبأ عندما تلقت كتاب سليمان الحكيم، فهي لا تسرع في الرد، ولا تنفعل ولا تنهور، بل تدعو علية القوم للتشاور قبل أن تقدم على اتخاذ قرار خطير يمس المملكة بأسرها «قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري، ما كنت قاطعة أمرًا حتى تشهدون» (النمل - ٣٢) في الوقت الذي يصور فيه القرآن الكريم اندفاع المستشارين من الرجال وتهورهم عندما راحوا يلوحون باستخدام القوة «قالوا نحن أولوا قوة، وأولوا بأسٍ شديد، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين..» فنبهتهم بلقيس إلى أن «الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون» (النمل ٣٣ - ٣٤).

ونحن، للأسف نتترك هذه الآيات المضيئة لناخذ بفكرة أرسطو التي تقول إن قدرات المرأة العقلية أقل من الرجل، وإنها لا تصلح للحكم، بل حتى ولا تستطيع أن تدبر شؤون الأسرة؛ ولهذا كان «جنس الذكر أصلح للرئاسة من جنس الأنثى». وهكذا يصبح تسلط الرجال على النساء مسألة طبيعية جدًا...! ونحن نأخذ بفكرة أرسطو الوثني، ونغض الطرف عن آيات بيّنات تتحدث عن رجاحة عقل المرأة وسداد رأيها، وتتحدث بوضوح عن نساء أثبتن كفاءة في الحكم، ورجاحة العقل، وقدرة، وسعة أفق أكثر بكثير من عشرات الرجال مثل: مارجرت تاتشر في إنجلترا الملقبة بالمرأة الحديدية، و«بي نظير بوتو» في

باكستان، و«أنديرا غاندى» فى الهند، و«جولدا مائير» التى نذنا المرء على يديها فى إسرائيل»^(١).

فإننا طبقنا الفكرة التى بدأنا بها هذا المدخل، وهى القول بأن الظاهرة السلبية «الواحدة» أهم فى نظر التفكير العلمى من مشرات الظواهر الإيجابية، وكانت النتيجة العملية هى هدم الفكرة الشائعة عن ضعف المرأة، ونقص العقل عندها، وغلبة الانفعال والعاطفة عليها، وسيطرة التهور والاندفاع .. إلخ، فتلك كلها أوهام خلقها «عقل الرجل» ويبددها الواقع الحى الذى نعيشه!

الواقع أن الحملة التى تشن ضد «عقل المرأة»، والزعم بعدم قدرتها على التفكير، والقول بأن تاريخ الفلسفة هو تاريخ الفلاسفة من الرجال - هذه الحملة تتساقط الدور البارز الذى تلعبه الظروف الاجتماعية والدينية ... إلخ واستعباد الرجال للنساء وسيطرتهم عليهن طويلا، وما ترتب على ذلك كله من عدم إتاحة الفرصة للنساء للتعليم، وإظهار قدراتهن العقلية .. إلخ.

باختصار: هناك تغافل لدور «البيئة» فى قدح القدرات وإظهارها حتى بالنسبة للرجال. وما أشبه هذه الحملة بقول الغربيين «إن العقلية الشرقية أقل من العقلية الأوروبية» متغافلين أيضا الأثر السيئ للبيئة الشرقية، وغاضين الطرف عن نماذج مضيئة من العقل الشرقى ظهرت

١ - ناقشنا هذا الموضوع مناقشة مستفيضة فى الخاتمة التى ختمنا بها كتابنا «أرسطو ... والمرأة» ص ١٠٩ وما بعدها - مكتبة مدبولى بالقاهرة، (العدد الثانى من سلسلة «الفيلسوف ... والمرأة»).

ونبغت واثبتت جدارة عندما واتتها الفرصة؛ لقد كان مجدى يعقوب -
نايفة الطيب فى إنجلترا الآن - لا شئ فى مجتمعه، ثم أصبح كل شئ فى
جراحة القلب، دون أن يتغير شئ سوى البيئة المحيطة بهذه العقلية
الجسارية؛ وقل نفس الشئ بالنسبة لعالم آخر هو «فاروق الباز» الذى
أصبح منارة فى مجال ارتياد الفضاء، ولو أنه ظل فى مصر ما سمع عنه
أحد؛ إننا نستعذب قتل الموهب فى الرجال، فما بالك بالنساء؟!

إن القول بأن «عقل المرأة» أقل فى كفاءته من عقل الرجل، وأن
الأنثى ليست لديها القدرة على التفلسف، يشطر العقل البشرى
شطرين، أو يجعله نوعين منفصلين ومتمايزين، وهو قول ظاهر
البطلان، وهو يشبه تماماً القضية التى كثيراً ما أثارها المستشرقون
حول إمكانية «العقل العربى» وقدرته على التفلسف، وإنكارهم أن هناك
فلاسفة مسلمين؛ فالكندى، والفارابى، وابن سينا، وابن رشد... إلخ إلخ
ليسوا سوى نسخ باهتة من أفلاطون أو أرسطو، أو أنهم خلطوا بينهما،
وهم فى جميع الأحوال ليس لديهم القدرة على الخلق والإبداع، ومن ثم
ليست لديهم فلسفة خاصة بهم!

ولقد تصدى الأستاذ العقاد لتفنيد هذه المزاعم فقال: «من
ضروب التجنى التى لا تُحمد من العلماء أن يقال إن العقل العربى لن

١ - من المفارقات الغريبة أن يكون العقاد - رحمه الله - من انصار القضية الأولى،
اعنى: التى تؤكد عدم قدرة المرأة على التفلسف (راجع، مثلاً، هذه الشجرة
وغيرها) وبالتالي يجعل العقل البشرى نوعين لا نوعاً واحداً، ومع ذلك يدافع
بحماسة عن القضية الثانية مبرهاً على أن العقل البشرى واحد، وليس ثمة أنواع أو
درجات تميز صنفاً من البشر عن صنف آخر!

يستطيع التفلسف بحال من الأحوال»^(١).. وهذا الرأي يروج بين الأوروبيين بغير تمحيص ولا مناقشة؛ لأنه يعجبهم ويرضى غرورهم، ومصالحتهم في وقت واحد؛ يرضى غرورهم، لأنه يسوغ لهم استعمار الشرق واستغلاله، وهو يرد على هذا الاستراء بقوله: «الواقع أنه لا اختلاف هناك في أصل الطبيعة بين العقل الإغريقي والعقل البشري في السلالات الشرقية، وإنما الرأي السليم الذي يقبله المنطق والعلم على السواء أن موطن الفلسفة واحدة حيث كانت الأمة من مواقع الأرض، وكيفما كانت السلالة من عناصر الأجناس والأقوام، فالإغريق في موضع العرب لا يتفلسفون، والعرب في موضع الإغريق لا يحسمون عن الفلسفة ودراسة العلوم»^(٢) فلم تكن طبيعة العقل البشري هي السبب في عدم تفلسف الشرقيين عامة، والعرب بصفة خاصة، فما هو السبب في رأي الأستاذ العقاد؟ يقول: «هذه البحوث (الفلسفية) كانت مباحة عند الإغريق، لأن بلادهم نشأت وتطورت، دون أن ينشأ فيها ملك قوى أو كهانة قوية، ولو قامت عندهم الدولة القوية، والكهانة القوية، كما قامت في مصر وبابل، لكان شأنهم في أسرار الدين والمسائل الإلهية كشأن البابليين والمصريين»^(٣).

وخلاصة القضايا التي يثيرها الأستاذ العقاد هي:

١ - طبيعة العقل البشري واحدة عند جميع الأجناس والأقوام،

١ - عباس محمود العقاد «أثر العرب في الحضارة الأوروبية» دار المعارف بمصر عام ١٩٤٦ ص ٩١.

٢ - المرجع نفسه ص ٤٨٤ - المرجع نفسه ص ٨٥.

فليس ثمة عقل بشري عند فئة أو جماعة أو صنف من البشر يختلف عن فئة أو جماعة أخرى.

٢ - فكرة الاختلاف والفوارق بين عقول البشر، الخاطئة، رُوِّج لها الأوروبيون لمصلحتهم الخاصة.

٣ - السبب الحاسم في عدم تفلسف الشرقيين هو الظروف الاجتماعية والسياسية والدينية التي مرُّ بها الشرقيون، وأهمها - في نظره - طغيان الحاكم وسيطرة رجال الدين.

٤ - هناك فكرة أخيرة يثيرها الأستاذ العقاد بعد ذلك يرد بها على قول الأوروبيين أن الشرقيين لم يبدعوا جديداً في الفلسفة، وأن أقصى ما فعله المسلمون هو ترديد فلسفة أفلاطون أو أرسطو أوهما معا - والعقاد في رده على هذا الاقتراء يذهب إلى أن القدرة العقلية لا تعنى إبداع الجديد فحسب، بل تعنى أيضاً «فهم» الفلسفة القائمة وشرحها وضمها، وتمثلها كذلك؛ فهذا، في حد ذاته، دليل صارخ على قدرة عقلية كبيرة، فحتى لو سلّمنا جدلاً بأن المسلمين اقتصرُوا على شرح فلسفة أفلاطون أو أرسطو فإن ذلك يُعدّ دليلاً على قدرتهم العقلية.

وهذه النقاط الأربع تنطبق تماماً على قضية عدم تفلسف المرأة عبر التاريخ، أو أننا لا نجد «نساء ... فلاسفة»، أو أن تاريخ الفلسفة هو تاريخ الفلاسفة الرجال فحسب - فلا يجوز أن يقال إن السبب هو أن عقل الأنثى يختلف عن عقل الرجال الذي «هو بطبيعته» أعلى، وأكثر تفوقاً، وأشدّ نكأة وعبقريّة ... إلخ. فتلك فكرة خاطئة رُوِّج لها الرجال لأنها تُرضى غرورهم، وتحقق مصلحة للرجل، بخير شك - مصلحة

فى إبقاء المرأة فى وضع أدنى لكى تخدمه ، وتعطيه الوقت اللازم ليمارس هو حياته ومهامه التى يراها سامية ... إلخ ؛ لهذا نراه يذافع بقوة عن الوضع المتدنئ للمرأة ، بل الأدهى من ذلك أن يقوم بتأصيله وتنظيمه ويجعل منه «فلسفة» كاملة كما فعل أرسطو. وهنا تكمن الخطورة؛ فانت ترى كبار الفلاسفة كانوا أبناء عصرهم تماماً، فتراهم يلخصون فى أفكار مجردة عادات مجتمعهم وتقاليده بالنسبة للمرأة، فيقدمون لنا نظريات فلسفية تنم عن كراهية متأصلة للمرأة، فى الوقت الذى تجدهم فيه «ثائرين» فى مجالات أخرى؛

ومن هنا نستطيع أن نقول إن البيئة التى عاشت فيها المرأة طوال التاريخ، وما يشكلها من عوامل وظروف اجتماعية، وسياسية، ودينية واقتصادية... إلخ، هى التى منعت المرأة من التفلسف، وليس بسبب «نقص» أو «خلل» فى قدرتها العقلية؛ الظروف التى مرت بها المرأة هى التى مكنت الرجل من استعبادها ووضعها فى زاوية منعزلة من الدار، ليطلق عليها لفظ «الحريم». وعندما خضع الرجل لطغاة عبر التاريخ حرموا عليه التفلسف على نحو ما فعل الإمبراطور الرومانى «نيرون» وغيره - اختغت الفلسفة أيضاً حتى بالنسبة للرجال! ومعنى ذلك أن الرجل لو كان فى وضع المرأة، ولو مرّ بهذه الظروف نفسها، لكان هو الأدنى والأقل عقلية أو العاجز عن التفلسف!

بقيت نقطة أخيرة وهامة فى حديث «العقائد»، وهى أن مجرد «فهم» الفلسفة هو وحده دليل على قدرة عقلية متقدمة. ومعنى ذلك أننا إذا وجدنا من النساء نماذج استطاعت أن تفهم الفلسفة، وأن تناقش موضوعاتها، وإن تدلى برأى فى قضاياها - فذلك دليل قوى على

قدرتها العقلية، حتى ولو لم تبدع لنفسها فلسفة مستقلة؛

الواقع أنه رغم خضوع النساء الطويل للرجال، واستعبادهن، وعزلهن عن الحياة العامة، ونقص فرص التعليم أمامهن، بل عدم إتاحة الفرصة على أى نحو للمشاركة فى ثقافة العصر - رغم ذلك كله فإنك تستطيع أن تجد هنا وهناك نساء لامعات، لهن دور فى «البحث عن الحكمة» منذ فجر الفلسفة. صحيح أنه دور صغير وبسيط، لكنه يثبت - على أية حال - قدرتهن على القيام بدور أكبر إذا ما لاحت الفرصة، وتغيرت البيئة المناوئة التى تعمل على كبت قدراتهن، وتمنعها من الظهور.

سوف تجد فى هذا الكتاب عبارات منسوبة إلى النساء الفلاسفة، فى العالم القديم - لا سيما قبل ظهور المسيحية - وهى عبارات قليلة وبسيطة، أو قل: شذرات متناثرة هنا وهناك، لكنها تعبر عن فكر ورأى وموقف، ومن ثم فهى ضرب من التفلسف لا يمكن أن يحتج القارئ بأنها مجرد «عبارات» قليلة وبسيطة، فهكذا كانت الفلسفة فى بدايتها؛ لم يُعرف عن طاليس - أول الفلاسفة - سوى أنه قال «الماء هو أصل الأشياء جميعاً» وأن «العالم مملوء بالآلهة»، وقال غيره «إن أصل الأشياء هو الهواء، أو النار، أو العناصر الأربعة... إلخ. مجرد عبارات قليلة وبسيطة، ومع ذلك كانوا فلاسفة وأصحاب مذاهب فلسفية «طبيعية» أحياناً، و«ميتافيزيقية» أحياناً أخرى، و«أخلاقية» أحياناً ثالثة.

وكما أنك تجد أنه كان هناك كتب للفلاسفة من الرجال لكنها فقدت، ولم يبق منها سوى فقرات، فسوف تجد ذلك بالضبط مع النساء الفلاسفة، فلم يبق لنا مثلاً من كتابات «إيزارا .. Aesara» سوى

شذرات قليلة من كتابها: «عن الطبيعة البشرية .. Om Human Nature» على نحو ما ستعرف فيما بعد.

وكما أن تاريخ الفلسفة الغربية يبدأ في اليونان في القرن السادس قبل الميلاد – بالمدرسة الأيونية (طاليس ومدرسته) – فكذلك يبدأ تاريخ النساء الفلاسفة في القرن السادس قبل الميلاد بالمدرسة الفيثاغورية (وقد ولد فيثاغورس في جزيرة ساموس Samos في بحر إيجه المواجهة لمدينة ملطية)، فقد حظيت المرأة الفيثاغورية بفرص هامة مكّنتها من القراءة والكتابة، وقبل كل شيء من التفكير والمناقشة وإعمال العقل، ووقفت على قدم المساواة مع الرجل. وكان الاعتقاد السائد عند الجماعة الفيثاغورية أنه على الرغم من أن طبيعة المرأة تختلف عن طبيعة الرجل، فإنها لا تقل عنه أبدًا، لا من حيث القدرة، ولا من حيث القيمة.

ومن هنا، فقد كانت النساء الفيثاغوريات مثقفات، لهن اهتمامات فكرية وأدبية بارزة، وقد عشن إبان تأسيس المدرسة الفيثاغورية الأولى، وكانت ثيسانو Theano زوجة فيثاغورس Pythagoras أشهرهن جميعاً، وقد قامت مع بناتها الثلاث: أريجنوت Arignote، ومييا .. Myia، ودامو Damo، برئاسة المدرسة الفيثاغورية وإدارتها بعد وفاة مؤسسها: فيثاغورس^(١).

وقد توحى بعض الأسطر الأولى من الشذرات المتبقية، أن

i - Peter Gorman: "Pythagoras: A life" Routledge & Kegan Paul 1979. p.120.

الفيثاغوريات - أول النساء الفلاسفة في التاريخ - ككتبن فقط في الاقتصاد المنزلي، أو أن الموضوعات التي ككتبن فيها تدور حول رعاية الطفل وتربيته، ودور المرأة في المنزل والمجتمع... إلخ، غير أن القراءة النقدية الفاحصة والمتأنية لهذه الشذرات تجعل القارئ يخرج بنتيجة مختلفة: فهؤلاء النسوة من فلاسفة الفيثاغورية يحلن مفهوم «الهارمونيا .. Harmonia»، والتناغم أو الانسجام في محاولة لبيان الطريقة التي يمكن بها تطبيق هذا المفهوم على بنية الدولة أو إدارتها، وعلى بنية الأسرة وإدارتها، بوصفها العالم الصغير بالنسبة للدولة. فإذا كان فلاسفة الفيثاغورية من الرجال قد اتجهوا بجهودهم نحو تفسير العالم الكبير Macrocosm، تفسيراً رياضياً يجعل نسيجه «العدد والنسب»، فإن فلاسفة الفيثاغورية من النساء اقتصرن جهودهن على العالم الصغير Microcosm، اعنى: على الفلسفة بالمعنى الواسع للفظ الذي يشمل الأسرة والدولة في آن معاً، فقد ناقشن كيف يمكن للمرأة أن تطبق «مبدأ الهرمونيا» (التناغم - الانسجام) على تنشئة الأطفال، ليصبحوا في مرحلة النضج منصفين فضلاء، وأفراداً متناغمين. كما درسوا الطريقة التي يمكن للمرأة أن تطبق بها هذا المبدأ على ميادين أخرى، في مجالات متنوعة من حياتها اليومية. وليس في ذلك شيء من الاقتصاد المنزلي، كما ذهب بعض الرجال الذين يريدون التهوين من شأن الدور النسائي في الفلسفة الفيثاغورية وإنما هو دراسة وتطبيق للنظرية الأخلاقية عند الفيثاغوريين، مع إكمالها بجوانب من علم نفس النمو الأخلاقي، فضلاً عن نظرية الالتزام الأسري، وموضوعات أخرى كثيرة.

ولم تكن الفيثاغوريات في المدرسة الأولى، أو في الفيثاغورية المتأخرة، من النساء الفلاسفة الوحيديات في العالم القديم، بل هناك كثرة كثيرة، وقد قام جيل ميناج Gilles Menage (١٦١٢ - ١٦٩٢) - وهو محام مثقف وباحث في اللغة والكلاسيكيات في القرن السابع عشر - بدراسة النساء الفلاسفة في العالم القديم، وذهب إلى أنه اكتشف منهن خمس وستين امرأة! وقد سجل هذا الاكتشاف في كتاب جعل عنوانه «تاريخ النساء الفلاسفة»، ونشره عام ١٦٩٠م ثم عام

١ - وضعه «ميناج» باللغة اللاتينية، وهي لغة المثقفين في القرن السابع عشر، بعنوان: "Historia Mulierum Philosopharum" وكان «ميناج» «عضواً بارزاً في معظم الصالونات الأدبية في باريس، حتى أنه كوّن لنفسه حلقة أدبية سميت باسم «لقاء الأربعاء» لأن أعضائها كانوا يلتقون يوم الأربعاء من كل أسبوع، بل واصل أصدقائه ومحبيه وأعضاء حلقة اللقاء بعد وفاته، وجمعت أحاديثهم وصدرت تحت عنوان «ميناجيات» Menagiana». ولقد نشر أيضاً معجماً لغويًا عن أصول اللغة الفرنسية في باريس ١٦٥٠م. وملاحظات حول اللغة الفرنسية في باريس ١٦٧٢م. وفي ميدان الفلسفة كتب شروحاً مفصلة لكتاب ديوجنيس اللايرتي: «حياة مشاهير الفلاسفة» باريس ١٦٦٣، وقال في مقدمة الكتاب إنه ظل طوال حياته يتمتع بتاريخ الفلسفة الذي كان يسميه «بتاريخ المعقريّة»، وبعد ذلك كتب «تاريخ الفلاسفة من النساء» الذي نشره أولاً في ليون عام ١٦٩٠م تكمة لكتاب ديوجنيس اللايرتي سألّف الذكر. وقامت بياتريس هـ. زدلر Bentrice H.Zedler بترجمته من اللاتينية إلى الإنجليزية مع مقدمة وتعليقات عام ١٩٨٤م.

١٦٩٢م^(١)، وهو كتاب كان بالغ الأهمية في عصره وفي عصرنا أيضاً، لأنه يشكل إسهاماً مبكراً في جانب مهم من تاريخ الفلسفة، ومن التاريخ العقلي للمرأة بصفة عامة. ولقد أصبح نقطة انطلاق في بحوث جديدة في هذا الموضوع^(٢).

وليس في نيتنا أن نعرض لجميع النساء الخمس والستين اللاتي درسهن «ميناج» في كتابه؛ فليس المهم أن نقوم «بمحصرة» شامل لجميع «النساء ... الفلاسفة» طوال التاريخ، بل أن نقدم نماذج تهدم بها الفكرة السائدة الشائعة التي تقلل من قدرات المرأة العقلية، بهدف أن تستعيد المرأة العربية ثقافتها بنفسها، وتعمل إلى جانب الرجل في إعادة بناء مجتمعتنا، إذ لا شك عندي أنه حدثت ردة في عالم المرأة^(٣) نتيجة للانفلاق الفكري في عهد الثورة المصرية.

لن نتحدث مثلاً عن المرأة التي يعتقد ديوجنيز اللايرتي «أنها أول امرأة يمكن ذكرها في سياق جهود الفلسفة اليونانية، واسمها كليوبولينا.. Cleobulina حوالى ٦٠٠ ق.م، وهي التي وضعت بعض

١ - أصدرت ماري إلن ويث ثلاثة مجلدات بعنوان «تاريخ النساء الفلاسفة»، المجلد الأول يتناول حقبة تاريخية تمتد من ٦٠٠ ق.م حتى ٥٠٠ ق.م، والثاني من ٥٠٠ م حتى ١٦٠٠ م، والثالث من ١٦٠٠ حتى ١٩٠٠ م. كما أصدرت إيثيل كيرزي كتابها «نساء فلاسفة»، وأصدرت ليندا ماكليستر مجلة فلسفية نسائية بعنوان «هيباشيا»... إلخ.

٢ - انظر النماذج التي قدمها لهذه الردة، استاذنا المرحوم د. زكي نجيب محمود في كتابه «في مفترق الطرق» في ثلاث مقالات عامة بعنوان «ردة في عالم المرأة» ١٣ و١٤ من ص ١٣٩ حتى ص ١٦٥ دار الشروق بمصر عام ١٩٨٥.

الألغاز الفلسفية، وربما كانت هي أم الفيلسوف طاليس الذي يشير إليه الجميع على أنه أبو الفلسفة الكوسمولوجية في القرن السادس ق. م. . ويشير ديوجنز إلى كليوبولينا على أنها «أحكم امرأة»^(١)، وقد نقل عنه «ميناج» في كتابه هذه المعلومات، وإن كان يضيف أنها كانت موجودة عند «بلوتاوك» في كتابه «مأدبة الحكماء السبعة». ولن نذكر هيبو Hippo ابنة خيرون الحكيم^(٢) ولا «ميرو Myro» التي يُطلق عليها قاموس سويداس Suidas اسم «فيلسوفة رودس». إلخ إلخ^(٣)، ولا عشرات غيرهن، وإنما سوف تعرض لشخصيات أكثر أهمية.

لما كانت المدرسة الفيثاغورية هي التي أفسحت المجال لتعليم المرأة ومشاركتها في الحياة العقلية والمسائل الفلسفية، فسوف ينصب الفصل الأول في هذا الكتاب على هذه المدرسة: تأسيسها، وبنيتها، وقواعدها.. إلخ، لكي ندرس في الفصل الثاني بعض فلاسفة الفيثاغورية المبكرة من النساء. في حين ينصب الفصل الثالث على «النساء.. الفلاسفة من الفيثاغورية المتأخرة». أما الفصل الرابع، فسيكون عن امرأة خصص لها أفلاطون محاضرة كاملة - وهذه المرأة هي أسبازيا، معلمة البيان - التي سعى إليها سقراط، وأعترف أنها هي التي وضعت الخطاب الجنائزي لبركليز.. والذي ألقاه في ذكرى شهداء

1- Diogenes Laertius: "Lives of Eminent Philosophers" Translated by R.D. Hicks. Harvard University Press 1979. P.27.

2 - G. Menages: The History of Women Philosophers P.5.

3 - Ibid.

أثينا في حروبها مع اسبرطة. وفي الفصل الخامس ندرس «ديوتيماتا.. معلمة سقراط» ونظرياتها عن الحب، وخلود النفس على نحو ما عرضها أفلاطون في محاوره «المأدبة»، ونناقش الشخصية التاريخية لهذه المرأة.

في الفصل السادس ندرس «جولياندونا.. أو جوليا الفيلسوفة» ورعايتها للفلاسفة وعلماء الرياضيات، والأطباء، ومتهم الاسكندر الأفروديسي وجالينوس الطبيب، وفلوستراتوس الفيثاغوري.. إلخ. في حين ينصب الفصل السابع على «ماكريتا.. القديسة الزاهدة». أما الفصل الثامن والأخير، فسوف نخصصه للفيلسوفة المصرية التي ناع صيتها في العالم القديم «هيباشيا.. فيلسوفة الإسكندرية».

وإذا شعر القارئ أن النصوص قليلة للنساء الفلاسفة في العالم القديم، فعليه أن يكون على بينة أن تلك هي الحال نفسها بالنسبة للفلاسفة من الرجال في الفلسفة القديمة، وأن سقراط نفسه لم يكتب حرفاً واحداً، وأننا عرفنا آراءه وأفكاره مما يقوله تلميذه أفلاطون بصفة خاصة. لكن ذلك لا يعني أننا لن نجد طوال التاريخ مؤلفات لنساء فلاسفة، فعندما تتاح الفرصة للمرأة سوف تكتب وتترك أثراً فلسفياً خالداً: على نحو ما نجد، مثلاً، عند سوزان ستيبنج - Susan Stebbins (١٨٨٥ - ١٩٤٣) الفيلسوفة وعالمة المنطق الإنجليزية، أو سوزان لانجر - Susan Langer (١٨٩٥ - ١٩٨٥) فيلسوفة الجمال وعالمة المنطق الأمريكية، أو سيمون دي بوفوار - Simone de Beauvoir (١٩٠٨ - ١٩٨٦) الفيلسوفة الوجودية الفرنسية التي كتبت عن «الجنس الآخر»، وكتبت عن «الأخلاق»، كما كتبت عن «الشيخوخة».

فضلاً عن الروايات، تماماً كما فعل سارتر. ومن الألمان حنة أرندت Hannah Arendt (١٩٠٦ - ١٩٧٥) الفيلسوفة الألمانية الأصل التي هربت من النازي إلى الولايات المتحدة، وأصبحت منظرة سياسية، فقد كتبت عن «أصول الحكم الشمولي» كما كتبت «عن الثورة»، كما كتبت عن العنف، وعن الحرية، وعن حياة العقل .. إلخ. وعشرات غيرهن.

إنني لأمل، بهذا الكتاب، أن يعيد القارئ النظر في الآراء المساذجة التي تنشر في مجتمعاتنا عن المرأة، كما أمل أن أكون قد قدمت ما يساعد المرأة العربية على أن تستيقظ من جديد، وأن تواصل عطاءها السابق قبل الثورة.

والله نسأل أن يهدينا جميعاً سبيل الرشاد

إمام عبد الفتاح إمام

الكويت في يناير ١٩٩٦



الفصل الأول

« فيثاغورس... ومدرسته »

(من واجب المرء أن يكون صادقاً بغير قسم...!)

فيثاغورس

أولاً: نبذة عن فيثاغورس:

لما كانت المدرسة الفيثاغورية هي أول مدرسة في التاريخ أفسحت المجال للنساء للالتحاق بها، كما كانت بالتالي أول مدرسة نبغت فيها النساء، وظهر فيها «نساء ... فلاسفة» - فإن علينا أن نخصص لها الفصل الأول في محاولة للتعريف على فيثاغورس، والجماعة الفيثاغورية: نظامها، وفلسفتها... إلخ.

يقول ديوجينز اللايرتي Diogenes Laertius ... نقلاً عن أرسطو القورينائي في كتابه عن «الأطباء»: «إن فيثاغورس اكتسب اسمه لأنه «نطق بالحق» كشخص معصوم من الخطأ، كما تفعل عرافة دلفي المسماة Pythian»^(١). ويقول ول ديورانت في هذا المعنى: «إن معنى كلمة فيثاغورس هو «الناطق الفيثي» بلسان مهبط الوحي في دلفي. وكان كثير من أتباعه يقولون عنه إنه هو أبوللو نفسه»^(٢). ويزعم البعض أنه ابن مواطن له منزلته المرموقة، وهو منسارخوس .. Mnesarchos، في حين زعم آخرون أنه ابن الإله أبوللو. وسأترك

1- Diogenes Laertius: Lives of Eminent Philosophers Vol. II Translated by R. D. Hicks, Harvard University Press 1979. P.339.

٢ - ول ديورانت «قصة الحضارة» المجلد السادس. ترجمة محمد بدران ص ٢٩٣.
٣ - ب. راسل «تاريخ الفلسفة الغربية» الجزء الأول. ترجمة د. زكي نجيب محمود، ص ٦١، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

للقارئ حرية الاختيار بين هذين البديلين، على حد تعبير راسل^(٢).

وتقول الروايات المتواترة أنه ولد في جزيرة ساموس.. Sa-mos في بحر إيجه المواجهة لمدينة ملطية وأزدهر شأنه نحو عام ٥٣٢ قبل الميلاد، وتعزو إليه هذه الروايات أنه صرّف ثلاثين عاماً في الأسفار. ويقول عنه هيراقليطس: «إن فيثاغورس كان أكثر الباحثين متاهرة...»^(٣). ويبدو أن هيراقليطس يشير هنا إلى كثرة أسفاره. ذلك أنه ولد أثناء حكم بوليكراتس Polycrates طاغية ساموس، وأنه لهذا السبب هجر موطنه فراراً من الطاغية؛ فذهب أولاً إلى ملطية حيث لقي «طاليس» و «أنكسمندس»، وأخذ عنهما العلم، كما ذهب إلى سيروس Syros - إحدى جزر بحر إيجه أيضاً - ليستعلم من فيلسوقسها فيريكيديس Pherekydes. وعن هؤلاء المعلمين الثلاثة تلقى فيثاغورس أولى بقطة علمية وعقلية. وكان شاباً صغير السن عندما شرب من حكمتهم! ^(٢)، ويروى «ديوجينز اللايرتي أن الفيلسوف فيريكيديس كان يعيش في جزيرة نيلوس (وليس في سيروس) عندما

١ - شذرة رقم ١٧.

2 - Peter Gorman: Pythagoras: A Lif P.24.

3- Diogenes Laertius: Op. Cii, Vol, 2 P.32.

ذهب إليه فيثاغورس، حيث يقول: «كان فيثاغورس تلميذاً للحكيم فيريكيديس حكيم ديلوس Delos»^(٢) ويبسوا أنه ذهب إلى جزيرة ديلوس باعتبارها المكان المقدس لمولد الإله أبوللو^(١)، ولعل هذا هو السبب في أن هذا الإله أصبح الرمز الأعلى للفكر الديني الفيثاغورسي، كما أن هذه الجزيرة كانت المركز الثقافي الديني لأيونيا^(٣).

ثم زار فيثاغورس، ومنها توجه إلى مصر حيث أقام اثنتي عشرة سنة فيما يروي يامبليخوس.. Iamblichus^(٤) وفي مصر رفض كهنة هليو بوليس قبوله ليكون تلميذاً يتلقى العلم على أيديهم. كذلك رفضه كهنة «مفيس» بل رفضوا استقبال أحد «البرابرة»^(٥) ليكون ضمن طلبتهم أو ليتعلم أسرارهم، ونصحوه أن يتجه شمالاً. وهكذا ظل

١ - أبوللو Apollo أحد آلهة الأولمب الاثني عشر في أساطير اليونان، وهو ابن كبير الآلهة زيوس Zeus والربة ليتو Leto. وقد أخرج «زيوس» جزيرة ديلوس Delos من أعماق البحر خصيصاً لتكون محلاً لميلاد أبوللو. وتقول الأسطورة أنه تحدث فور ولادته.. إلخ. طالع قصته بالتفصيل في «معجم ديانات وأساطير العالم» د. إمام عبد الفتاح إمام، المجلد الأول، ص ١٠١ وما بعدها، الناشر مكتبة مدبولي بالقاهرة.

2 - Peter Gorman: Pythagoras: A Life, Routledge & Kegan Paul, 1979, P.15.

٣ - يقول بطرس جورمان «إنني أعتقد أن فيثاغورس مكث في مصر عشر سنوات فحسب. وليس اثنتي عشرة سنة كما يروي يامبليخوس فقد وصل إليها عام ٥٣٥ ق. م. عندما كان في الثلاثين من عمره. وظل بها حتى عام ٥٢٥ ق. م. عندما غزا قمبيز ملك الفرس مصر فغادرها فيثاغورس مع الفرس سجيناً، وقد قضى هذه السنوات العشر في المعابد المصرية تعلم فيها الهندسة والفلك والطقوس الدينية» راجع كتابه السالف ص ٤٣.

٤ - لفظ «البرابرة» هنا كان يعني - على الأرجح - الأمم الأخرى غير المصرية، وكان مستخدماً أيضاً عند اليونانيين ليصفوا به كل من ليس يونانياً.

فيثاغورس يتنقل بين المدن المصرية حتى وافق الكهنة عام ٥٣٥ ق.م. أن يكون تلميذًا على شرط أن يخضع ليمض الاختبارات - طبقا لما يرويه فرفوريوس - وإن كنا لا نعلم عن طبيعة هذه الاختبارات سوى أنها «طرق غريبة على الطرق الهلينية» وسوف يقوم بتطبيق اختبارات مماثلة في مدرسته بعد ذلك، ولقد كان على فيثاغورس أن يحلق شعر رأسه حتى يُسمح له بدخول المعابد المصرية، كما كان عليه أن يراعى المعصرات المصرية؛ فمثلا، هناك عدد من الحيوانات والطيور مقدس عند المصريين، ومن ثم يحرم ذبحه أو أكله، كذلك كان الكهنة المصريون يمتنعون عن أكل الفول لا نيئا ولا مطبوخا (لأنه عسير

١ - يذكر برتراند راسل في كتابه «تاريخ الفلسفة الغربية» بعض القواعد التي جاءت في مذهب فيثاغورس الديني على النحو التالي :-

- ١ - أن تمتنع عن أكل الفول.
- ٢ - ألا تلتقط ما قد سقط.
- ٣ - ألا تمس ديكاً أبيض.
- ٤ - ألا تكسر الخبز.
- ٥ - ألا تخطو من فوق حاجز.
- ٦ - ألا تحرك النار باليمين.
- ٧ - ألا تأكل من رقيق كامل.
- ٨ - ألا تنزع الزهر من إكليل.
- ٩ - ألا تجلس على مكيال.
- ١٠ - ألا تأكل قلباً.
- ١١ - ألا تمشي في الطرق العامة.
- ١٢ - ألا تسمح للعاصف أن تبني أعشاشاً في دارك.

2 - P. Göran: Pythagoras.P.60.

الهضم) وربما نلّمح هنا أصل المحرمات الشهيرة عند فيثاغورس^(١)، كما كان الصمت والسرية من خصال الكهنة المصريين أيضاً^(٢).

ويرى فرغوريوس أن فيثاغورس تعلم اللغة المصرية القديمة حتى تمكن من قراءة كتبهم المقدسة، وأنه كان يشارك في الأسرار والطقوس التي تقام في المعابد المصرية.

ويبدو أن فيثاغورس تعلم أيضاً أشياء كثيرة على يد كهنة المجوس في فارس، ولا سيما التطهر من أدران الحياة السابقة، والطريقة التي يظل بها الحكيم طاهراً غير ملوث، كما أنه استمع إلى محاضرات عن الطبيعة تفحص المبادأة الميتافيزيقية للكون.

كما أنه عرف أشياء كثيرة عن الشر، وأنه لا يوجد شر مطلق، بل هو خير على نحو ما؛ لأنه يشكل إنسجاماً جمالياً، وإن كان الشر في الكون مزعجاً، فإن السبب أنه يلوّث النفس، ويصيبها بالعرض. كما زار «أبراج الصمت» الزرادشتية، ووقف على مغزائها^(٣).

١ - طريقة في الديانة الزرادشتية للتخلص من جثث الموتى التي كانت تحرق في الديانة الهندوسية وتحنط عند المصريين القدماء. أما في الديانة الزرادشتية في فارس فقد كانت جثث الموتى تعرض فوق «أبراج الصمت» لثلاثهمها الطيور الجارحة حتى تتجنب تلوث الأرض بالدفن أو تلوث الهواء بالإحراق. راجع «معجم ديانات و أساطير العالم» د. إمام عبد الفتاح إمام، المجلد الأول، ص ٢٧٣ - مكتبة

ثانياً: إنشاء المدرسة:

لا يروى لنا كتاب السير القدماء كيف استرد فيثاغورس حريته من الأسر الفارسي. «فياميليخوس» يقول إنه كان «رهينة» ولم يكن بالضرورة عبداً، أو أنه كان سجين حرب (أي عبد مؤقت) يستطيع أن يفك أسرهِ، وأن يشتري حريته في أي وقت. وقد يكون فيثاغورس قد فعل ذلك، أو ربما مارس تأثيره الكارزمي Charisma. ويبدو أنهم يفضلون التفسير الأخير^(١).

عاد فيثاغورس إلى جزيرة ساموس - على اختلاف بين المؤرخين حول تاريخ العودة، وإن اتفقوا أن عودته كانت قيماً بين ٥٢١ ق.م. و ٥٢٩ ق.م. وأنه كان في ذلك الوقت في الأربعين من عمره (ويرى البعض أنه عاد في الخمسين أو في السادسة والخمسين من عمره)^(٢) - ولم يلبث أن ترك ساموس وذهب إلى ديلوس وكريت. وأخيراً استقر في كروتون.. Croton في جنوب إيطاليا حيث افتتح مدرسته^(٣).

وعلى الرغم من أن أقلاطون كان يرغب في إنشاء مدينة فاضلة تجمع حكماً من الرجال والنساء على حد سواء، فإنها لم تتحقق، ولم

١ - P. Gorman: Pythagoras., P.69.

٢ - د. أحمد نؤاد الأهواني «فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط» عيسى البابي الحلبي عام ١٩٥٣ - ص ٧٧.

٣ - المرجع السابق في نفس الصفحة.

تخرج قط إلى حيز الوجود رغم محاولاته المتكررة. ومغامراته الثلاث التي قام بها في سبيل تنفيذ هذا الحلم عند ديونسيوس طاغية سيراكوصه الابن ثم الأب^(١) وظلت الأكاديمية الأفلاطونية مقصورة على الخاصة من التلاميذ فحسب. ثم حاول أفلوطين (٢٠٤ - ٢٧٠ م) بعد ذلك أن يذش في عهد الإمبراطور الروماني جالينوس Gallienus (إمبراطور روما من ٢٥٣ - ٢٦٨ م) مدينة فيثاغورية للفلاسفة، لكن الحكومة الرومانية عارضت تحقيق هذا الحلم، كما أن مجلس الشيوخ المحافظ رفض هذه الفكرة، فاكتمل أفلوطين بإنشاء مدرسة كانت تستقبل النساء أيضاً.

ومن هنا كانت المدرسة التي أنشأها فيثاغورس في كروتون بجنوب إيطاليا هي أول مدرسة تسمح باستقبال المرأة وتعليمها، مع اعترافه بوجود فروق خاصة بين الجنسين، نظراً للاختلاف الطبيعي بينهما، ومن هنا فقد كان يُعلّم المرأة الفلسفة والآداب، كما كان يُعلّمها تدبير المنزل، والأمومة، حتى اشتهرت المرأة الفيثاغورية في الزمن القديم بأنها أفضل نساء الإغريق. ولما كانت المدرسة تستقبل الرجال والنساء، على السواء، من جميع الطبقات - فقد كانت لهذا السبب أشبه ما تكون بالمجتمع المثالي^(٢).

لقد كان للمدرسة الفيثاغورية نظام من الأخوة، كانها دير أو

١ - راجع القصة بالتفصيل في كتابنا: «الطاغية» ص ٨٩ وما بعدها، وكذلك «أفلاطون والمرأة» العدد الأول من سلسلة: «الفيلسوف .. والمرأة» مكتبة مدبولي بالقاهرة.

2 - Peter Gorman : Pythagoras P.70.

معبد، فجميع الطلبة يرتدون زيًا واحدًا هو الملابس البيضاء، ويعيشون معيشة واحدة هي حياة الزهد والتقشف والبساطة، ولا ينتعلون - في الأعم الأغلب - بل يمشون حفاة الأقدام على نحو ما كان يؤثر عن سقراط الذي كان متأثرًا - فيما يبدو - بتعاليم الفيثاغورية تأثرًا شديدًا على نحو ما يتضح في محاوره «فيدون»، ولا يحلفون بالآلهة «لأن من واجب المرء أن يكون صادقًا بغير قسم»، كما كانوا يحاسبون أنفسهم في نهاية اليوم على ما فعلوه طوال النهار، فيمسأل كل واحد منهم نفسه عن الشر الذي ارتكبه، والخير الذي قدمه، والواجب الذي أهمل في أدائه.

ولم يكن التعليم كتابية، بل: سماعًا، وتلقيًا، ومشافهة من الأستاذ إلى التلاميذ، ولم يؤثر عن فيثاغورس أنه ألف كتابًا. وكانت تعاليم المدرسة سرية يعاقب من يفشيها بالطرد؛ ولهذا التزم الأعضاء بالسرية التزامًا دقيقًا، إلى حد أن أسرارهم لم تعرف إلا في عصر سقراط وأفلاطون، عندما كتب فيلولاوس .. Philolaus الفيلسوف الفيثاغوري في القرن الخامس قبل الميلاد كتابًا من ثلاثة أجزاء - تحت إلحاح الحاجة إلى المال فيما يقال - واشتراه منه «ديون»، حاكم سراقوسة استجابة لنصيحة أفلاطون. كما كان «الصمت» من أداب المدرسة، حتى لقد ذهبوا إلى أن التلميذ الجديد مطالب بالصمت خمس سنوات، ويريدون بذلك قبول التعاليم بغير أسئلة أو جدال.

غير أن ذلك كله ليس سوى فكرة عامة عن مدرسة فيثاغورس التي جمعت - لأول مرة - بين الرجال والنساء في معهد واحد، وأعطت المرأة قدرًا قليلًا من الفرص لكي تُظهر قدرتها العقلية وسط ما يسمى بالجماعة الفيثاغورية، فما هي هذه الجماعة؟ وما بنيتها وقواعدها؟ وما

ثالثاً: الجماعة الفيثاغورية:

استقر فيثاغورس في كروتون Croton - بعد الأسر الفارسي - وهي مستعمرة يونانية في جنوب إيطاليا، ومركز تجارى هام، وميناء للتجارة الخارجية. وربما انتشرت فيها الديانة الأورقية لهذا السبب^(١). وإن كانت الحياة الدينية فيها أكثر جموداً من المدن اليونانية، إذ لم يسمعو قط عن المذهب العقلى عند فلاسفة أيونيا، ولكن سرعان ما أصلح لهم فيثاغورس هذا النقص^(٢).

ولقد ثار جدال طويل بين الباحثين حول الجماعة التى أسسها فيثاغورس في جنوب إيطاليا عندما وصل إلى كروتون. واختلفوا فى صفة هذه الجماعة: أكانت جماعة سياسية؟ وهل اشتغل فيثاغورس بالسياسة؟ لكن الواقع هو أنه يصعب القول بأن الجماعة الفيثاغورية كانت منظمه سياسية، وإنما هى بالأحرى جماعة صوفية فلسفية على غرار النحلة الأورفية التى انتشرت فى اليونان وإيطاليا. وربما كانت

١ - الديانة الأورفية Orphism ديانة يونانية قديمة تنسب إلى Orpheus ، وهو شاعر وموسيقيار - ابن الإله أبوللو وكاليوبى - فى الأساطير اليونانية. كان عازفاً ملهماً تطرب الآلهة والناس، والحيوانات - حتى الوحوش الفسارية - والأشجار والصحور - من أنغام قيثارته. ثم أصبحت الأورفية ديانة تذهب إلى أن الروح جوهرة إلهي، وإنها لا تبلغ درجات حياتها الحقيقية إلا بعد وفاة الجسد. كما ذهب إلى أن الأرواح تتناسخ، متخذة أشكالاً أبدي أو أعلى تبعاً لأعمال صاحبها فى الدنيا. والأورفية تزيد الجسد، وتمسجد الحياة الآخرة، وتبحث على النقاء الأخلاقى، مكرزة على مسئولية الفرد عن الإثم. وقد تأثر بها فيثاغورس فى كثير من أفكاره، ونقل عنه أفلاطون.

2- P. Pythagoras, P.89.

هناك بعض النتائج السياسية لتعاليم الفيثاغورية على أعضاء الجماعة، لكنها نتائج غير مقصودة، فهي لم تسع فقط إلى حكم كروتون أو أية مدينة إيطالية أخرى، ومع ذلك كله فقد ظل فيثاغورس بعيداً تماماً عن الاضرار في مجال السياسة^(١).

يقول «يامبليخوس»: «إن فيثاغورس أسس جماعته بعد وصوله إلى كروتون مباشرة.. فقد كانت مدينة كروتون أول مكان ظفر فيه فيثاغورس بعدد من التلاميذ، وتخبرنا وقائع التاريخ أنهم كانوا أكثر من ستمائة تلميذ شاركوا حياة واحدة طبقاً لتعاليمه. وكان هؤلاء التلاميذ فلاسفة، كما كان هناك مستمعون آخرون يطلق عليهم اسم Acous-matics^(٢)».

ولاشك أن هذا الوصف ينطوي على كثير من المبالغة، فليس من المعقول أن يؤسس فيثاغورس جماعته فيتوافد عليه التلاميذ في الحال، لدرجة أن يظفر بعدة مئات منهم، فضلاً عن عدة آلاف من المستمعين^(٣).

1 - Ibid, P.113.

2- Ibid, P.114.

٣ -- يروي يامبليخوس في كتابه «حياة فيثاغورس De Vita Pythagorica» أن أكثر متابعي من أهالي كروتون استمعوا إلى حديثه فسحروهم حتى أنهم رفضوا العودة إلى منازلهم، بل بقوا مع زوجاتهم وأولادهم في مدرسة فيثاغورس!

ولأن كان مما لاشك فيه أن خطبه وأحاديثه كانت ذات تأثير قوى،
لما يتمتع به فيثاغورس من شخصية كارزمية Charismatic^(١).

والجماعة الفيثاغورية - على نحو ما وصفها يامبليخوس - هي
جماعة دينية وفلسفية وليست منظمة سياسية. ومن هنا كانت لها
قوانينها وقواعدها الخاصة كما لو كانت «دولة داخل الدولة»؛ إذ ينقصل
أعضاؤها عن بقية سكان كروتون. والمصطلح الذي استخدم في وصف
هذه الجماعة هو «هوماكسيون» Homakseion، أي: المكان الذي
يجتمع فيه الناس جنباً إلى جنب ليستمعوا إلى آراء فيثاغورس الذي كان
مذد البداية قائداً لهذه الجماعة.

وليس ثمة شك في أن فيثاغورس كان منذ البداية رأس هذه
الجماعة، وأن أعضائها كانوا أتباعاً له وتلاميذاً لفلسفته، وأنهم كانوا
يخضفون عليه صفة القداسة التي يعنون بها أحياناً إلى الإله أبوللو
نفسه.

ويبدو أن فيثاغورس كان يقوم بتدريس ديانة فلسفية، تعتمد في
بعض جوانبها على عبادة الإله أبوللو. وربما كان ذلك هو السبب في أن
«كروتون» سكّنت عملة نقش عليها اسم الإله أبوللو. ولا بد أن نتذكر أن

١ - بطرس جورمان: فيثاغورس من ١١٥. والكارزمية مصطلح استعمله ماكس
فيبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠) من الكتاب المقدس، حيث كان يعني «عطية» أو «وهبة»
ليعني به القدرة التي يتمتع بها شخص ما تمكنه من التأثير في الآخرين إلى الحد
الذي يجعله في مركز سلطة، بحيث يمنحه الواقعون تحت تأثيره حقاً تسلطية
عليهم.

الإله الراعى لهذه المدينة هو «هرقل»، كما أشار فيثاغورس في خطبته إلى الشباب^(١).

ولقد ازدهرت هذه الجماعة في حياة فيثاغورس، لكنها تطورت أيضاً بعد وفاته. والواقع أنك لن تجد مدرسة فلسفية في العالم القديم انتشرت بالسرعة والقوة التي انتشرت بها الفيثاغورية، والتغيرات والتعديلات في النظريات الزصلية اندمجت في جسد المعتقدات الفيثاغورية نتيجة لأنها تتكيف مع روح فيثاغورس الحاضرة دوماً. وفي النهاية: تشعبت التطورات واختلفت، أو قل ضاعت «الهرموني- Hormonia» القديمة في سلسلة من المنازعات والإنشاق داخل الجماعة، وابت فلسفة العدد إلى نتائج مختلفة، حتى أفضى بعض الأعضاء أسرار الاستاذ وكونوا حركات خاصة بهم: فظهر ما نسميه بالفيثاغورية المتأخرة التي كان على رأسها الفيلسوف الفيثاغوري فيلولاوس، ثم ظهرت بعد ذلك مرة أخرى في مدينة الإسكندرية... إلخ.

١ - خطبة طويلة نكروها أوفيد في مسخ الكائنات - وأنظر ترجمة د. ثروت عكاشة ص ٣٢٢ وما بعدها - الهيئة المصرية العامة للكتاب - عام ١٩٨٤.

رابعاً: بناء الجماعة وقواعدها:

علينا الآن أن نفحص بنية الجماعة والقواعد التي كانت تحكمها . لقد كان النظام في الجماعة الفيثاغورية نظاماً هيراركياً تصاعدياً يقف على قمته فيثاغورس نفسه ، ثم يسير سفلًا إلى القاعدة ، وهو ينقسم إلى قسمين متميزين: الفلاسفة في جانب ، والمستمعين في جانب آخر . ولاشك أن الفلاسفة كانوا قلة - قليلة في عددهم إذا ما قورنوا بالمستمعين . وأغلب الظن أنهم كانوا يمثلون الشباب القادر على دراسة رياضيات فيثاغورس . أما المستمعون فقد كان من بينهم الشيوخ وعائلاتهم . ولم يكن القبول في المدرسة مقتصرًا على الرجال ، بل كان يشمل أيضًا عددًا كبيرًا من النساء ، ومن هنا كان من التسميات الخاطئة أن يقال عن الجماعة الفيثاغورية إنها كانت جماعة من «الإخوان» - أي الرجال الإخوان - فقد كان الفيثاغوريون - وتطويراتها من الفيثاغورية المحدثة حتى الأنلاطونية المحدثة - هي الفرقة الفلسفية الوحيدة التي أخرجت للعالم نساء فلاسفة ذائعات ، ابتداءً من ثيانو .. Theano زوجة فيثاغورس وبناتها الثلاث: أريجنوت .. Arignote ، وميبيا .. Myia ، ودامو .. Damo ، اللاتي قمن برئاسة المدرسة الفيثاغورية بعد وفاة مؤسسها ، حتى هيباشيا Hypathia فيلسوفة الإسكندرية الشهيرة على نحو ما سنعرف فيما بعد . والفيثاغورية كانت المدرسة الفلسفية الوحيدة التي سمحت للنساء ، على هذا النحو ، بالالتحاق بها ، والمشاركة في حياتها ، وإعطائهن فرص التعليم .. إلخ ، مما جعل باحثًا مثل إلفي .. I. Levy . يسعى في كتابه «بحوث حول مصادر أسطورة

فيثاغورس» إلى المقارنة بين أتباع فيثاغورس من النساء وأتباع المسيح ولاسيما النساء الثلاث المسميات باسم مريم^(١).

يقول يامبليخوس حول تقسيم الجماعة الفيثاغورية:

«... دعنى الآن أخبرك كيف كان فيثاغورس يقسم أعضاء الجماعة بعد أن تم اختيارهم لجدارتهم (وبعد اجتيازهم الاختبارات المطلوبة)؛ لم يكن من المناسب فى رأيه أن يشترك أعضاء الجماعة بالتساوى فى نفس الأمور، ولا حتى أن يشاركوا فى جميع الأفكار ذات المكاة السامية، بينما يترك آخرون تماماً؛ لأن ذلك لن يكون عدلاً ولا إنصافاً، ولا حياة جماعية. أما توزيع حصة مناسبة من النظريات الأساسية على كل عضو، فإن ذلك يفيد الجميع بقدر المستطاع. كما أنه يمكنه من أن يستخدم الوسيلة العادلة، ويمتص كل عضو التعاليم التى هو أهل لها. «ومسيرة لهذا الخط من التفكير، نراه يطلق على بعض الأعضاء اسم «الفيثاغوريين على الأصالة»، ويعتقد أن هؤلاء ينبغي أن يشاركوا فى كل شئ على المشاع، وأن يعيشوا حياة فيها قدر من الشيوعية طوال الوقت. أما الآخرون فقد سمح لهم بملكية خاصة، وأن يأتوا «فى نفس المكان للاجتماع بعضهم مع بعض»^(٢).

١ - راجع كتاب بطرس جورمان السالف ص ١٢٠ - وأيضاً كتابنا «الفيلسوف المسيحى... والعزلة» وهو العدد الثالث من هذه السلسلة (مكتبة مبدولى بالقاهرة) ولاسيما الصفحات من ٤٣ حتى ٤٨.

٢ - يامبليخوس «حياة فيثاغورس» ص ٤٦ (نقلا عن بطرس جورمان فى كتابه سالف الذكر ص ١٢٠ - ١٢١).

وفضلا عن ذلك، فقد كان فيثاغورس يطلق على «الفيثاغوريين» الحقيقيين» من الرجال والنساء اسم: «المنتظمين»، أما الأعضاء الآخرون فيطلق عليهم اسم «المستمعين». الفريق الأول يعيش حياة جماعية، ولا يملكون أشياء خاصة بل الملكية مشاع فيما بينهم، في حين أن الفريق الثاني من حقه أن يملك ملكية خاصة (وتلك هي جذور الفكرة التي سيعرضها أفلاطون في الجمهورية فيما بعد)^(١) - الفريق الأول يعيش داخل المدرسة، والفريق الثاني يملك بيوتا خاصة يذهبون إليها بعد انتهاء المحاضرات (وكان المستمعون يشكلون الغالبية العظمى من أتباع). وهكذا كان هناك فريقان أو قسمان واضحا منذ البداية في المدرسة الفيثاغورية، ثم ظهرت بعد ذلك فئات أخرى. فقد كان بعض أتباع فيثاغورس يكرسون وقتهم للفكر النظري، وكان كل عضو يلقب بلقب «المهيب» أو «الجيل» في حين كان البعض الآخر يشغل وقته بدراسة شؤون البشر.

«أما الفريق الأول (الذي يهتم بالفكر النظري) فقد كان يشغل نفسه بالرياضيات والهندسة، والفلك، ولهذا السبب أطلق عليه اسم «المنتظمين»، ولقد كان من هذا الفريق أعضاء هم تلامذة مباشرين لفيثاغورس كان يطلق عليهم لقب الفيثاغوريين... إلخ»^(٢).

وربما كانت هذه التقسيمات مقتبسة من مراحل تالية في تطور

١ - راجع كتابنا «أفلاطون... والمرأة» المجلد الأول من هذه السلسلة - مكتبة مدبولي بالقاهرة - ص ٥٩ وما بعدها.

2 - P. Gorman : Pythagoras... P.120.

الجماعة؛ إذ لا شك أن تسمية تلاميذ فيثاغورس باسم الفيثاغوريين مسسألة تنتمي إلى مرحلة متأخرة من تطور الجماعة بعد وفاة فيثاغورس، وتولى تلاميذه شؤون المدرسة. وقل نفس الشيء بالنسبة للفيثاغوريين السياسيين الذي اهتموا بشؤون البشر. فقد ظهرت هذه التسمية عندما بدأ الفيثاغوريون يهتمون بالسياسة. في حين أن «الوقورين» أو «المبجلين» كانوا هم قادة الجماعة في الحلقة الداخلية. فقد كانت هناك حلقة داخلية من المقربين الذين يسمح لهم أن يكونوا خلف الستار، بحيث يمكن أن يروا فيثاغورس وأن يستمعوا إليه. إذا وجدوا فيثاغورس كان يختفى وراء ستار عندما كان يلقى دروسه على المستمعين، والمبتدئين، والأعضاء الجدد، ولم يكن مسموحاً لهم برؤيته رؤية مباشرة. أما أعضاء الحلقة الداخلية، فهم وحدهم الذين يسمح لهم برؤيته وسماعه. وعندما يجتاز المبتدئ جميع الاختبارات التي تفرض عليه يسمح له أن يجلس خلف الستار، ويصف يامبليخوس هذه الاختبارات، وعملية الترسيم^(١)، على النحو التالي:--

«... لما كان فيثاغورس يتشغل، على هذا النحو، بتعليم تلاميذه، فإنه لم يكن يسمح للشباب بالالتحاق المباشر بالجماعة الفيثاغورية إلا بعد اجتياز عدد من الاختبارات»^(٢). ثم يصدر حكمه على مستواهم بعد

١ - الترسيم Initiation: الاحتفال يدخل عضو في سلك جماعة دينية عن طريق تادية طقوس معينة.

٢ - ربما اقتبس هذه الطريقة مما كان يفعله الكهنة المصريون، ولقد سبق أن ذكرنا أنهم اشترطوا أن يمر ببعض الاختبارات حتى يقلل تلميذاً لديهم.

ذلك. وكان السؤال الأول الذى يُوجّه إليهم هو: ما هى الطريقة التى سوف ترتبطون بها بوالديكم، وبأقاربكم؟ ثم يراقبهم أثناء الإجابة عن أسئلته: هل يضحكون فى وقت لا يناسب الضحك، أم أنهم كانوا طوال الوقت هادئين ساكنين؟ هل يكثرون من الكلام؟ ثم ماذا عن الثرثرة والهذرة؟^(١).

ثم يسألهم فيثاغورس عن أصدقائهم، وماذا يفعلون معهم فى أوقات فراغهم؟ وماذا يفعلون؛ ما مسماهم طوال النهار؟ ما هى الأمور التى تدخل على قلوبهم السرور أو الحزن؟

وهو - أثناء ذلك كله - يراقب مظهرهم، وحركاتهم وسكناتهم، وهيئة الجسم، وطريقة المشى، وجميع الإيماءات... وهو يحكم على خلق الشاب من ملامح وجهه، ويفسر خصائصه النفسية غير المرئية من صفاته الخارجية التى يلاحظها.

وكل من يجتاز هذا الاختبار يظل تحت المراقبة ثلاث سنوات، لاختبار أثاره واستقراره، ورسائته، وحبه للعلم، ثم ليعرف: هل هذا المبتدئ لديه استعداد للانصراف عن الدنيا والزهد فى الأمور الحسية، ومنها المجد الدنيوى؟ ثم هو يفرض على المبتدئ الصمت خمس سنوات؛ ليرى مدى قدرته على التحكم فى نفسه، وضبط سلوكه، والسيطرة على تصرفاته. فقد كان فيثاغورس يعتقد أن ضبط اللسان أشد صعوبة من جميع الأنواع الأخرى لضبط النفس. وخلال هذه الفترة يقوم أتباع فيثاغورس بتحديد واجبات

1- P. Gorman : Pythagoras, P.122.

المبتدئ. وبعد هذه السنوات الخمس من الصمت، فإن المبتدئ يدخل ضمن الصلقة الداخلية.

والطريف أن فيثاغورس كان يحكم على المبتدئين من خلال الاختبارات التي يجريها عليهم، بغض النظر عن نبالة المولد أو وضع الأسرة في المجتمع. ومن ثم يخطئ من الكتاب والباحثين من يذهب إلى أن الجماعة الفيثاغورية كانت أرسقراطية، كما يخطئ من يظن أنها كانت جماعة من «الإخوة» أو «الإخوان» دون أن يضيف إليها الأخوات أيضاً.

لقد كانت مهمة الاختبارات أن تجعل السالك، أو المبتدئ، يتكيف مع أخلاق فيثاغورس. فالمشهور أن للجماعة قواعد صارمة منها: «السرية»، و«الكتمان»، و«الخفاء»، و«الصمت»، و«الامتناع عن الضحك»، و«الكف عن الصخب والضجيج»، و«ممارسة ضبط النفس»، كما أنه ينبغي ألا يراه أحد وهو يمارس الجنس، أو وهو يقوم بوظائفه الطبيعية، أو حين يلبي نداء الطبيعة. ومن الواضح أن فيثاغورس كان يريد أن يخلق في تلاميذه «الإنسان الأعلى» أو أن يجعلهم في مستوى أعلى من الطبيعة البشرية المألوفة. فالصمت لمدة خمس سنوات (ونحن لا نعرف هل كان صمتاً تاماً وشاملاً، أم أنه كان استرخاء من القواعد) كانت له أهمية خاصة، لأنه مران للمساكين على ممارسة الاحتفاظ بنظريات المعلم سرية وفي كتمان، وعدم البوح بها لأحد مهما علا شأنه.

لقد كانت فلسفة فيثاغورس ذات مسحة دينية سرية كما لاحظ مؤرخ الفيثاغورية «يامبليخوس»، ويتجلى ذلك في التنبيه على أعضاء

الجماعة بعدم إنشاء أسرار تعاليم فيثاغورس، ويُقد كانت الجماعة، من هذه الزاوية، على النقيض من المنظمات السياسية التي كان مبرر وجودها يكمن في الدعاية والإعلان عن أفكارها وانتشار الآراء التي تدعو إليها. غير أن الفيثاغورية في هذا «الصمت» تخالف حتى الديانات العلنية التي تعظ الناس وترشدتهم بأفكارها وأرائها علانية. المهم إلا إذا قلنا إن «الصمت» يرجع إلى أن كثير من النظريات الفيثاغورية كانت ذات طابع ثوري، وأن الغالبية العظمى من الناس لن يستطيعوا فهمها. ومن ثم فإن إزاعتها وإعلانها للجميع سوف يجلب متاعب سياسية، واجتماعية، وهو ما حرصت الجماعة على تجنبه^(١).

وما أن يدخل العضو الجديد سلك الجماعة، حتى يكون عليه مراعاة قواعدهما وقوانينها. وربما كانت القاعدة التي تثير مشكلات للعضو الجديد هي «المشايعة»، ولا سيما بالنسبة لأعضاء الحلقة الداخلية؛ إذ لا يجوز لهم أن يملكوا شيئاً؛ فقد كان فيثاغورس يعتقد أن الملكية أي المستغنيات الخاصة تعوق الفكر النظري والتأمل العقلي للحقائق الإلهية، ولا تجعل ذهن الفيلسوف «صافياً» نقياً، بل قد تزور الشقاق بين الأعضاء^(٢).

سوف نعرض بعد قليل ليوم في حيازة عضو الجماعة

1 - P. Gorman : Pythagoras, P.124.

٢ - قارن ذلك بما يقوله أفلاطون المتأثر بالفيثاغورية «شهوة التملك الجامحة هي أصل كل بلايا الدول والأفراد» الجمهورية ٧٧٢. وانظر أيضاً كتابنا «أفلاطون.. والمرأة» ص ٦٥ مكتبة مديبولي.

الفيثاغورية، وإن كانت معظم أوقاتهم مكرّسة، بصفة عام، للدراسة النظرية. فأساس فلسفة فيثاغورس هو «الرياضيات»، ومعظمها ليست رياضيات تطهيقية، بل نظريات رياضية، ومن هنا اهتموا بدراسة خصائص العدد. فقد أصبح العدد واحد Monas رمزاً للثبات والدوام في الكون. ومن الواحد يأتي كل شيء طيب في هذا العالم؛ لأن الواحد هو أصل الأعداد الفردية. أما العدد اثنان Dyad فهو رمز للنقص في الكون؛ فالعالم لايد له من تناغم الأضداد، فلا يمكن أن نفسره بوجود الخير وحده، أعني «الواحد»، بل لايد من وجود عنصر الشر الذي يقاوم نشاط الخير. ويقال إن فيثاغورس استمد هذه الثنائية الكونية من ثنائية المجوس. ويقول أرسطو إن الفيثاغوريين - لهذا السبب - وضعوا قائمة من الأضداد عددها عشرة أضداد على النحو التالي:

١ - المحدود - واللامحدود.

٢ - الفرد - الزوج.

٣ - الواحد - الكثير.

٤ - اليمين - الشمال.

٥ - الذكر - الأنثى.

٦ - السكون - الحركة.

٧ - المستقيم - المتعرج.

٨ - النور - الظلمة.

٩ - الخير - الشر.

١٠ - المريع - المستطيل.

والملاحظ أنها عشرة أضعاف، وأن العدد عشرة هو أكمل الأعداد^(١).

ونتيجة لدراسة الفيثاغورية لخصائص العدد أن أصبح العدد ٤ رمزاً للعدالة ، والعدد ٦ رمزاً للزواج .. إلخ^(٢).

وعلى أن نلاحظ، في النهاية، أن الحلقة الداخلية عند الفيثاغوريين تشبه طبقة الحراس عند أفلاطون، مع فارق واحد هو أن الفيثاغوريين لم يكن لهم دور في السياسة، وحراس أفلاطون يهبطون من برجهم العاجي، لكي يطبقوا نظرياتهم في الحياة السياسية والاجتماعية. وهذا ما لم تفعله الفيثاغورية الأولى - أي المبكرة.

ومع ذلك، فلم يكن الفيثاغوريون مثل رهبان العصور الوسطى، فقد تزوجوا، وكانت هناك عناصر نسائية كثيرة في الجماعة، ولم يكرسوا حياتهم للصلاة، بل للبحث الفلسفي. وأفضل نموذج للفيثاغورية هو ما قام به أفلوطين في القرن الثالث الميلادي، عندما جمع في روما حلقة من أتباعه على غرار الجماعة الفيثاغورية الشيعية، وهكذا عاش أفلوطين وسط المدينة العاصمة في ظروف غريبة؛ فهو يعيش في بيوت الآخرين، ويتناول طعامهم. ومن حسن الحظ أنه كان نباتياً، فلم يأكل إلا القليل، لكنه كان يرى أطفالهم!

1 - Peter Gorman : Pythagoras, P.141.

2 - Ibid: P.127.

خامساً: يوم في حياة الفيثاغوري:

كان فيثاغورس هو قائد الجماعة، فهو الذي يوجه سلوكها، ويضع لها الخطط، كما كان على جميع الأعضاء أن يمتثلوا لأوامره وتعليماته. فكيف أعد لهم فيثاغورس يومهم؟!

* تستيقظ الجماعة عند الفجر. ويقوم كل عضو، بمفرده، بجولة في أماكن تكون هادئة أو ساكنة بطبيعتها، اعتنى يلقيها الصمت التام، وذلك بأن يسير مثلاً حول المعابد، أو يتجول في الأيكات المقدسة؛ والسبب أنه لا ينبغي عليه أن يقابل أحداً في الصباح الباكر، أو الالتقاء بالناس، إلا عندما يتهياً ذهنه لذلك. فسكون الفجر وهدوء الأماكن المقطرقة تنسجم مع الحالة الذهنية الجيدة، في حين أن الانخراط في دنيا الناس، والانغماس وسط الجماهير بعد اليقظة مباشرة، إنما يكون مزعجاً للنفس. ولهذا فمن الأفضل للفيثاغوري باستمرار أن يختار في هذا الوقت المبكر من الصباح الأماكن المقدسة التي يمنع فيها الضجيج والصخب، ويستحب الهدوء والصمت، وينتهزون هذه الفرصة لتثبيت دعائم الفضائل الأخلاقية.

* يعود العضو الفيثاغوري من هذه الجولة الصباحية التي اعتنى فيها بالنفس ليقوم بالعناية بالجسد، فبعضهم يقوم بمسح جسمه بالزيت ويجري قليلاً، في حين يقوم البعض الآخر بالعباد المصارعة في حديقة المدرسة، بينما يقوم البعض الثالث بالقفز... إلخ. وهم بصفة عامة يمارسون التمرينات الرياضية التي تقوى البدن.

* بعد ذلك يتناول العضو طعام الإفطار المكون من الخبز والعسل، ويحرم عليه تناول النبيذ أثناء النهار. وبعد الإفطار يكرس وقته لدراسة المسائل الاقتصادية والسياسية.

* ثم يقوم الأعضاء بجولات المشي، لكن في جماعات هذه المرة، وليس فرادى على نحو ما كانت نزعات الفجر! فالجماعة الصغيرة قد تتألف من عضوين أو ثلاثة، وهم يستعيدون دورهم ويستذكرونها أثناء المشي.

* بعد عودتهم من جولة المشي الجماعية يستحمون، ويلتقون بعد الاستحمام في غرف ضيقة - لا تتسع الغرفة الواحدة لأكثر من عشرة أشخاص - بهدف الدراسة، حتى يتم دعوتهم للمشاركة في الوجبة العامة، وجبة الغداء، فيقومون أولاً بحرق البخور وتقديم القرابين إلى الآلهة من الحيوانات، ثم يذهبون لتناول طعام الغداء - وعليهم أن ينتهوا منه قبل غروب الشمس - ولهم أن يتناولوا النبيذ، وفطيرة من الشعير والنباتات الطازجة والمطبوخة، وهم قليلاً جداً ما يأكلون السمك، ثم يسكبون الخمر تكريماً للآلهة، ويأتي بعد ذلك موعد القراءة، وقد جرت العادة أن يقوم أصغر عضو بالقراءة، أما أكبر الأعضاء فهو الذي يختار الموضوع الذي ينبغى قراءته والطريقة التي تتم بها هذه القراءة.

وعندما يأتي موعد رحيل الأعضاء إلى بيوتهم، فإن أكبر أعضاء الجماعة يتلو العبارة الآتية، وهي أشبه بالتعليمات والتحذيرات :

«عليك ألا تؤذي أحداً، ولا تقتل نباتاً مزروعاً، ولا تخرب شجرة من أشجار الفاكهة، ولا تؤذي حيواناً لا يكون هو نفسه مؤذياً للبشر،

وفضلاً عن ذلك فإن عليك احترام الآلهة، وأن تتخذ منهم موقفاً نبيلاً، وكذلك لا بد أن يكون هذا هو موقفك تجاه الأبطال، ومن الوالدين والمحسنين، كما أنه ينبغي عليك مساعدة القانون، ومحاربة الخارجين عليه^(١).

وبعد أن تتلى هذه العبارة، يذهب كل عضو إلى بيته وهو يرتدي الملابس البيضاء النظيفة الطاهرة (ويبدو أن هذا الزي هو ما كان يرتديه الكهنة المصريون). أما في منازلهم فلا بد أن تكون لهم أسرة بيضاء نظيفة، ويكون فراشها من القليل؛ إذ لا يسمح لهم باستخدام الصوف^(٢).

هذا هو وصف المؤرخ الفيثاغوري يامبليخوس ليوم في حياة العضو الفيثاغوري. لكن يبدو أن هذا الوصف ينطبق على فئة المستمعين من طبقة الفلاسفة في الجماعة الفيثاغورية؛ لأن طبقة الفلاسفة لا يأكلون اللحم ولا يشربون الخمر، وليس عليهم استئذكار دروسهم، كما أنهم يعيشون معاً داخل المدرسة الفيثاغورية، على خلاف المستمعين الذين يجتمعون أثناء النهار، ثم يعودون إلى بيوتهم أثناء الليل^(٣).

ولهذا كان من الصواب أن نقول إن الوصف السابق ليوم في حياة العضو الفيثاغوري إنما يقتصر على المستمعين فقط دون الفلاسفة

1 - P. Gorman : Pythagoras. P.129.

2- Ibid.

3- Ibid.

الذين كانوا يعيشون حياة فكرية وروحية أفضل من ذلك، ويقومون بالإنجازات الفردية ليستأملوا ما أنجزوه من أعمال في اليوم السابق، وليتدبروا نظريات المعلم. وربما التقوا بعد ذلك لمناقشة تعاليم فيثاغورس، ولتناول طعام الإفطار من العسل والخبز (لأن فيثاغورس كان مغرماً بالعسل) كما كانت التمرينات الرياضية جانباً هاماً من برنامجهم اليومي، كما كانوا يتناولون الطعام في صالات فسيحة، وهي فكرة اقتبسها فيثاغورس من الاسبرطيين والكريتيين. وبدلاً من تقديم القرابين من الحيوانات يبدو أن الفلاسفة كانوا يقتصرون على البخور الذي كان فيثاغورس مغرماً به أيضاً، فيستخدمه كوسيلة - كما يقول فرفوريوس - للروح والتنبؤ. وكانت الوجبة الرئيسية لهؤلاء الفلاسفة نباتية، فلا يسمح حتى بلحوم الضحايا والقرابين. وبعد انتهاء اليوم يظل الأعضاء في المدرسة، حيث يكون كل شيء بينهم مشتركاً. ومن ثم فإن الوصف السابق هو وصف لطبقة المستمعين، وربما انطبق أيضاً، مع تصحيح بعض التفصيلات الدقيقة، على المنتظمين^(١).

1- P. Gorman : Pythagoras, P.130

خاتمة:

بعد هذه الجولة العامة في المدرسة الفيثاغورية، لا بد لنا أن ننتبه جيداً إلى ما يأتي:

١ - كل ما سبق أن ذكرناه عن «العضو» الفيثاغوري ينطبق على الرجال والنساء معاً.

٢ - تشير المصادر القديمة إلى أن النساء كن نشطات للغاية في المدرسة الفيثاغورية، وقد لعبن دوراً أساسياً في تطور الفيثاغورية الأولى.

٣ - يشير ديوجينز اللايرتي في كتابه عن «حياة مشاهير الفلاسفة» إلى تأثر فيثاغورس ببعض الشخصيات النسائية، فضلاً عن تأثره بالمدرسة الأيونية، ثم بالمصريين والفرس على نحو ما سبق أن ذكرنا بالتفصيل - يقول في ذلك:-

« يؤكد أرسطونكسوس Aristonexus أن فيثاغورس قد استمد الجزء الأكبر من نظرياته في الأخلاق من ثيمستوكليا The-mistoclea^(١) التي كانت تعمل كاهنة للإله أبوللو في دلفي...^(٢)».

وسوف نتبين في الفصل القادم نور النساء الفيثاغوريات في المسرحلة الأولى أو المبكرة، ثم ندرس في الفصل الثالث نساء الفيثاغورية المتأخرة.

١ - يعتقد ديوجينز اللايرتي في كتابه، وسيداس في قاموسه. أنها شقيقة فيثاغورس.

2-Diogenes Laertius: Lives of Eminent Philosophers, Trans.by R.D. Hicks
Vol. II P. 327 - Loeb Classical Library 1925.

الفصل الثاني

«نساء.. فلاسفة من الفيثاغورية»

المبكرة»

- ثيانو.. Theano

- أريجنوت.. Arignote

- مييا.. Myia

(لأن تكوني فوق ظهر حصان جالس، خيرٌ لكِ من

أن تكوني امرأة لا تفكر...!)

ثيانو .. Theano

تمهيد :

سوف نعرض في هذا الفصل لثلاثة من النساء الفلاسفة من
الفيثاغورية المبكرة أو الأولى أو الأصلية التي ظهرت في القرن السادس
قبل الميلاد وهي :-

١- ثيانو .. Theano

٢- أريجنوت .. Arignote

٣- مييا .. Myia

حاولت الأولى أن تفسر عبارة فيثاغورس «العالم عدد ونغم» التي
أساء

العالم اليوناني فهمها، حتى ذهبوا إلى القول بأنها تعنى خلق
الأشياء المادية من الأعداد! وهو قول ظاهر البطلان في رأيها؛ لأن
فيثاغورس كان يعنى أن الأشياء خلقت على غرار الأعداد، ومن ثم
اهتمت بتصوير «المحاكاة» الذي سيهتم به أفلاطون أيضاً فيما بعد.

أما الثانية «أريجنوت» فقد حاولت دراسة طبيعة العدد، أو الماهية
الأولية للعدد التي هي العلة الأولى لما يوجد في الأرض والسماء وما
بينهما. لكن العدد هنا لا يعنى سوى الهرمونية أو الانسجام بين
الأشياء، أو قل العلاقات أو النسب الرياضية بين الأشياء، فهي التي
تمكننا من التمييز بين الأشياء والتفرقة بينها، ومن ثم كان «العدد» أو
«الإحصاء»!

أما الثالثة «ميبا» فقد حاولت تطبيق الهرمونيا نفسها في عالم الأسرة ولاسيما في تربية الطفل، وهي الفكرة التي لخصتها في تصور «الاعتدال» أو «الوسط»، فرائت أننا في تربيتنا للطفل ينبغي أن نراعي الوسط في كل شيء في مأكله، وملبسه، وفي درجات الحرارة... إلخ، وهذا واضح من رسالتها إلى «فيتس» التي تسودها نغمة قوية من الاعتدال العملي، وكأنها تستبقي فكرة أرسطو الشهيرة في ميدان الأخلاق، والتي سميت بالوسط الذهبي أو القاعدة الذهبية التي تقول: خير الأمور الوسط .. Nothing too Much فلا إفراط ولا تفريط، أو أن الفضيلة هي وسط بين رذيلتين». وكانت «ميبا» تشرح فكرتها في بساطة، وتطبقها على مثال عملي حتى هو كيفية العناية بالوليد الجديد.

أولاً: ثيانو Theano (حوالى ٥٠٠ ق.م)

أول فيلسوفة فيثاغورية نعرض لها هي «ثيانو» التى التحقت بمدرسة فيثاغورس طالبة تدرس الفلسفة مع زميلاتها وزملائها، أصبحت زوجة للمعلم، كما أصبحت هى نفسها معلمة فى المدرسة ومديرة لها بعد وفاة زوجها المفاجئ إثر حريق شب فى بيت ابنتها Myia.

كانت ثيانو ابنة «برونتنيوس Brontinus» وهو أرسطقراطى أورفى من مدينة «كروتون» وهبت نفسها لدراسة الفلسفة الفيثاغورية وشرحها والتعليق عليها. ويبدو أنها كتبت شيئاً عن «التقوى» لم يبق منه سوى شذرات قليلة. ولقد عالجت فى هذا الكتاب التطورات الميتافيزيقية من «المحاكاة» و«المشاركة»، وهى الأفكار التى أصبحت باللغة الأهمية بعد ذلك عند أفلاطون – ولقد ترجمت فيكى هاربر Vicki Harper النص المتبقى على النحو التالى:

«بلغنى أن كثيراً من اليونانيين يعتقدون أن فيثاغورس ذهب إلى أن كل شيء (فى العالم) نشأ من العدد. غير أن مثل هذا القول يثير مشكلة هى على النحو التالى: كيف يمكن للأعداد التى لا توجد (على نحو حسى) أن ينشأ عنها شيء ما...؟ غير أن فيثاغورس لم يقل أبداً إن الأشياء (الحسية) نشأت عن الأعداد، أو إنها مصنوعة من العدد، وإنما ذهب إلى أن الأشياء صُنعت وفقاً للعدد، على اعتبار أن النظام بمعناه الأولى إنما يوجد فى العدد، وأنه عن طريق المشاركة فى الأعداد فإن الأشياء التى ظهرت أولاً ثم ظهرت ثانياً وما تلاها – قد تعينت بأنها

يمكن أن تُعد...^(١).

ومن الواضح أن «ثيانو» في هذا النص تحاول أن تشرح فكرة فيثاغورس التي تقول: «إن العالم عدد»، فهي لا تعني أن الأشياء خرجت من الأعداد، على نحو ما خرج العالم من الماء عند طاليس - فذلك يشير صعوبة بل مشكلة حادة هي صلة الأعداد بالأشياء الحسية، فهل تقوم هذه الصلة على أساس المحاكاة imitation، أم أن الأشياء متحدة مع الأعداد، أم أنها مباينة لها؟

ولإذا كان أغلب المفسرين قد رجحوا أن تكون الصلة بين الأشياء الحسية والأعداد هي صلة المحاكاة فهي أسبق من صلة الاتحاد أو المباينة، فإنهم قد استندوا في ذلك إلى ما تقول ثيانو Theano زوجة فيثاغورس التي ينسب لها رسالة ذكرت فيها أن الإغريق قد رَووا عن فيثاغورس أنه قال إن الأشياء مصنوعة من الأعداد، في حين أن ما قاله هو أن الأشياء مصنوعة وفقاً للأعداد^(٢) أو على غرار الأعداد فحسب.

وتواصل «ثيانو» شرح الفكرة نفسها بقولها: «عندما تسأل عن طبيعة الشيء ففى استطاعتنا أن نجيب إما بتخطيط رسم يشبه الشيء، أو بتعريف هذا الشيء». ولقد أراد فيثاغورس، بعبارة السابقة، أن يعبر - في رأى ثيانو - عن التشابه بين الأشياء والأعداد. وهذا هو التصور الميتافيزيقي للمحاكاة أو «التشابه»، فالأشياء «تشبه» أو «تحاكي»

1- Quoted by: Mary Ellen Waihe: A History of Women Philosophers, Vol.1

١ - د. أميرة حلمي مطر، الفلاسفة عند اليونان، دار الثقافة بالقاهرة عام ١٩٨٦م. ص ٧٢.

الأعداد. والشئ يشارك فيهما يوجد في العالم من نظام وتناغم أو «هارمونيا»، فإنه سواء أكان مادياً أم غير مادي، يمكن أن يتعاقب في ترتيب ونظام مع غيره من الأشياء الأخرى، ويمكن أن نعهده، وإذا كان من الممكن عد الأشياء أو إحصائها طبقاً للعدد «فإن المعنى الأول لذلك هو أنها منظمة، وأنها تشارك في النظام العام الموجود في الكون».

ويبدو أن أرسطو لم يكن يعلم شيئاً عن النصوص التي اكتشفت عن «ثيانو» زوجة فيثاغورس؛ لأنه يقول عن الفيثاغوريين إنهم:

«ركبوا الأجسام الطبيعية من الأعداد، فالأشياء الثقيلة والخفيفة قد خرجت من أشياء لا هي خفيفة ولا ثقيلة»^(١).

ولو أننا قرأنا بدقة شروح «ثيانو» وتفسيراتها للأفكار الأساسية في الفلسفة الفيثاغورية، لتبين لنا بوضوح أن ما تقصده هذه المدرسة لم يكن القول بأن الأشياء المادية أو الفيزيائية قد نشأت أو خرجت إلى الوجود من الأعداد ذاتها، لأن الأعداد - في نهاية الأمر - ليست مادية، بل إن العدد هو بالأحرى الذي يمكننا من التمييز بين شئ وآخر، وعن طريق إحصاء الأشياء أولاً، وثانياً، وثالثاً... إلخ، فإننا نستطيع أن نزعم أننا قادرون على تحديد الجوانب الثابتة في الشئ، فهو يبدأ هنا وينتهي هناك، وبين البداية والنهاية يوجد موضوع واحد. وهكذا نجد أننا عندما نحصى الأشياء فإننا نصفها ونحدد معالمها كذلك. وفي استطاعتنا أن نقول عن شئ ما إنه موضوع؛ لأن من الممكن عده^(٢).

1- Mary E. Waihto : op. cit. P.13.

2- IBID.

غير أن «ثيانو» لم تقتصر على شرح وتفسير الفلسفة الفيثاغورية وموقفها من الرياضيات والعالم، بل هناك أيضاً عبارات تنسب إليها تتعلق بنظريتين معروفتين عن الفيثاغورية:

* الأولى : خلود الروح.

* الثانية : تناسخ الأرواح.

تذهب «ثيانو» إلى أن الفيثاغوريين يؤمنون بوجود «عدالة إلهية» في الحياة الأخرى، كما يؤمنون «بتناسخ الروح» بعد الموت في جسد جديد قد لا يكون بالضرورة جسداً بشرياً.

وهذه الأقوال تعطينا صورة مبسطة لعملية التناسخ التي يستعيد الكون بواسطتها «إلهرمونيا»، أو التناغم الذي فقده. عندما يقوم الفرد بإفساد هذا التناغم بعصيانته للقانون الخلقى طوال حياته.

وهكذا تقوم «ثيانو» بالربط بين الأخلاق على نحو ما تظهر في عالم الإنسان، والكسمولوجيا وما فيها من نظام -- والأساس في هذا الربط هو التأكيد على خلود الروح. وتقول ثيانو:--

«مالم تكن الروح خالدة فسوف تكون الحياة مجرد وليمة لمركبي الشر، أولئك الذين يموتون بعد أن يكونوا قد عاشوا حياة جائرة غير شريفة...»⁽¹⁾.

وترى ثيانو أن كل شيء في الكون منُنظم ومرتب، فلكل شيء

1 - Quoted by: Mary E. Waithc, op. cit, P,14.

مكانه المحدد، ودوره المرسوم، ووظيفته التي يقوم بها طبقاً للقانون ما، في كون «متناغم» تسوده «الهرمونية» وتحكمه قوانين الطبيعة، والمنطق، وقوانين الأخلاق والدين، أما الشر أو الأفعال اللاأخلاقية فهي تعارض هذه القوانين، وهي تسبب اضطراباً وشقاقاً في العالم.

وعند ثيانو «إننا لو قلنا إن الروح ليست خالدة، ولو أنها كانت تقضى بقاء الجسد، لكان معنى ذلك أن أولئك الذين يتسببون في الاضطرابات، ويفسدون النظام بسوء سلوكهم أثناء حياتهم، لا يعاقبون على ما ارتكبوه، بل يجنون ثمار رحلة مجانية في حياتهم، لكنهم أيضاً يمزقون نظام الكون. ولو أننا أردنا استعادة «الهرمونية» أو التناغم بين الأشياء، والتوازن بين ظواهر الكون، فلا بد من اليربنة على خلود الروح، فليست المسألة أخلاقية فحسب، بل كسمولية أيضاً. إننا نستطيع أن نستعيد النظام و«الهرمونية» لو تم أنذاك توقيع العقاب على العاصي للقانون الخلقى، أو الأثم في حق غيره، أو الشخص اللاأخلاقى عموماً. والعقاب هنا يعنى أن يولد من جديد لكن لا تنقص روحه أو تتجسد هذه المرة في جسد بشرى، بل تتناسخ في موجود أدنى من الموجودات البشرية كالحيوان مثلاً، وهكذا يكون عليه أن يعيش في الحياة الأخرى عيشة دنيا كما يقضى قانون الأخلاق^(١).

وفضلاً عن ذلك فهناك عبارات أخرى بقيت لنا من أقوال ثيانو تكشف عن موقف الفيلسوف الغوربيين من

1 - M. E. Waite : Op. Cit. P.13.

المرأة يمكن أن نوجزهما في النقاط الآتية^(١) :

١ - إن النشاط الجنسي للمرأة ينبغي أن يقتصر على إمتاع الزوج، ومن ثم فلا ينبغي أن يكون لها عشاق آخرون.

٢ - ينبغي ألا تتحد العفة والفضيلة - أثناء الزواج - مع التقشف أو الإمساك عن ممارسة الجنس، فهذا تأويل خاطئ للعفة.

٣ - ذات يوم سألت امرأة فيثاغورية المعلمة «ثيانو» : كم يوماً لابد أن يعقب المعاشرة الجنسية للمرأة حتى تعود «طاهرة» مرة أخرى؟ أجابت ثيانو: إذا ما كانت المعاشرة الجنسية مع زوجها فهي تظل «طاهرة» على الدوام، لكن إذا مارست الجنس مع شخص آخر فإنها لا تعود طاهرة أبداً.

٤ - وذات يوم سألتها امرأة أخرى: ما هي الواجبات المفروضة على المرأة المتزوجة؟

أجابت ثيانو: «إمتاع زوجها، وإسعاده».

٥ - تذهب «ثيانو» إلى أن الحب الرومانسي ليس شيئاً آخر سوى «الميل الطبيعي لنفس خالية جوفاء».

والواقع أن عبارات «ثيانو» الأخلاقية، وأقوالها عن فضائل الزوجة وعلاقتها بزوجها - ربما فهمت على نحو أفضل على ضوء أقوال: ونساء ... فلاسفة من الفيثاغورية المتأخرة، أمثال: فينتس Phintys.

1- Ibid. P.14.

وثيانو الثانية، وبركتيونى Perictione، وإيزارا اللوكانية... إلخ، فمن كتاباتهن يتبين لنا أن النظريات الفيثاغورية قد طبقت على الحياة العائلية والشخصية. فإذا كانت الفضيلة المناسبة للمرأة هي العفة، فإن عليها تقع مسئولية دعم القانون، وتأكيد العدالة، وتحقيق الهرمونيا (أو التناغم) داخل المنزل وبين أعضاء الأسرة. وطبقاً لما تقوله إيزارا اللوكانية، فإن المنزل هو العالم الصغير ... Microcosm بالنسبة للدولة، ومن ثم فإن المرأة تتحمل مسئولية هائلة لخلق الظروف المواتية التي تحقق الهرمونيا، والنظام والتألف والقانون، والعدالة في الدولة. ولا شك أن المرأة التي لا تعي جيداً هذه الحقيقة، فإنها تشارك في الفوضى والاضطرابات، والشقاق وإحداث العماء Chaos في الكون. يكفي أن نستخدم هذا القسم بعبارة توجيهها «ثيانو» إلى المرأة، وهي دعوة لكل أنثى أينما كانت:-

«لأن تكوني فوق ظهر جوادٍ جامع، خيرٌ لكِ من أن تكوني امرأةً لا تفكر!!».

ثانياً : أريجنوت ... Arignote

فيلسوفة فيثاغورية (حوالى ٥٠٠ ق.م) يروى «ميناج - Menag- es» فى كتابه «تاريخ النساء الفلاسفة» أنها ابنة فيثاغورس من ثيانو. تعلمت فى مدرستها فى كروتون Croton بجنوب إيطاليا. وهو يروى أنها ألغت العديد من الكتب من بينها: «أقوال مأثورة عن الإلهة سيرس Ceres»^(١)، وكذلك «أسرار الإله ياخسوس»^(٢)، وإيضاحاً عن «ديونسيوس». وطبقاً للاعتقاد الفيثاغورى الذى يرى أن طبيعة الكون فى جوهره رياضية، وأنه منظم ومترتب ومتناغم - فقد راحت «أريجنوت» تبحث جوهر هذا العالم تقول:

«الماهية الأزلية للعدد هى العلة الأساسية للسماء والأرض وما بينهما، كما أنها هى الجذور الأولى للوجود المتصل للألوهة والأرواح، ولجميع الرجال المقدسين أيضاً»^(٣).

وشرح أريجنوت لماهية العدد يتسق مع الشروح التى سبق أن ذكرتها أمها «ثيانو»، من حيث إن كل ما هو موجود، وكل ما هو واقعى يمكن أن نفرق بينه وبين غيره من الأشياء عن طريق العدد؛ ذلك لأن الماهية الأزلية للعدد ترتبط كذلك - على نحو مباشر - بوجود الأشياء المختلفة ولكنها متناغمة. وفى استطلاعنا أن نعبر عن هذا

١ - إلهة القمح عند الرومان، وهى نفسها الإلهة ديمتر عند اليونان.

٢ - إله الخمر عند اليونان، وهو نفسه ديونسيوس.

3 - Quoted by Mary E. Waite op. cit. P15.

التناغم بالعلاقات الرياضية. وبهاتين الطريقتين يتبين لنا أن الأعداد هي
 علة كل شيء؛ فبدونها لا نستطيع «العد» ولا «الإحصاء»، ولا نتمكن من
 العدد ولا من الوصف، أو التخطيط، أو تحديد ملامح الشيء، أو التمييز
 بين الأشياء، فهي تعبر على نحو منتظم عن العلاقات بين الأشياء^(١).

4 - Ibid.

ثالثاً: مييا ... Myia

فيلسوفة فيثاغورية (حوالى ٥٠٠ ق.م) يذكر «مييا» فى كتابه تاريخ النساء الفلاسفة أنها كانت إحدى بنات فيثاغورث وثيرانو .. تزوجت أحد الأبطال الرياضيين «ميلو Milo» الذى يشار إليه أحياناً باسم «ميلون Mylon»، وهو بطل كرتون الرياضى.

كتبت «مييا» كغيرها من النساء الفلاسفة فى الفيثاغورية عن الهرمونيا Harmonia، أو التناغم والتألف فى حياة المرأة. ولقد كتبت رسالة طويلة إلى فيليس Phyllis تناقش فيها أهمية التناغم، وكيف أنه ينطبق على رعاية الطفل وتربيته، وأهمية تلبية حاجات المولود الجديد طبقاً لهذا المبدأ. ويبدو أن النقطة الهامة التى أشارت إليها هى أن المولود الجديد يرغب - بطبيعته - فيما يتلاءم مع حاجاته، وما يحتاج إليه هو الاعتدال أو الوسط: لا الكثير ولا القليل من الطعام، ولا الخفيف ولا الثقيل من الثياب، ولا من الحرارة أو البرودة أو الهواء... إلخ.

والواقع أن ما تجده ممثلاً حقاً فى رسالتها هو تصورهما للمولود المعتدل الذى لا يرغب فى شئ؛ فيه زيادة أو نقصان، وكان المولود الجديد يطلب الاعتدال فى كل شئ، ويرغب فى الحد الأوسط من كل شئ، ولهذا السبب فإن الأم - حديثة العهد بالأمومة - عليها أن تعهد برضيعها إلى مرضعة أو مربية معتدلة أيضاً فى سلوكها، فعلى هذه المربية ألا تكون مفسدة لا فى النوم، ولا فى الأكل، ولا فى الشراب... إلخ، كما أنها لابد أن تقلل من الممارسة الجنسية مع زوجها (ربما لأن الحمل سوف يمنع الرضاعة وسوف يقلل من إدرار اللبن)، وباختصار:

إنَّ عليها أن تقوم بكل شيء على نحو جيد، وفي وقته المناسب، كما أنها لابد أن تعمل ما فيه صلاح الطفل، ولا بد أن تخفف من حاجاتها حتى تُسهم تغذيتها للمولود الجديد في تنشئته وتربيته تربية جيدة.

نصوص من رسالة مييا Myia إلى فيليس Phyllis.

« من مييا إلى فيليس ... »

تحياتي

اسمحي لي أن أقدم لك النصيحة الآتية بمناسبة أنك أصبحت أما؛

« عليك أن تختاري للمولود الجديد مرضعة أو مربية تتسم بالنظافة، وحسن النية، ولا تريد له سوى الخير. اختاري امرأة تكون متواضعة، بل أكثر النساء تواضعاً، فلا تُسرف في نوم أو شراب. وامرأة من هذا النوع سوف تكون أفضل من تأتمنين على تنشئة أطفالك بطريقة مناسبة لمراحل العمر، بشرط أن تكون، بالطبع، لديها اللبن الكافي لتغذية الطفل الرضيع، كما ينبغي أن تكون امرأة غير مغلوطة على أمرها مع زوجها بحيث تشاركه الفراش كلما أراد؛ إذ لا شك أن المربية تلعب دوراً هاماً في هذه المرحلة الأولى من حياة الطفل مما يؤثر في حياة الطفل بأسرها، فالمفروض أن تقوم بتغذيته، وفي ذهنها أن ينشأ على أفضل صورة ممكنة، فلا تقوم بتغذيته وفقاً لمقتضى الحال، بل طبقاً للسوية والتدبير وإعمال الفكر، وبذلك تقود الطفل إلى الصحة والعافية، ولا ينبغي عليها أن تستسلم عندما يداعب النوم جفونها، وإنما عندما يرغب المولود في الراحة. ولا ينبغي أن تكون حادة الطبع، سريعة الغضب، ثرثرة كثيرة الكلام، ولا ينبغي عليها أن

تكون شرهة فى تناولها للطعام فتأكل أى شىء وكل شىء، وإنما عليها أن تكون منضمة فى أوقات تناول معتدلة فى كمية الطعام، وحيث أن تكون يونانية لا إجنبية لو أمكن ذلك. ومن الأفضل أن تجعل الرضيع يخلد إلى النوم، بعدما تناول الرضاعة، وشبع من لبنها؛ لأن الراحة، عندئذ ستكون متعة له. وسيكون من السهل هضم الغذاء، وإذا كانت هناك أنواع أخرى من الغذاء، فعليها أن تقدم له الطعام البسيط بقدر الإمكان، أو أن تخلطه بلبن المساء. وعليها ألا تقوم باستمرار بجعل الطفل يستحم، فالاعتدال فى الاستحمام هو الأفضل. وإلى جانب ذلك كله فإن الهواء لابد أن يكون معتدلاً، لا هو حار ولا هو بارد، كما أن المنزل ينبغي ألا يكون مفتوحاً على مصراعيه، ولا مغلق تماماً، كما أن الماء ينبغي ألا يكون ساخناً ولا بارداً، وملابس النوم ينبغي ألا تكون خشنة، بل أن يتقبلها الجلد بقبول حسن. وفى جميع هذه الأمور تميل الطبيعة إلى ما هو مناسب ومعتدل، لا إلى ما فيه إسراف أو مبالغة.

تلك هى الأشياء التى يبدو لى أنه من النافع، ومن المفيد أن أكتب لك اليوم عنها، وأن تقومى أنت بالبحث عن مربية أو مرضعة حسب هذه المواصفات. ويعون من الله فإننا سوف نقدم لك مذكرات مناسبة، وإرشادات سهلة تتعلق بتنشئة الطفل فى مراحل أخرى مقبلة من عمره...^(١).

1 - Mary E. Waihe : Op. Cit, P. 16.

وربما اندهش القارئ من قدرة «مييا Myia» على تطبيق فكرة الاعتدال على هذا النحس في مجال التربية، فهي تختتم رسالتها بهذه العبارة:

«تلك هي الأمور التي يبدو من المفيد أن أكتب لك عنها في الوقت الحاضر، ويكفي ما قلت، فهناك اعتدال حتى في تقديم النصيحة...!» لكنها وعدت بالكتابة إليها مرة أخرى، عندما تجد أنه من المناسب أن تذكر فيليس Phyllis بتفصيلات أخرى عن الهرموديا والانسجام في تربية الطفل؛

وهذه العبارة الأخيرة تلخص ما كانت النساء الفيثاغوريات تقعن به، بالفعل، من خلال الرسائل والنصوص. وهناك فكرة معينة توجه رسائل «مييا» التوجيه الصحيح – وتلك هي الحال نفسها في رسائل ثيانو الثانية، وكذلك شذرات بركتيوني الأولى، وفينتسى Phintys – هي أن من واجبه كنساء فلاسفة، أن يُعملن بقية النساء الأخريات ما يحتجن إليه، وأن يرشدنهن في أمور التربية، وأن يعرفنهن كيف يمكن «أن يعيشن حياتهن في هرموديا وتناغم». أو كما ستقول «إيزارا» فيما بعد: «كيف يخلقن العدالة والانسجام والتناغم في أرواحهن، وفي بيوتهن».

وكذلك فإن مهمة الفلاسفة من الرجال أن يعلموا الرجال الآخرين ما يحتاجون إلى معرفته؛ لكي يعيشوا حياة متناغمة ويخلقوا العدالة، والانسجام، والتناغم في أرواحهم وفي دولتهم. وتلك هي المهمة التي تفسر في جانب منها – كما تصف في جانب آخر – مبررات المنظور «الواقعي» للفلسفة الخلقية عند نساء الفلاسفة الفيثاغوريات، والمنظور

«المثالي» الذي أخذه الرجال. فقد اتخذ كل فريق متطوراً مختلفاً؛ لأن طبيعة النساء تختلف عن طبيعة الرجال. وهو ما تعترف به الفيتاغورية دون أي تقليل من أهمية المرأة، أو إلغاء لدورها، أو حط من قيمتها.

خاتمة :

لابد أن ينتبه القارئ جيداً في ختام هذا الفصل إلى عدة أمور هامة، ربما أجابت عما يعتمل في داخله من أسئلة:

١ - إننا الآن في القرن السادس قبل ميلاد المسيح حيث لا نجد كتباً ولا مؤلفات للفلاسفة، بل نجد فقط شذرات هي كل ما تبقى لنا من فلسفاتهم.

٢ - إذا تساءل القارئ: لكن هل تُعد هذه العبارات البسيطة فلسفة؟ كان جوابنا ذا شطرين:

أ - إن فيثاغورس نفسه عبّر عن فلسفته في عبارات بسيطة مثل: «العالم عدد ونغم»... إلخ.

ب - إن المدرسة الأيونية (طاليس ومدرسته) لم يتبقّ لهم سوى عبارات غاية في البساطة مثل: «الماء هو أصل الأشياء»، أو «الهواء هو المبدأ الأول لكل شيء»... إلخ.

٣ - عندما تقوم «ثيانو» بتوضيح وشرح وتفسير عبارة زوجها «الأشياء نشأت من العدد»، وتزيل ما في هذه العبارة من لبس، لتتفنى أنها تعني «خلق» الأشياء المادية من الأعداد، التي هي موجودات عقلية غير حسية، وتذهب إلى أن ما يريده «فيثاغورس» هو أن الأشياء صنعت على غرار الأشياء، أو وفقاً لها، أو أنها تحاكيها... إلخ فليس ذلك مجرد عبارات عامة وعابرة، وإنما هي فلسفة بمعنى الكلمة.

٤ - عندما تمد «ثيانو» فكرة «الهارمونية» أو الانسجام من الكون إلى عالم الإنسان، وتذهب إلى أن الإنسان المشوهر إنما يهدم نظام العالم ويدخل فيه الفوضى، فهي تعبير بذلك عن ميتافيزيقا شاملة تجمع الطبيعة والإنسان في فكرة أساسية واحدة.

٥ - حاولت «ثيانو» أيضاً أن تقيم «خلود الروح» على أساس الفكرة نفسها، فمن الضروري أن تكون النفس خالدة أو الروح خالدة لا تغنى بقاء الجسد؛ حتى يعاقب الأثم ونستعيد بذلك النظام أو «الهارمونية» إلى العالم، وهي التي أفسدها بعصيانها للقانون الخلقى.

٦ - إذا كانت النفس خالدة، وإذا كان الهدف هو معاقبة الأثم العاصى، فلا بد أن نسلم بتناسخ الأرواح، أى انتقالها بعد الموت من جسد إلى جسد آخر، فالمجرم يمكن أن تتعذب روحه بأن تنتقل بعد موته إلى بدن كلب مثلاً؟

إذا لم تكن هذه فلسفة كاملة تجمع بين الطبيعة، والإنسان والدين، وإذا لم تكن صاحبها «فيلسوفة»، فبماذا نسميها إذن؟!



الفصل الثالث

«نساء.. فلاسفة من الفيثاغورية المتأخرة»

- إيزارا اللوكانية .. Aesara of Lucania -

- فينتس الإسبرطية .. Phintys of Sparta -

- بركتيوني الأولى .. Perictione -

(إذا قمنا بتحليل النفس، فسوف نفهم القانون،

والعدالة على المستوى الفردي، والأسري،

والاجتماعي)

إيزارا .. Aesara

تمهيد:

سوف تعرض في هذا الفصل لثلاثة من النساء الفلاسفة من الفيشاغورية المتأخرة التي ظهرت بعد نحو قرنين من الفيشاغورية المبكرة. وهى:

١ - «إيزارا اللوكانية» التى مدت فكرة القانون الطبيعى ليشمل ثلاثة مجالات هى: مجال الفرد، ومجال الأسرة، ثم مجال المؤسسات الاجتماعية. كما أننا سوف نستعرض بعض النصوص من كتابها «عن الطبيعة البشرية» لنرى محاولتها لتطبيق القانون الأخلاقى فى المجالات الثلاثة السابقة معتمدة على التقسيم الثلاثى للنفس البشرية.

٢ - كما أننا ستعرض أيضاً لفيشاغورية أخرى هى «فينتس الاسبرطية» التى ألقت كتاباً عن «الاعتدال عند النساء» لم يبق لنا منه سوى شذرتين - كما يحدث فى كثير من الحالات بالفلسفة للفلاسفة الرجال الذين فقدت كتبهم ولم يبق منها سوى شذرات قليلة - وهى تهتم فى الشذرات المتبقية من كتابها بتوجيه المرأة إلى الاعتدال فى كل شئ سواء فى الطعام، أو الشراب، أو اللياقة البدنية، أو حتى فى الطقس والشعائر الدينية.

٣ - والفيشاغورية الثالثة هى «بركتيونى الأولى» التى كتبت كتاباً بعنوان «هارمونيا النساء»، وهى تغير «بركتيونى الثانية»

التي كتبت كتاباً بعنوان «سوفياس Sophias»، أي عن الحكم، وربما كان الموضوع الرئيسي في هذا الكتاب هو واجبات المرأة في الأسرة ولاسيما تجاه والديها أو زوجها وأولادهما ... إلخ.

وقد يندهش القارئ من إقرار النساء الفيثاغوريات الفلاسفة لوضع المرأة المتدني الذي كان قائماً في المجتمع اليوناني، من خضوعها للرجل، وتغاضيها عن «هفواته» حتى أصبحت المرأة الفيثاغورية «نموذجاً للزوجة المثالية، والمرأة الفاضلة عموماً، لكن ربما تزداد الدهشة لو قلنا إن أرسطو وافق أيضاً على الوضع المتدني للرجل عندما وضع نظرية «عن الرق»، ولم يمنع ذلك من أن يكون أعظم فيلسوف في العالم القديم.

إن الهدف من استعراض هذه النماذج هو بيان قدرة المرأة على التفلسف، بغض النظر عن الموضوع الذي يجعله موضوعاً لتفكيرها. وفي اعتقادي أن القارئ سوف يلمح ما لدى المرأة - حتى في هذه الأوضاع المتريدة - من قدرة عقلية. ويكفي أن نقول إن «بركتيوني الثانية» كانت تدعو في كتابها عن «الحكمة» إلى التأمل النظري في الكون. كما أن ثيانو الثانية كانت تقرأ محاورات أفلاطون وتناقشها مع زميلاتهن، ولاسيماً محاضرة «بارميندس» البالغة الصعوبة.

أولاً: إيزارا Aesara

١ - حياتها ومؤلفاتها:

فيلسوفة فيثاغورية يونانية (حوالي ٤٠٠ - ٣٠٠ ق. م) ولدت في لوكانيا Lucania وهو إقليم قديم في الجزء الجنوبي من إيطاليا، خضع لسيطرة اليونان قبل أن يغزوه اللوكانيون في القرن الخامس قبل الميلاد. وتقول الحفريات الحديثة إن هذا الإقليم بلغ شأواً في الحضارة غير يسير.

لا نعرف شيئاً عن حياتها، وكل ما نعرفه أنها ألّفت كتاباً بعنوان «عن الطبيعة البشرية On Human Nature»، لم يبق لنا منه سوى شذرات قليلة، وإن كانت هذه الشذرات تزودنا بمفاتيح هامة لفهم فلسفات: فيثاغورس، وبيركليون، وثيانو الثانية.

تأخذ «إيزارا» بنظرية حدسية في القانون الطبيعي، تذهب فيها إلى أننا عندما تستبطن أنفسنا، أو عندما نتأمل، داخلياً، طبيعتنا البشرية، ولا سيما طبيعة «النفس» البشرية، ففي استطاعتنا أن نكتشف لا فقط، الأساس الفلسفي لكل القانون البشري، بل في استطاعتنا كذلك أن نتعرف على البنية الأخلاقية، وعلى القانون الوضعي، والطبي.

ونظرية القانون الطبيعي عند «إيزارا» تدور حول القوانين التي تحكم مجالات ثلاث هي: مجال القانون الأخلاقي، بالنسبة للفرد أو ما يسمى بالأخلاق الخاصة، ومجال القانون الأخلاقي في نطاق الأسرة،

ومجال القانون الأخلاقي الذي يحكم المؤسسات، فسوف نفهم طبيعة القانون، وطبيعة العدالة، على المستوى الفردي، والأسري، والاجتماعي.

وسوف نعرض فيما يلى النص الذى تبقى من كتابها .

٢ - نص من كتاب «عن الطبيعة البشرية»

يقلم الفيلسوفة الفيثاغورية

«إيزارا اللوكانية»

«يبدو لى أن الطبيعة البشرية تزودنا بمعايير عن القانون والعدالة فى آن واحد فى مجال المنزل والدولة . فمن يبحث داخل ذاته فإنه سوف يكتشف القانون بداخله ، وسيعرف أن العدالة بداخله أيضاً ، فهذا القانون هو الترتيب المنظم للنفس . ولما كانت النفس البشرية ثلاثية الجوانب ، فإنها ترتب طبقاً لوظائف ثلاث هى : وظيفة العقل أو الذهن Mind ، وهى التى تختص بالحكم والتفكير ، ووظيفة الروح العليا التى تختص بالقدرة والمقدرة ، وأخيراً وظيفة الرغبة ، وهى التى تختص بالحب والنعطف . وقد رتبت هذه الوظائف بحيث تكون الوظيفة الأفضل هى التى تأمر أو تكون حاكمة ، فى حين تكون الوظيفة الأدنى مأمورة أو محكومة . أما الوظيفة التى توضع فى مكان وسط فتكون حاكمة ومحكومة فى ذات الوقت .

وهكذا نجد أن الله خلق هذه الوظائف ورتبها طبقاً لمبدأ يكمل المقام البشرى ؛ لأنه أراد للإنسان وحده أن يكون هو الذى يتسلم القانون والعدالة دون غيره من الموجودات والحسوانات الأخرى . إن وحدة الترابط المركبة لا يمكن أن تظهر من شئ مفرد ، ولا من أشياء متعددة على نعط واحد . (إذ طالما أن الأشياء مختلفة ، فلا بد أن تكون أجزاء النفس مختلفة أيضاً) ، كما هى الحال فى البدن ، حيث نجد أن

أعضاء اللمس، والبصر، والسمع، والذوق والشم مختلفة؛ لأن هذه الأعضاء ليست لها علاقة واحدة بكل شيء آخر).

كلا، ولا يمكن لهذه الوحدة أن تظهر من أشياء غير متشابهة - كيفما اتفق - بل بالأحرى من أجزاء تشكلت طبقاً لملائمة كل منها لكل بأسره، وانظامها معه، وإكمالها له، وليست النفس وحدها هي التي تتركب من أجزاء متعددة غير متشابهة، بل إن ذلك يحدث متطابقاً مع الكل. وفضلاً عن ذلك فإن هذه الأجزاء لا تترتب عشوائياً، أو كيفما اتفق، بل طبقاً لوعي عقلي.

ذلك لأنه لو كان لهذه الأجزاء نصيب متساوٍ من القوة والشرف، رغم أنها هي نفسها غير متساوية - فجزء منها أدنى، وجزء أعلى، وجزء ثالث يقف في الوسط - أقول على الرغم من أن أجزاء النفس غير متساوية على هذا النحو، فإن الترابط بينها لا يمكن أن يكون متكافئاً أبداً، لكن حتى لو كان لكل منها نصيب غير متساوٍ بحيث يكون للأسوأ وليس للأفضل النصيب الأكبر - فسوف يؤدي إلى إحداث اضطراب في النفس، وحتى إذا ما كان للجزء الأفضل النصيب الأكبر، والجزء الأدنى النصيب الأقل، لكن إذا لم يحدث ذلك بنسب سليمة فلن يكون ثمة إجماع ولا صداقة ولا عدالة داخل النفس. وطالما أنه حين يرتب كل عضو بالنسب المناسبة، عندئذٍ نستطيع أنؤكد أن مثل هذا النوع من الترتيب سوف يحقق العدالة.

والواقع أن هناك إجماعاً معيناً واتفاقاً في المشاعر يصاحب هذا الترتيب، وقد يطلق على هذا النوع من الترتيب اسم «النظام الخبير» وهذا حق، بسبب أن الجزء الأفضل من النفس يكون حاكماً، والجزء

الأدنى يكون محكوماً، وسوف تثبت الصداقة، والحب، والعطف، من هذه الأجزاء؛ لأن الفسحص الدقييق يظهـر على أن العسقل يقنـع، والرغبة تحب، والروح الأعلى مليئة بالقدرة والقوة، وهى ما أن تحقـدـم بالهغض حتى تصبـح عدوة للرغبة».

يتسضح لنا من هذا النص أن بنية النفس ثلاثية عند «إيزارا»، والأجزاء الثلاثة التى تتألف منها هى: العقل، والحيوية أو الهمة، والرغبة، والعقل مهمته التفكير والحكم، ولابد أن تفهم كلمة التفكير هنا بمعنى تحليلى خالص، لا أثر فيه للعاطفة أو الانفعال، أما الحيوية أو الهمة ففيها القوة والقدرة والمقدرة، فى حين أن الرغبة ترتبط بالحب والعاطفة والرقه. وهذه الأجزاء الثلاثة تشكل «وحدة ترابطية مركبة»، ولقد أراد الله لهذه الأجزاء الثلاثة من النفس أن تعمل معاً طبقاً لمبدأ عقلى، وهو مبدأ التناسب الملائم، ويعتمد هذا التناسب فى جزء من أجزاء النفس فى ملائمتـه لجزء آخر — على نوع المهمة التى يبين أيدينا، أعنى أنه يعتمد على ما تسميه «إيزارا» الأعمال المختلفة المتنوعة التى يكون علينا القيام بها. وهذا المبدأ — بما هو كذلك — ليس مبدأ رياضياً ولا عقلياً أو إلهياً فحسب، وإنما هو أيضاً مبدأ وظيفى.

٣ - طبيعة القانون والعدالة ...

ما الذى يمكن أن نستنتجه عن طبيعة القانون وبنيته، وكذلك عن طبيعة العدالة، من تحليل إيزارا «لطبيعة النفس وبنيتها»؟^{١٢}

١ - فى استقطاعنا أن نصل إلى أن القانون والعدالة هما نتاجان لمبدأ عقلى رياضى إلهى وفيلسفى هو «مبدأ النسبة والتناسب».

٢ - القانون والعدالة هما معاً ثلاثيان فى بنيتهما، وهى بنية تناظر بنية النفس البشرية .

لقد نهيت «إيزارا» فى البداية إلى القول بأن المبدأ الذى يسم بسماته بنية النفس، وطبيعة القانون والعدالة هو مبدأ بالغ البساطة؛ فليس ثمة جزء من أجزاء النفس (ولا من أجزاء القانون والعدالة) يمكن أن يسود وحده.

وترى «إيزارا» أن مبدأ «النسبة والتناسب» يلغى أى مبدأ جزئى آخر. خذ مثلاً قانون «ضريبة المساكن» وما إلى ذلك من قوانين متعلقة بالضرائب، تجد أنه يقوم على أساس أن على جميع السكان أن يتحملوا بالتساوى نفقات الحكم. ومعنى ذلك أنه يقوم على أساس مبدأ يقول: إن على القانون أن يراعى أيضاً الحاجات الخاصة للأفراد، ويضعها فى اعتباره عند ما يوافق على القول بأن على الأفراد أن يتحملوا نفقات أو تكاليف الحكم. والمبدأ الكامن وراء ذلك كله هو «النسبة والتناسب» الذى يقضى بأن يقوم نظام الضريبة على مبدأ لا يؤدى - على المدى

البعيد- إلى شقاق أو نزاع بين المواطنين. تلك هي القضية الأولى التي تتنادى بها «إيزار»^(١).

أما القضية الثانية فهي تقول بأن القانون والعدالة هما ثلاثيان البنية، وأن هذه البنية تناظر بنية النفس البشرية. والقانون والعدالة تستغرقهما فكرة القانون الخير، والعدالة الحققة تنظر بعين الاعتبار إلى جميع الأفكار والحجج والمبادئ المناسبة، وفضلاً عن ذلك فالقانون الجيد أو الخير، وخصوصاً العدالة الحقيقية، صائبان في حكمهما؛ فهما يصدران القرارات حول أمور الواقع، وموضوعات الإلزام، ومسائل الواجب. وهذه السمات الخاصة بالاستغراق في التفكير والحكم الصائب بالنسبة للقانون والعدالة، تناظر عند «إيزار» القدرة العقلية.

إن قوة القانون وتأثير النظام القضائي، مثل قواعد ونظام الأسرة، والمبادئ الشخصية، والضمير - تناظر الجزء الخاص بالهمة والحمية من النفس عند «إيزار». إذ يمكن للقانون أن يكون محركاً قوياً، أو عائقاً قوياً أيضاً، فهو يمكن أن يكون محركاً قوياً عندما يعبر عن الهرمونيات أو التناغم والاستقرار، فيعمل على دعم القيم، والفضائل عند الفرد، وفي الأسرة، وفي الدولة. ومن ثم كان القانون والعدالة، كالجزء الخاص بالحمية والهمة من النفس البشرية - مؤثرين ومحركين، وقد يكونا عائقين، وقد يكونا مرشدين للسلوك. ولهذا كله فإننا نستطيع أن نقول إن القانون والعدالة يفسران ويدعمان قيم

1- Mary Ellen Waithe: A history of Women philosophers. Vol.P.22.

2- Ibid, P.23.

الشخص وفضائله، وكذلك القيم والفضائل في الأسرة والمجتمع^(٧).

وفضلاً عن ذلك فإن القانون الاجتماعي، والقانون الأسري، والقانون الأخلاقي تتسم جميعاً بسمة الحب، سواء في صورة الشفقة على الآخرين أو الرحمة بهم، والعطف عليهم، أو في صورة احترام الإنسان لنفسه. وهذا الحب يشبه - في نظر إيزارا - ما ينتجه الجزء الثالث من النفس وهو الرغبة. هذا العامل المؤثر في القانون والعدالة منصف، وهو يراعي مشاعر الآخرين، كما يراعي الحاجات والاهتمامات، فالعدالة رحيمة ومتسامحة، وهي تؤمن بأن الفرد مقدّم على الجماعة، بمعنى أنها تضع في اعتبارها الظروف والملايسات والأعداء المختلفة التي تجعل الفرد يخرج عن طاعة القانون أو يرفض الامتثال له. وقل مثل ذلك في حالة الأسرة التي تسودها الهرمونية أو الانسجام، فهي تتسم بسمة «الإجماع والاتفاق في المشاعر» وهي أسرة منصفة وتراعي مشاعر الأعضاء وحاجاته الخاصة، وهي أيضاً رحيمة ومتسامحة. أما على المستوى الشخصي فإن الفرد الذي لا يعاني من انفصام في الشخصية، فإنه يتسم كذلك بسمة «الإجماع والاتفاق في المشاعر» ومثل هذا الشخص يضع لنفسه معايير أخلاقية تتناسب وقدراته العقلية. ومثل هذه الشخصية تسامح نفسها، ولا تكتنفها الرساوس حول نقائصها الأخلاقية. ومرة أخرى نقول: إن القانون الاجتماعي، وقانون الأسرة، وقانون الأخلاق الشخصية تتسم جميعاً بسمة الحب، سواء في صورة الرحمة بالآخرين والشفقة عليهم

1- Ibid

أو احترام الذات. وهذا الحب يشبه ذلك الذى ينتجه الجزء الثالث من النفس، وأعني به: الرغبة^(١).

٤ - إيزارا ... وسيكولوجيا الأخلاق:

توصى الشذرة المتبقية من كتابها «عن الطبيعة البشرية» باستبطان النفس، وتمتدح التأمل الذاتى لطبيعة النفس البشرية. على اعتبار أن ذلك هو الطريق للكشف عن المجالات الثلاثة التى يطبق فيها القانون البشرى؛ وهى: مجال الأخلاق الفردية وقوانين الأخلاق الشخصية، ومجال القوانين التى تعبر عن الأساس الأخلاقى للأسرة، والقوانين التى تعبر عن الأساس الأخلاقى للمؤسسات الاجتماعية. وفى استطاعتنا أيضاً أن ننظر كيف حللت «إيزارا» بنية النفس، وكيف رأت أن ذلك يسهم فى فهم قوانين «سيكولوجية الأخلاق البشرية»، وقوانين الطب الفيزيقي. فمثلاً قد يكون من المناسب أن ننظر إلى العقل أو جانب الذهن فى النفس البشرية عند «إيزارا» على أنه يناظر - فى شيء من الغموض - فكرة الأنا Ego فى علم النفس الحديث. فالعقل عند «إيزارا» يفكر، ويقسم، ويكشف عن المبادئ، ويدعم الحجاج ويساندها، كما أنه يقوم بعمليات الاستقراء والاستنباط معاً، والجزء الخاص بالحمية والهمة فى النفس البشرية عند «إيزارا» يشبه الإرادة فى التحليل النفسى، فهو ينتج ما تسميه «بالشجاعة»، والباعث على الفعل، والرغبة نفسها، يمكن أن تكون مرادفة لغيرزة اللذة التى تتجسد فى الحب بأشكاله المختلفة، بما فى ذلك ما تسميه إيزارا «بالعطف» و«الصدقة» و«الرفقة»... إلخ، غير أننا ينبغي ألا نبالغ فى بيان

أوجه التشابه بينها وبين «فرويد»، وربما كان الأدنى إلى الصواب أن نقارن بين تقسيمها الثلاثي للنفس، وتقسيم أفلاطون لقوى النفس الثلاث: النفس الشهوانية ومقرها البطن تحت الحجاب الحاجز، وهي غارقة في صفات الحس من شره وجشع، وميل إلى الشهوة وممارسة الغريزة.. إلخ، ثم «النفس الغضبية» ومقرها الصدر، وتغلب عليها الحماية والانفعال، وتميل إلى الاندفاع نحو حماية المقدسات والقيم... إلخ، ولهذا كانت فضيلتها «الشجاعة»، أما الثالثة - وهي أعلى الأنفس جميعاً - فهي النفس العاقلة ومقرها الرأس، وهي مصدر الاتزان والتعقل والفهم والحكمة.

والغريب أن أفلاطون أيضاً يمد هذا التقسيم الثلاثي إلى المجتمع فيقسمه ثلاث طبقات: الطبقة المنتجة أو الطبقة العاملة أو «مجتمع الشهوة»، ثم طبقة الجند الذين يدافعون عن الدولة ويتميزون بالشجاعة والإقدام، وأخيراً طبقة الحكام الذين يتميزون بصفات الفلاسفة ويعرفون مثال العدالة ويطبقونه في المجتمع^(١). وإن كان الاختلاف بين نظرية «إيزارا» في التقسيم الثلاثي للنفس وانعكاسه على الحياة الاجتماعية، وبين نظرية أفلاطون - كبيراً في حقيقة الأمر.

غير أننا لا بد أن نقول في النهاية إن لنظرية القانون الطبيعي عند «إيزارا» مضامين نسائية. فلو أننا افترضنا - كما يقول الفيتاغوريون عادة - أن النساء يتحملن مسئولية خلق الهومونيا، والعدالة في البيت، في حين يتحمل الرجال مسئولية إحداث الهومونيا في المدينة أو

١ - د. إمام عبد الفتاح إمام «الفكر... ومواقف» من ٦٨٢ - ٦٨٣ مكتبة مدهلى بالقاهرة.

الدولة - لكان عمل البناء هو المرادف الأخلاقي لعمل الرجال؛ وذلك لأن العدالة في المجالين تحمل نفس الأساس الطبيعي الذي يضرب بجنوده في طبيعة النفس البشرية. إن المدن (أو الدول) التي تسودها العدالة والانسجام (الهرمونيّا) تحتاج إلى رب المنزل العادل الذي يسود الانسجام جوانب شخصيته أيضاً. ومن ثم فإن العدالة الاجتماعية تعتمد على النساء اللاتي يقمن بتربية الفرد العادل المنصف الذي يسود الانسجام شخصيته. وتذهب الفلسفة الفيثاغورية إلى أن المرأة ليست هامشية بالنسبة للعدالة الاجتماعية، بل إنها هي التي تجعلها ممكنة^(١).

1- Mary Ellen Waithe: A history of Women philosophers.. Vol. 1. P.26.

ثانياً : فينتس الاسبرطية ..
Phintys of Sparta

Phintys of Sparta

١ - حياتها ومؤلفاتها:

فيلسوفة فيثاغورية يونانية (حوالي ٤٠٠ ق.م) لا تعرف عن حياتها سوى أنها ابنة أحد قادة الأسطول اليوناني الذي مات في المعركة عام ٤٠٦ ق.م على نحو ما يروي ثيوكديدس، وبولتارك، وهذه المعلومات هي التي جعلتنا نقول إنها من أسبرطة. ويروي المؤرخون أنها ألقت كتاباً عنوانه «عن الاعتدال عند النساء» لم يبقَ لنا منه سوى شذرتين. وهاتان الشذرتان تجسدان تصورات المدرسة الفيثاغورية عن النساء والرجال. وعلى الرغم من أن هناك عناصر مشتركة بين هاتين الشذرتين، فإنه يوجد بينهما بعض الاختلافات الجوهرية.

٢ - الشذرة الأولى من كتاب «الاعتدال عند النساء» :

«لا بد أن تكون المرأة على الدوام منظمه وخيرة، وهى لن تصبح كذلك قط بدون امتياز أو فضيلة، والفضيلة المناسبة لكل شىء هى التى تجعل من يتلقاها فى وضع أعلى: الفضيلة المناسبة للعبيذين تجعلها عبيدين على الأصالة، والمناسبة للسمع تجعل ملكة السمع حادة، والمناسبة للحصان هى التى تجعله حصاناً أصيلاً، والمناسبة للرجل هى التى تجعله رجلاً تام الرجولة، وقل مثل ذلك فى الفضيلة المناسبة للمرأة هى التى تجعلها امرأة ممتازة، والفضيلة المناسبة للمرأة هى: الاعتدال؛ لأنها عن طريق هذه الفضيلة سوف يكون فى استطاعتها أن تحترم زوجها، وأن تحبه.

وربما ظن كثير من الناس أنه ليس من المناسب للمرأة أن تتفلسف، كما أنه ليس من المناسب لها أن تمتطى ظهور الخيل، أو أن تتحدث فى جمع من الناس، أو تخطب فى الجمهور علانية. لكنى اعتقد أن هناك أشياء خاصة بالرجل، وهناك أشياء خاصة بالمرأة، وأشياء تنتمى للمرأة أكثر من الرجل. أما ما هو مناسب للرجل أكثر، أو يخص الرجل على الأصح فهو الاشتراك فى المعارك، والانتخاوط فى العمل السياسى، والخطب العامة للجمهور. أما ما هو خاص بالمرأة أكثر فهو البقاء فى المنزل، والترحيب بزوجها ورعايته. لكنى اعتقد أن الشجاعة، والعدالة، والحكمة هى أمور مشتركة بينهما، كما أن فضائل البسند تناسب الرجل كما تناسب المرأة، وقل مثل ذلك فى فضائل النفس. وكما أنه من المفيد للبسند عند كل منهما أن يكون سليماً من

الناحية الصحية، فكذلك من المفيد لكليهما أن تكون النفس سليمة. وفضائل البدن هي: الصحة، والقوة، وحدة الإدراك، والجمال. وبعض هذه الفضائل من المناسب للرجل أن تكون لديه أكثر من المرأة مثل: تكوين بدنه، قوة روحه، في حين أن ما يناسب المرأة أكثر - من هذه الفضائل - هو: الاعتدال.

ولذلك يستطيع المرء أن يكتشف طبيعة المرأة التي تمرست على الاعتدال، ويعرف عدد الأشياء ونوعها التي أضفت هذا الخير على المرأة، وأنا أقول إن ذلك يأتي من خمسة أشياء هي على النحو التالي:-
أولاً: احترام فراش الزواج.

ثانياً: مراعاة اللياقة في جسدها.

ثالثاً: السير في ركاب أولئك الذين هم من أهل بيتها.

رابعاً: ألا تنغمس في الطقوس السرية، والاحتفاء بعيد الإلهة سيبيل (Cybele)^(١).

خامساً: أن تكون عابدة قانتة وريفة، وأن تقوم بتقديم القرابين الصحيحة للألهة.

تلك هي أسباب الاعتدال والمحافظة عليها، والمرأة التي تحققها لا

١ - إلهة الأرض، أو الإلهة الأم. وقد عرفت بهذا الاسم عند اليونان والرومان وفي آسيا الصغرى حتى القرن الخامس قبل الميلاد، ثم عرفت باسماء أخرى كثيرة منها: هناة، وعشتار، وإيزيس... إلخ. د. إمام عبد الفتاح إمام «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الأول ص ٢٧٦ مكتبة مدبولي بالقاهرة.

يمكن لزواجها أن يفسد، أو أن تخالط رجل غريب. والمرأة التي تبغى أو تتجاوز حدودها فإنها تقوم بالتجديف على آلهة جنسها، وتجلب لأسرتها ولبيتها حلفاء مزيفين، كما أنها تقوم أيضاً بالتجديف على آلهة الطبيعة الذين تقسم بهم، كما أنها تؤذى أسلافها وعشيرتها، ومشاركتها في الحياة العامة، وإنجاب أطفال شرعيين. كما أنها تؤذى وطنها... كما أنها سيكون من رأيها ارتكاب الخطيئة، والإقدام على الأعمال الشائنة من أجل اللذة وحدها، ولن تستحق أدنى رحمة. غير أن انتهاك القانون لا بد في النهاية من تدميره.

٣ - النساء والفضيلة ...

تذهب فينتس إلى أن هناك فضائل مشتركة بين الرجال والنساء، بينما هناك فضائل أخرى يتفرد بها هذا الجنس أو ذلك. فالشجاعة، والعدالة، والحكمة هي فضائل مشتركة بين الجنسين، رغم أنها ترى أن الشجاعة والحكمة تناسب الرجال أكثر من النساء. وليس واضحاً تماماً ما تعنيه فينتس بذلك. ربما كانت تعنى بعبارة «تناسب الرجال أكثر» أنها «تناسب ذلك النوع من النشاط الذى ينخرط فيه الرجال. وتبين لنا «فينتس» لماذا تحتاج النساء إلى حقائق وخسعين الاجتماعى عندما يمارسن الفلسفة الأخلاقية كما يمارسها الرجال، ويضعن النظريات عن الدولة المثالية أو الدولة الكاملة. وتسلم فينتس بأن النظام الاجتماعى قائم على ما هو عليه. وتطرح سؤالاً هو: أى النظريات الأخلاقية تتبع؟ لتكون من مسئوليتنا الأخلاقية أن نعيش حياتنا تبعاً للنظرية الأخلاقية التى تراعى ظروفنا الخاصة أفضل من غيرها.؟ وتقول «فينتس»: «إننا إذا أخذنا بنوع الحياة التى يسير عليها الرجال فى الأسواق، وفى الأماكن الحكومية، فإن الشجاعة والحكمة ستكونان هما الفضائل الأخلاقية الأساسية فى هذه الحالة؛ لأن هذه الفضائل إذا لم تمارس فسوف يعانى المجتمع من موجات العنف ومن الصلف، والخداع سواء من جانب المبدن الأخرى أو من جانب أعضائه أنفسهم. ومن ناحية أخرى إذا ما أخذنا بنوع الحياة الضيقة التى تعيشها النساء فى المنازل، حيث تكون عليهن مسئولية شخصية فى تنشئة الذكور الذين سيدعمون الانسجام (الهرمونى) فى المدينة (الدولة)، ومع جيرانهم - كانت الفضائل

الأساسية هنا هي: الاعتدال وضبط النفس، إذ بدونها لن تكون النساء صبوراً مع الأطفال، ولن يبذلن الكثير من الجهد والمطاقة في رعاية الآخرين^(١) .

لكن هناك رأي آخر ترمزه «ماري ويت» إذ تقول إن فينتس عندما ذهبت إلى أن العدالة والحكمة تناسب الرجال أكثر «فربما كانت تقصد أن غرس فضائل العدالة والحكمة في نفوس النساء محدود؛ بسبب الدور الاجتماعي المسموح لهن القيام به في المجتمع. وتنعكس تلك الأدوار الاجتماعية فهماً كلياً عاماً (في تلك الثقافة) يذهب إلى أن نفوس النساء لها هذه الطبيعة، أما نفوس الرجال فلها تلك الطبيعة. فالمجتمع يبنى أطواره بتلك الطريقة التي لا تتيح للرجال الفرصة لمعرفة الكثير عن تطوير الفضائل في النساء، والعكس صحيح أيضاً^(٢) .

1 - Mary Ellen Whitte: op. it. P.28,

2 - Ibid, P.19,

٤ - النساء والعدالة في المنزل:

تصف «فينتس» كثيرًا من ألوان الأذى التي تحدثه المرأة غير المخلصة، إذ المفروض أنها تقسم يمينًا عند زواجها مع والديها وإقاربها، والقسم موجه إلى آلهة جنسها، وإلى آلهة الطبيعة؛ وذلك بغرض حماية الأسرة. ثم تأتي الخيانة - أو عدم الإخلاص عمومًا - لتعرض هذه الحماية للخطر، وبالتالي، تعرض الأسرة للهلاك أو الضياع، وفضلاً عن الأذى الذي تلحقه هذه المرأة بالأسرة عندما تعرض حمايتها الإلهية للخطر، فإنها ترتكب جريمة مدنية ضد الدولة. فالزواج ينقل وصاية المرأة من والديها إلى زوجها، ثم تأتي المرأة بخيانتها لتختنك هذه الوصاية، وتلك جريمة أسوأ من الجرائم التي تكون عقوبتها الإعدام. فلا يمكن للمرأة الخائنة أن تأمل في الرحمة، لأن الباعث الذي دفعها إلى الخيانة هو أسوأ الدوافع، ألا وهو: النذرة.

٥ - الشذرة الثانية من كتاب «الاعتدال عند النساء»...

تقول فينتس Phinty في كتابها سالف الذكر:

«لا بد للمرأة أن يتدبر هذه النقطة أيضاً، وهي أن المرأة لن تجد علاجاً مطهرًا لتلك الغلطة، بحيث تُعد عفيفة ومحبوبة من الآلهة بعد أن دنست المعابد والمذابح، ففي حالة هذه الخطيئة - ربما أكثر من غيرها - فإن الروح القدس لا يكون رحيماً قط، بل في غاية القسوة. إن أعلى مسجد للمرأة المتزوجة، وأنبل شرف، أن تأتي بشهود على فضيلتها

واحترامها لزوجها من خلال أطفالها كلما كانوا يحملون خاتم الشبه مع أبيهم. وذلك هو معنى الاعتدال بخصوص الزواج.

أما موضوع الاعتدال بخصوص اللياقة البدنية فرأى فيه هو على النحو التالي:

على المرأة المعتدلة أن ترتدى ملابس بيضاء بسيطة ونظيفة، فلا ينبغي عليها أن ترتدى الملابس الشفافة أو المزركشة أو المطرزة بالحريز، بل الثياب البسيطة المحتشمة، والنقطة الأساسية أن تكون محتشمة، وأن تتجنب مظاهر الترف والبهرجة. وعلى هذا النحو فإنها لن تثير الغيرة أو الحقد أو الحسد عند النساء الأخريات. وهى بالطبع لن تزين نفسها بالذهب والزمرد؛ لأن ذلك يعنى أن يبدو عليها مظاهر الثراء والعجرفة تجاه النساء العاديات.

أما المدينة المنظمة تنظيماً حسناً، فسوف تنظم نفسها من منظور الكل، بحيث يقوم التنظيم على التعاطف والإجماع. بل إن عليها أن تحرم وجود الحرفيين فى المدينة، الذين يقومون بصناعة الزينة والزخارف، فالمرأة المعتدلة ينبغي عليها أن تزين نفسها لا بزينة أجنبية مستوردة بل بالجمال الطبيعى للجسد، وبالنظافة والاستحمام بالماء. لابد أن تتحلى بالتواضع لا بهذه الزخارف. وهما هنا تجلب للرجل الذى تعيش معه وتشاركه حياته، الشرف والاحترام، وكذلك لنفسها أيضاً.

كما أن على المرأة أن تشارك فى الاحتفالات التى تبدأ من البيت لتقديم القرابين للإله المؤسس لمدينتها؛ وذلك لصالحها وصالح زوجها وأهل بيتها. فضلاً عن ذلك فعندهما يظهر نجم المساء - وليس فى

الظلام الحاد - فإن على المرأة أن تعد نفسها للذهاب إلى المسرح ، وكذلك يمكنها القيام بشراء السلع وأدوات منزلها، وعليها أن تقوم بذلك بطريقة محتشمة، ومن الأفضل أن تصحبها إحدى وصيفاتها.

« كما أن عليها أن تقوم بتقديم الصلوات للآلهة، وإن كان عليها الامتناع عن الطقوس السرية في المنزل والاحتفال بالآلهة «سبيل ... Cybele». إن القانون الشائع يمنع النساء من الاحتفال بهذه الشعائر؛ لأن مثل هذه الممارسات الدينية تؤدي إلى السكر والخيل، في حين أن ربة الدار لا بد أن تكون معتدلة، ومقتصدة في كل شيء...»^(١).

«وهكذا يكون في استطاعة المرأة أن تحقق مبدأ الانسجام (الهرمونيا ... Harmonia) بممارسة فضيلة الاقتصاد والاعتدال في كل شيء؛ ملايسها، ومظهرها وسلوكها العام، وممارساتها الدينية؛ فالشرف، والبهرجة، والتكبر، والعجرفة، والظهور بمظهر الشراء كلها أمور ينبغي تجنبها؛ لأنها تهدد الانسجام في المدينة وتخلق الغيرة والحسد في النساء الأخريات، والتباهي باختلاف الطبقات. ولا بد للمرأة المعتدلة أن تعي مدى تأثير المدينة ككل بثيابها ومظهرها غير المعتدل. وحتى الحرفيين الذين يقومون بصناعة الزركشة والزخارف النافهة على ملابس النساء، ينبغي منعهم من القيام بهذه الأمور في المدينة، بل ينبغي أن تمتنع مظاهر التباهي بالفروق بين الطبقات، بأن تستعرض المرأة مجموعة من الخدم في صحبتها، وهي تسيير في شوارع

1 - Mary E. Waithe : Op. Cit. P.30.

ثالثًا : بركتيونى .. Perictione

فيلسوفة يونانية فيثاغورية حوالى عام ٣٠٠ ق.م). لايد لنا من التفريق بين سيدتين تحملان نفس الاسم، ولهذا يُطلق عليهما المؤرخون عادة بركتيونى الأولى، وبركتيونى الثانية. الأولى كتبت كتاباً بعنوان «هارمونيا النساء .. Harmony of Women»، بينما ألفت الثانية كتاباً جعلت عنوانه «سوفياس .. Sophias» أى «عن الحكمة»، ولقد بقيت لنا شذرات من الكتابين. وهناك روايات تذهب إلى أن بركتيونى الأولى هى أم أفلاطون، وإن كانت الأدلة ليست قاطعة، مع الاعتراف بأن بركتيونى الأولى عاشت فى أثينا زمن أفلاطون.

لكن المتفق عليه أن الشذرات المتبقية من الكتابين تنسبان إلى سيدتين مختلفتين. لقد كانت بركتيونى الأولى تشجع النساء على التفلسف، فإذا مارست النساء الحكمة وضبط النفس، كان فى استطاعتهن استلهاً الفضائل الأخرى بما فى ذلك العدالة والشجاعة. ويبدو أن هذه الفيلسوفة كانت تأخذ بمنظور نفعى تجاه الفضيلة: فالمرأة يمكن أن تمارس فضائل معينة لتكون قادرة على تطوير فضائل أخرى، وفضائل أعلى، عندئذٍ سوف تجلب هذه الفضائل بدورها السعادة والانسجام لهذه المرأة ولاسرتها.

١ - ترجمة نص من كتاب «هارمونيا النساء»^(١).

«لا ينبغي للمرأة أن توجه إلى والديها كلاماً نابياً، ولا أن تسبب لهما أذى، بل أن تطيعهما في جميع الأمور الصغيرة والكبيرة، في كل خلجات النفس وحركات البدن، في الحياة الداخلية، والحياة الخارجية، في الحسب والسلم، في الصحة والمرض، في السراء والضراء، في المواقف العامة والخاصة، ينبغي أن تكون المرأة معهما ولا تهجرهما أبداً. ذلك هو طريق الحكمة، والاستقامة والشرف. لكن إذا ما احتقرت المرأة والديها، وركبها شر من أي نوع، فسوف تلعنها الآلهة، وترميها بارتكاب الخطيئة حية وميتة، وسيكرها الجنس البشري إلى الأبد، مع الأشرار الراقدين في باطن الأرض، وستهاجمها الشياطين المكلفة بهذه الأمور.

فمنظر الوالدين مقدس ومحبوب، وكذلك توقيرهما ورعايتهما. ولا يمكن أن تقارن طلعتيهما لا بالشمس، ولا بنجوم السماء، ولا بما يمكن أن يتخيل المرء أنه اعظم من ذلك. ولهذا كان من الضروري احترامهما أحياء أو أمواتاً. ولا يمكن أن تكون هناك خطيئة أفظع من إهانة المرء لوالديه...»^(٢).

هذا واحد من النصوص التي بقيت لنا من كتاب «بركتيون»
«هارمونيا النساء» تعرض فيه لمبدأ الأخلاقى هو واجبات المرأة تجاه

١ - قامت بترجمة هذا النص إلى الإنجليزية: فيكي لين هاربر Vicki Lynn Harper.

2- Mary E. Waithe : Op. Cit. P.38.

والديها. وتنبهها إلى أن هذا المبدأ يُخرق ويُنتهك لو أنها عصتها، أو لم تبتعد نحوهما الاحترام والتوقير الواجبين. أما إبداء شيء من البغض أو التذمر أو التلغظ بكلمات نابية، فتلك أمور لن تغفر أبداً. غير أن الطاعة العسمية ليست مطلوبة، فإذا ما ضلّ الوالدان فإنّه يمكن لهما أن تحثهما نحو الطريق الصحيح والفعل الحق. وفي جميع الحالات فعصيانهما، وعدم الوفاء نحوهما يقلب موازين الهرمونيا (الانسجام) رأساً على عقب، ويجعل الانسجام الأزلي بين الأجيال متعديماً، وذلك شيء لا يمكن أن تغفره الآلهة ولا الناس^(١).

والواقع أن هناك وشائج قريبي بين كتاب «فينتس» «الاعتدال عند المرأة» الذي سبق أن تحدثنا عنه، وبين كتاب بركتيوني «هارمونيا النساء» فهما معاً يركزان على الأوضاع الاجتماعية، والأمور الأخلاقية للنساء في المجتمع. وهما معاً يحتزمان بالوضع القائم في المجتمع، ويجعلانه المصدر الأساسي للإلزام الأخلاقي عند المرأة، فالإنسان يولد في أسرة لها دين. وفي مدينة لها دستور. وتلك هي العلاقات التي لا سيطرة للمرأة عليها، ومع ذلك فهي تصلح كمصدر للواجب تجاه الوالدين، والآلهة، ثم يتزوج الإنسان ويشكل أسرة، ويخلق علاقات جديدة يكون له عليها بعض السيطرة، وهذا تضاف إليه مسئولية أخلاقية جديدة. وهناك الإلتزامات الأخلاقية والاجتماعية التي تلحق بجميع هذه العلاقات، وهي واجبات على المرأة أن يراعيها إذا أراد لهذه العلاقات أن تكون متنسجمة، وإذا شاء أن يحدث الانسجام، وتعم الهرمونيا جميع جوانب المجتمع.

1- Ibid P.39.

٢ - الشذرة الثانية من «هارمونيا النساء» :

ولابد للمرأة أن يتخيل أن المرأة التي يسودها الانسجام، وتحقق عندها الهرمونيا، لابد أن تكون مليئة بالحكمة وضبط النفس، ولابد أن يزداد وعى النفس بالخير حتى تكون امرأة حكيمة شجاعة منصفة تتحلى بامتلاء النفس، وتنفر من الآراء القافية الفارغة. إن الأشياء القيمة تأتي إلى المرأة من هذا المصدر: من نفسها، ومن زوجها، ومن أولادها، ومن بيتها، وربما أيضاً من مدينتها، لو أن مثل هذه المرأة حكمت المدينة أو القبيلة على نحو ما نرى في المدن الملكية.

وعندما تسيطر المرأة على شهوتها، ومشاعرها العنيفة، سوف تكون امرأة مستقيمة تسودها الهرمونيا، ولن تشدها أية رغبات غير مشروعة، بل سوف تحتفظ بحبها لزوجها ولأولادها وليبيتها بأسره. وعندما تصبح المرأة عشيقة لرجل غريب فإنها تصيح، في الحال، عدوة لآل بيتها جميعاً، وللطبقات العليا والدنيا في المجتمع على حد سواء. ومثل هذه المرأة تختلق الأكاذيب، وضروب من الغش والخداع لزوجها حول كل شيء، في محاولة لتبدو متفوقة وذات إرادة خيرة، ورغم أنها تحب الكسل، فإنها تريد أن تظهر وكأنها تحكم بيتها.

ولابد للمرأة أن تدرب نفسها على المعايير الطبيعية للغذاء، والملابس، والاستحمام، ومسح الجلد بالزيت، وتصفيف شعرها، ووضع زينتها من الذهب والأحجار الكريمة. إن المرأة التي تبالغ في الطعام، والشراب، وتسرف في الملابس، والتحلّى بكل زينة، تكون جاهزة لارتكاب الخطيئة، وممارسة كل رذيلة، سواء بالنسبة لغراش

الزرجية، أو بقية الأفعال الخاطئة الأخرى، لكن من الضروري فحسب تخفيف حدة الجوع والعطش حتى لو تم ذلك بأرخص الوسائل، فقد تكتفى في حالة البرد بثوب خشن، أو حتى بجلد الماعز.

إن ارتداء العباءات الأرجوانية الفاخرة، ذات الألوان الفاقعة، حماقة لا حد لها. لكن في حالات الجهل البشرى ترى المرأة تسرع إلى العيب والمبالغة، ومن هذه النزاوية لا ينبغي على المرأة التي يسودها الانسجام أن تنقذ نفسها بالذهب والأحجار الكريمة الاتنية من الهند أو غيرها من البلدان، ولا أن تدهن جسمها بالطيب الآتى من بلاد العرب، ولا أن ترسم وجهها بالأبيض والأحمر، ولا أن تسود حواجبها أو رموشها، أو أن تصبغ شعر رأسها. إن الجمال الذى يأتى من الحكمة، وليس من هذه الأمور، هو الذى يرضى المرأة الأصيلة ويشيعها.

لكن المرأة ينبغي عليها ألا تظن أن نبالة المحتد، أو الثراء، أو القول بأنها آتت من مدينة كبيرة - هي أمور ضرورية أو لازمة لها، أو لأصدقائها، أو للأراء الطيبة من الرجال المرموقين عنها، ولو فعلت ذلك فلن يصيبها أى أذى، وإن لم تفعل فإن روحها لن تسعى إلى ما هو عظيم، إن هذه المسائل فى الواقع تضرها أكثر مما تنفعها، وتجرحها إلى سوء الحظ، وإلى الخيانة، والحسد، وسوء الطوية، ومثل هذه المرأة لن تكون أبداً صافية النفس.

لا بد للمرأة أن تحترم الأكلهه، وأن تطيع قوانين الأسلاف وقواعدهم، وبعد احترام الأكلهه فإن عليها احترام الوالدين وتوقيرهم، فهما من حيث التأثير، يتساويان مع الأكلهه، بالنسبة للنسل.

أما بالنسبة لزوجها فلا بد لها أن تعيش معه حياة مشروعة

ومحترمة، ولا تنظر لأية شئ على أنه خاص، بل عليها أن تحافظ على زوجها، وأن تصونه. وعلى المرأة أن تتحمل ظروف زوجها حتى ولو كان غير موسر، ولو سقط نتيجة للجهل في عادة الشراب، أو طريق الفراش، أو كان يعاشر نساء أخريات، فإن هذا الخطأ يمكن أن يغفر للرجال، لكنه لا يغفر أبداً للنساء، إن عليها أن تحافظ على القانون، وألا تحسد الرجال على ذلك. كما أن عليها أن تتحمل غضب زوجها أو بخله، أو مفواته، أو الفاظه التي يتفوه بها أحياناً، أو غيرته، أو شتائمها، أو معاملته السيئة، أو أية صفة أخرى تكون فيه بحكم الطبيعة، إذ يجب عليها أن تكون متحفظة وكتومة، وأن تعالج جميع صفاته بطريقة تسعده، فإذا ما أحببت المرأة زوجها وفعلت ما يرضيه، وعملت على إسعاده، سادت الهرمونيا وتحقق الانسجام... فإذا لم تحبه فإنها لن تجد الأمان لا في بيتها، ولا لأطفالها، ولا لخدمها، ولا لممتلكاتها، بل ستصبح كما لو كانت العدو الذي يسعى إلى الخراب، بل ربما راحت تصلى للآلهة ليموت زوجها على أساس أنه رجل كره، ولتجد لنفسها الأعذار لتعاشر رجلاً آخرين... بل إنها سوف تكره كل ما يسعده، وينخل السرور على قلبه.

لكنني أعتقد أن المرأة يمكن أن تحقق الهرمونيا إذا امتثلت بالحكمة، وأظهرت ضبط النفس، وذلك لن يفيد زوجها فحسب، بل أطفالها أيضاً أو عبيدها، وأقاربها، والبيت بأسره بما في ذلك الأصدقاء والضيوف - وببساطة سوف تحافظ على بيتها، فلا تسمع ولا تقول إلا ما هو عدل ومنصف. وأن تطيع زوجها في حياتهما المشتركة، وتمتدح من الأتارب والأصدقاء من يمتدحهم هو، وتفكر في الأشياء حلوها

ومررها على نحو ما يفكر - وإلا فسوف تصبح ناشئاً في علاقتها بالكل...».

ونحن في هذا النص نجد أن بركتسوني - مثل ثيانو الثانية وفتيس الاسبرطية - تتخذ - في النظرية الأخلاقية - منحنى مختلفاً عن الفلاسفة الرجال، فهي لا تهتم بالنظريات المثالية، ولا تفحص ما الذي ينبغي أن يكون عليه المجتمع، بل إننا نجد الفلسفة الأخلاقية عندها مغروزة في البرجماتية، فهي تسلم أن المجتمع قائم على نحو ما هو عليه، وبالتالي تبحث في الطريقة التي تستطيع بها المرأة أن تحقق

مبدأ الهرمونية.

٣ - برجماتية الأخلاق ... والزوجة المخلصة:

لقد طبقت بركتيوني برجماتيته الأخلاقية على الخيانة الزوجية بالنسبة للنساء، فهي مثل الفيلسوف الواقعي الذي يذهب إلى أن مفتاح التشريع هو ما تفعله المحاكم بالفعل، فإن بركتيوني تشير إلى الأحكام التي يصدرها المجتمع فعلاً بوصفها قواعد لابد أن تعيش المرأة الفاضلة طبقاً لها، بالغاً ما بلغت نتائجها التي تعارض تحرر المرأة. فنحن نجد أنها نتجت من مقدمة فلسفية تقول بأنه يجب تطبيق مبدأ الهرمونية المعياري على ظروف الحياة البشرية. وعلى الرغم من أن آراءها (وكذلك النساء الفيثاغوريات الأخريات) تعرض دور المرأة على نصي يرفضه معظم المفكرين المعاصرين، فلا بد أن نفهم أن نظرتها هي استجابة برجماتية لمشكلة المسؤولية الأخلاقية في مواجهة الوضع القائم وما فيه من تجاوزات.

٤ - الجمال الفيزيقي والفساد الأخلاقي للمرأة:

لا شك أن في آراء بركتيوني عن المرأة نغمة واضحة تساير أوضاع المرأة التي كانت موجودة في ذلك الوقت، بمعنى أن تكون تابعة للرجل تماماً ومخلصة له، متبينة آراءه عن العلاقات الاجتماعية بحلولها ومرها. ولهذا نراها تحذر المرأة من أن الإفراط في العناية بجمالها الفيزيقي - أو جمال الجسد - قد يسهم في الفساد الأخلاقي عند النساء؛

ذلك لأن الجمال الحقيقي ينبع من الحكمة، لا من الزينة أو الملابس أو المجوهرات، إذ تقف البساطة في معارضة الغرور، والعناية بالمظهر، واللياقة في مقابل الإفراط في المأكول والملبس. وربما استنتج القارئ من آراء بركتيونى أنها كانت تملك العديد من الجوارى والخدم. والواقع أن النص بأسره يحمل لهجة مألوفة تماماً لمعايير الحياة التي كانت قائمة في ذلك الوقت. ومن ثم كان وقوع المرأة في شباك المظاهر هي الخطوة الأولى نحو الخطيئة، ونحو ارتكاب كل رذيلة. ولهذا كان الاعتدال أو ضبط النفس هما الفضائل التي تسعى إلى تطوير جميع الفضائل الأخرى، وعدم الاعتدال هو الرذيلة التي تفتح الباب - على مصراعيه - أمام جميع الرذائل الأخرى.

٥ - المثالية في مقابل البرجماتية^(١):

لقد كان هدف بركتيونى - في الواقع - كما تكشف عنه الشذرات المتبقية من كتابها هو أن تحدد المطلوب من المرأة في المجتمع القائم بالفعل، لكي يمتدح الناس أخلاقياتها. ولم تستهدف أبداً الكشف عن الدور الذي يمكن أن تقوم به النساء في مجتمع مثالي، أو افتراضي، أو حتى يختلف اختلافاً واسعاً عن المجتمع الموجود فعلاً. وإن كانت قد ذكرت في إشارة عابرة أن الأوضاع يمكن أن تكون مختلفة، فالخيانة

١ - هذا التعليق كتبه فيكي لين هاربر Vicki Lynn Harper مترجمة الشذرات المتبقية من كتاب بركتيونى «هارمونيا النساء». راجع مثلاً كتاب «ماري إلين ويث» «تاريخ الفلاسفة من النساء»، المجلد الأول ص ٣٧.

الزوجية يمكن أن تغفر بالنسبة للرجل، لكنها لا يمكن أن تغفر للمرأة أبداً. وما هنا نرى بركيتونى تعلق قائلته: «إنه من الضروري للنساء أن تأخذ بهذا القانون دون أن تحسد الرجال على ما لهم من حرية أعظم». ويتضمن هذا الرأي وصفاً حياً للمعاملات السيئة، التي كان على المرأة أن تتحملها. لكن من الواضح أيضاً أن المجتمع الذى كانت تعيش فيه المؤلفة كان يحد من الطرق التى تستطيع المرأة أن ترضى عن المبدأ المعيارى للهرمونيا. ولا تتأمل بركيتونى، نظرياً، ما يمكن أن يكون عليه حال المرأة فى مجتمع مفترض أو مثالى، أو حتى يختلف اختلافاً واسعاً عن المجتمع القائم، بل هى بالأحرى تنظر فى أوضاع المجتمع الحالى والطريقة التى تستطيع المرأة بواسطتها أن تحقق الانسجام أو الهرمونيا.

خاتمة:

عرضنا في هذا الفصل لثلاث نساء من «إيزارا اللوكسانية»، و«فيتس الاسبرطية»، و«بركتيوني الثانية». ولا شك أن تحليل النصوص أو الشذرات المتبقية يكشف عن أمرين هاميين:

١ - القدرة العقلية على التفلسف، ومحاولة لتطبيق مبدأ الإنسجام الفيثاغوري على الفرد، والأسرة، والمجتمع. كما يكشف لنا عن المرأة الفيثاغورية أو النموذج الحي «للمرأة الفاضلة» التي كانت تعد «المثل الأعلى» للمرأة في العالم القديم، إذ كان يضرب بها المثل للزوجة المثالية. وهذا واضح من الشذرات التي تتحدث عن اهتمام المرأة بتربية الطفل، وعلاقتها بزوجها، وبالمجتمع بصفة عامة.

٢ - إن النساء الفلاسفة من الفيثاغورية كانوا أكثر واقعية، وأشد إتصافاً بمشكلات الحياة، فلا تجد عندهن التحليق النظري في عالم المثال، بل الوقوف على أرض الواقع الصلبة، والعناية بالأخلاق العملية مثل: الاعتدال عند المرأة، والقدرة على ضبط النفس، والعفة، والربط بين الجيل الحالي وبقية الأجيال المقبلة، والماضية... إلخ. حتى أننا نجد باحثة مثل ماري إلين ويث تعتبرها نزعة «برجماتية»، في حين يعتبرها غيرها فلسفة واقعية.

بقى أن نقول أن هذه نماذج من النساء الفلاسفة في الفيثاغورية،

وليس حصراً لكل النساء في ذلك الوقت، وإلا ففى استطاعتنا أن نذكر «ثيانو الثانية II Theano» وهى غير «ثيانو الأولى» زوجة فيثاغورس، وقد عاشت فى زمن متأخر، ربما عام ٣٠٠ ق.م (أى بعد ثيانو الأولى بثلاثة قرون) وقد بقى لنا منها عدة رسائل أرسلتها لأم شابة توجهها إلى تربية أطفالها فى غير ترف، حتى يشبوا على الفضيلة، والاعتدال عند البلوغ، ومن الطريف أن هناك رسالة ترشد فيها ثيانو الثانية امرأة شابة تدعى كالليستو Kallisto للطريقة التى تعامل بها عبيدها، وهى لا تزال فى بداية زواجها.

غير أن الأطراف من ذلك كله رسالتها إلى امرأة تدعى رودوبى Rhodope للطريقة التى تبسئها بقولها «من ثيانو إلى رودوبى الفيلسوفة..» وهى تسألها فيها عما إذا كانت غاضبة منها لأنها «لم ترسل لها كتاب افلاطون المسمى ب«ارميندس»!!» ومن الخطاب نفهم أنه كانت هناك قراءة لمحاورات افلاطون، بل «لمحاوره ب«ارميندس»» التى تعتبر من أصعب محاوراته. وهذا يدل مرة أخرى على قدرة عقلية عند المرأة فى العالم القديم... فإذا ما اتبحت لها الفرصة فى العالم الحديث، فإنها سوف تشكل فلسفة كاملة على نحو ما سنعرف فى الكتاب القادم.

هناك أخيراً «بركتيونى الثانية II Perictione» التى ألغت كتاباً عنوانه «عن الحكمة .. rsophias» والشذرة المتبقية لنا من هذا الكتاب تبدأ بقولها: «لقد ظهر الجنس البشرى إلى الوجود لكى يتأمل مبدأ طبيعى الكل، إن وظيفة الحكمة هى امتلاك هذا المبدأ، ولكى يتأمل الإنسان الغرض من وجود الأشياء. صحيح أن الهندسة والحساب، وبقيّة

العلوم تدرس الأشياء الموجودة، لكن الحكمة تدرس اجتاس الأشياء جميعاً، إذ تتعلق الحكمة بكل ما هو موجود، تماماً كما يتعلق البصر بكل ما هو مرئي، والسمع بكل ما هو مسموع...إن من اختصاص الحكمة أن ترى وتتأمل الخصائص التي تنسب إلى الأشياء على نحو كلي، أما ما يتعلق ببعضها فقط فذلك ما تختص به العلوم الطبيعية... فالحكمة تبحث عن المبادئ الأساسية لكل شيء، في الوقت الذي تبحث فيه العلوم الطبيعية عن مبادئ الأشياء الطبيعية، والهندسة والحساب والموسيقى تختص بالكم وبالهرمونيا^(١) وهذه الفقرة الموجزة مليئة بالأفكار الفلسفية، بل وتفرق بين الفلسفة وغيرها من العلوم الجزئية، وفقاً لمجال الدراسة.

1 - Mary E. Waithe : Op, Cit, P.55-56.

الفصل الرابع

«إسبازيا ... معلّمة

الخطابة»

(تُبرهن المرأة على أمومتها بأن تُرضع صغارها ..
كذلك تبرهن بلادنا على أمومتها بأن تنتج
لأبنائها القمح والشعير...!)



ارشميدس، ائقيادس، ائكساجوراس، افلاطون، اسپاسيا، بركلييس، سقراط

بولينوس، ايتكس، انتستين، سوفكلييس، فيداس

همالون اسپاسيا

أولاً: حياتها

لا نعرف شيئاً عن ميلادها، لكنها ماتت على الأرجح عام ٤٠١ ق. م. وهي مواطنة من ملطية في أيونيا، وصلت إلى أثينا حوالي عام ٤٥٠، وافتتحت فيها مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة، وأخذت تشجع بجرأة عظيمة - فيما يقول ول ديورانت - خروج النساء من عزلتهن، واختلاطهن بالرجال، وتربيتهن تربية عالية، والتحقق بمدرستها كثيرات من فتيات الطبقات العليا، وأرسل كثير من الأزواج زوجاتهم ليدرسن معها^(١).

ويبدو أنها كانت تلقى محاضرات كان يستمع إليها الرجال أيضاً، ومن بينهم بركليث، وسقراط، وأكبر الظن أن ألكساجوراس نفسه، ويوريبيدس، وألفيدياس، وفيدياس المثال كانوا يستمعون إليها، أو كانوا يحضرون صالونها الأدبي - كما تدل الصورة التي سوف نتحدث عنها بعد قليل. وحين التقى بركليث بإسبازيا كان قد مضى على زواجه زمن طويل، وكانت هي من ذلك الطراز الذي تحاول خلقه في بلاد اليونان، طراز النساء اللاتي أصبح لهن - بعد قليل من الوقت - شأن كبير في الحياة الأثينية^(٢).

١ - ول ديورانت «قصة الحضارة» المجلد السابع، ترجمة الأستاذ محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ١٨.
٢ - المرجع السابق ص ١٩.

ويرى «ديورانت» أن بركليز وجد الفرصة سانحة أمامه للارتباط بإسبازيا، «إذ أصبحت زوجته رجلاً آخر، فلم يكن منه إلا أن عرض عليها أن تستمتع بحريتها نظير استمتاعه هو بحريته، قرضيت بذلك، وجاء بركليز بإسبازيا إلى بيته، غير أن القانون الذي سنّه بركليز نفسه عام ٤٥١ يحرم على الأثينيين الزواج من أجنبية حتى ولو كانت يونانية^(١)».

ويرى المؤرخون أن بيتها كان منتدى للشخصيات الكبيرة في أثينا، حتى أن شعراء الكوميديا كانوا يسمونها «هيرا» أو الإلهة الملكة، زوجة رب الأرباب، على اعتبار أن بركليز هو زيوس نفسه^(٢). وكان سقراط يحب بفصاحتها ويدهش منها ويقول إنها هي التي علمته فن البيان، ويعزو إليها الفضل في إنشاء الخطبة الجنائزية التي القاها بركليز بعد الخسائر الأولى في حرب البلبونيز. وما لبثت إسبازيا أن أصبحت ملكة أثينا غير المتوجة، تشيع فيها أخيراً نمط الحياة الاجتماعية، وعنها تأخذ نساء المدينة «مثل الحرية العقلية والأخلاقية التي يتطلعن لها، والتي تثير حماسهن»^(٣). وكان ذلك كله صدمة قوية لمشاعر المحافظين من الأثينيين، فأخذوا يتدبون ببركليز أولاً، ثم بأعضاء الصالون ثانياً، فاتهموا فيدياس باختلاس بعض ما عهد إليه

١- James Donaldson: Women: "Her Position and Her Influence in Ancient Greece and Rome", N. Y 1973 P.61.

٢- المرجع السابق نفسه. وانظر أيضاً د. إمام عبد الفتاح إمام «إقلاطون .. والمرأة» ص ٤٠ - ٤١ مكتبة مدبولي بالقاهرة.

٣- ولي ديورانت سقصة الحضارة المجلد السابع ص ١٩.

من ذهب لصنع تمثال الإلهة أثينا من الذهب والعاج. ووجهوا إلى انكساجوراس تهمة تتعلق بالدين، فغدر الفيلسوف خارج البلاد اتباعاً لمشورة بركليز. ووجهوا تهمة دينية أخرى إلى إسبازيا نفسها، مضمونها أنها لا تخضع لأوامر الدين، وأنها جهرت بعدم تعظيم آلهة اليونان، وقدمت للمحاكمة ونظرت قضيتها أمام ألف وخمسمائة من القضاة، ودافع عنها بركليز دفاعاً مجيداً استخدم فيه كل ما وهب من بلاغة، وأصدرت المحكمة حكمها بالبراءة^(١).

ولقد خلدتها الوثائق التاريخية في عملين بارزين:

الأول : هو محاورة مينكسينوس.. Menexenus لأفلاطون، حيث يقول سقراط: «عندى معلمة ممتازة في البيان (الخطابة). ولقد علمت كثيراً من الخطباء الممتازين، على رأسهم أفضل الخطباء جميعاً ألا وهو بركليز. ولقد سمعت بالأمس أنها ديجت خطاباً جنازياً عن موتانا هو الذي ألقاه بركليز في الحقل الجنازى الشهير. ولقد حفظت منها هذا الخطاب عن ظهر قلب. وكانت هي على استعداد لأن تجلدى بالسياط إن نسيت منه شيئاً»^(٢).

الثاني : اللوحة الزيتية من الجص البارز الموجودة الآن على بوابة مكتبة جامعة أثينا، واللوحة تصورها في صحبة سقراط، وفيدياس Phidias الممثل وهو يمسك في يده بالازميسيل،

١ - ول ديورانت، المراجع السابق ص ٥. وانظر كتاب ماري إلين ويث: «تاريخ الفلاسفة من النساء» المجلد الأول ص ٧٥.

2 - Plato : Menexenus : 235 C - 136 B.

وسوقكليس، وبركليز قائد حرب البلبونيز، واقلاطون عندما كان
شاباً، وانتستين، وانكساجوراس، والقبيادس الوسيم... إلخ. وإن كان
من الواضح أن بعض شخصيات هذه اللوحة لا يمكن لهم أن يجتمعوا
معاً في وقت واحد. وبعضهم مثل أرشميدس لم يكن قط من بين
أعضاء صالون إسبازيا الشهير.

ثانياً : خطاب بركليز الجنائزى

فى عام ٤٣٢ ق. م. اندلعت الحرب التى نطلق عليها اسم «حرب البيلونيز»، واستمرت مرحلتها الأولى عشر سنوات (٤٣٢ - ٤٤٢ ق. م). وانقسم فيها العالم الإغريقى قسمين: أحدهما: «دورى» تنزعهم اسبرطة، والآخر: تغلب عليه الصفة الأيونية وتقوده أثينا. ولقد قاد بركليز هذه الحرب، ووضع خططها معتمداً على قوة أثينا البحرية، وعلى التجمع خلف «الأسوار الطويلة»^(١).

وبعد مرور عام على اندلاع الحرب اجتمع الأثينيون بحسب عادتهم، خارج أسوار المدينة؛ ليستمعوا إلى خطاب جنائزى (مرثية) يعد خصيصاً فى أمثال هذه المناسبات للاحتفال بذكرى الشهداء الذين استشهدوا فى المعركة^(٢).

١ - اقنع بركليز الجمعية الوطنية فى أثينا بصرف الأموال اللازمة لبناء أسوار لا يقل طولها عن ثمانية أمتار سميت «بالأسوار الطويلة» تصل أثينا ويبريه. ونظرت اسبرطة إلى هذا العمل على أنه عدائى، فسيرت جيشاً هزم الأثينيين عند تنجارا.. Tangara رغم ما أصاب الفريقين من خسائر فادحة، انظر.

- Thucydides: History of the Peloponnesian War, p. 98 Eng. Trans. By Rex Warner, 1954. Penguin Classics.

٢ - قبل الاحتفال بثلاثة أيام يقيم الأثينيون - على نفقة الدولة - خيمة يضعون تحتها عظام الشهداء، وفى أثناء الجنائز توضع العظام فى توابيت مصنوعة من خشب المسرو وتحمل على نعش، كما أنهم يجمعون شعفاً فارفاً تغطيه سجف ويرمز إلى السقتلى من الجنود البذون لم يعثر على جثثهم بعد المعركة. ويسير فى موكب الجنائز من يشاء من الناس سواء كان مواطن أم أجنبياً يعيش -

وكان بركليز هو الذي اختارته أثينا، فصعد منبراً عالياً أعد خصيصاً كي يسمعه أكبر عدد ممكن من الناس الواقفين بعيداً عن المنبر وقال:

«إنَّ معظم الذين تكلموا في الماضي في مثل هذه المناسبة اثنوا ثناء عاطفياً على هذه السنة المتعبة في الاحتفال بدفن الشهداء، على اعتبار أن هذا التكريم للشهداء الذين سقطوا في ساحة المعركة واجب مقدس. لكن لست أوافق على ذلك؛ فأولئك الذين برهنوا على بسالتهم بالفعل، يكفيهم فخراً في اعتقادي أن نعلن عن بسالتهم بالفعل أيضاً، كما شاهدتهم في هذا الاحتفال الجنائزي الذي نظمته الدولة. وهكذا لا يكون تكريمهم وفقاً على فصاحة الخطيب أو عدم فصاحته... سأقول كلمة عن أجدادنا، إذ من المناسب ونحن نقيم مأتماً للشهداء أن نكرم ذكرى السلف. فلم تخل هذه الأرض يوماً من الأبطال الذين استطاعوا بشجاعتهم أن يورثوها لأبنائهم جيلاً بعد جيل... وإن كنت لن أدبج خطاباً عن أشياء تمرقونها...»^(١) ثم ترك بركليز شهداء المعركة

– بينهم، ويوجد القبر الرسمي في أجمل بقعة خارج الأسوار، وفيه تدفن عظام شهداء الحرب. وعندما يتم دفن بقايا الموتى في الأرض يقوم رجل سمرقٍ معظم في أمين الناس تنتخبه المدينة ليلقي خطبة يؤن فيها الشهداء، وبعد ذلك يتفرق الجمهور. وقد افتتارت أثينا «بركليز» ليكون خطيب الاحتفال بذكرى الشهداء الأول الذين وقفوا في ساحة المعركة. – راجع في ذلك تشارلز الكسندر روبنسن (الابن). «أثينا في عهد بركليس» ترجمة الدكتور انيس فريجة مكتبة لبنان عام ١٩٦٦، ص ٧٢ – ٧٣.

1 - Thucydides: History of the Peloponnesian War, 144

وذكرى الأسلاف، وراح يعدد مناقب المواطن الأثيني، ونظام حكمه يشكل عام. قال:

«...إننى أقول إنّ نظام الحكم عندنا ليس نسخة من المؤسسات السياسية عند جيراننا. فنحن لا نقتل أحداً، بل إننا مثال يحتذى. ودستورنا هو الديمقراطية، لأن نظام الحكم ليس فى أيدي القلة، بل فى يد الشعب كله. وإذا سأل سائل عن الطريقة التى تحسم بها المنازعات الشخصية، لكان من جوابنا أن كل مواطن يتساوى مع غيره أمام القانون، وإذا سأل من جديد عن الطريقة التى يعين بها شخص ما فى منصب رفيع دون غيره، ولا سيما فى مراكز المسؤولية العامة، لكان جوابنا: إن ما يوضع فى الاعتبار ليس هو مكانة الطبقة التى ينتمى إليها ذلك الشخص، بل القدرات الفعلية التى يملكها، ولن تجد فرداً يقف بعيداً عن الأضواء فى خدمة الدولة لأنه فقير، فالحياة السياسية عندنا حرة ومفتوحة، وليست احتكاًراً أو وقفاً على فئة من الناس. ونحن لا نتدخل فى حياة جيراننا، ولا نخضب منهم إذا ما استمتعوا بحياتهم بالطريقة التى يرضونها لأنفسهم. ولستأ نؤذى الرجل الذى لا يروق لنا طالما كان رجلاً لا ضرر منه^(١). ونحن فى حياتنا الخاصة تغلب علينا روح الحرية والتسامح، أما فى المسائل العامة فإننا نحافظ على احترام القانون».

«ونحن نطيع أولئك الذين وضعناهم فى مراكز السلطة كما نطيع القوانين، ولا سيما تلك القوانين التى تحمى المضطهدين والمظلومين.

1 - Ibidp.145

والقوانين غير المكتوبة التي يعد انتهاكها عاراً على المواطن».

وهناك خاصية أخرى: إننا عندما ننتهي من أعمالنا نكون في وضع يسمح لنا بالاستمتاع بجميع أنواع الترويح عن أنفسنا، فنعذنا تنافس في الألعاب الرياضية والأعياد المنتظمة التي نقدم فيها القرابين طوال العام، كما إننا نجد الجمال في بيوتنا، والمناظر الجيدة الذي يبهجنا كل يوم ويبعد عنا الملل والسأم. ويسبب عظمة مدينتنا ترد إلى أسواقنا ثمار الأرض من كل فج، ومن حقنا - وذلك أمر طبيعي - أن نستمتع بمنتجات البلدان الأخرى كما نستمتع بمنتجاتنا المحلية سواء بسواء.

وإننا نحمد الموهبة أيًا كان مجالها؛ لأن التفوق الممتاز هو في حد ذاته، جدير عندنا بالتمجيد، إننا نحب الجمال في غير إسراف، ونحب الحكمة - أي نتفلسف - في غير ضعف أو تخذلت، ودون أن تفقدنا شهامة الرجال. إن أحداً منا لا يستسلم لأحد في أمر يمس استقلاله الروحي وإبداعه المثمر، وإننا لنعتمد على أنفسنا اعتماداً كاملاً.

«أما المال والثراء فننفقهما في الوجوه الصحيحة، ولا نستخدمهما للمباهلة أو الادعاء الفارغ، ولا نرى عيباً في الاعتراف بوجود الفقر بين ظهرائنا، وإنما العيب الحقيقي هو التقاعس عن محاربة الفقر. والمواطن الأثني لا يغفل أمر بلاده لأنه يهتم بشئونه الخاصة، بل إن الذين ينحسرون منا في التجارة تجدهم على علم جيد بشئون بلادهم السياسية، وتلك خاصية أساسية من خواصنا. إننا لا نقول عن الرجل الذي لا يهتم بأمور السياسة إنه يهتم بأموره الخاصة بل إننا نقول إنه لا يهتم بشئ على الإطلاق. إننا نحن الأثنيين نتخذ قراراتنا ونضع خططنا بعد إخضاعها للمناقشات المناسبة؛ لأننا لا نعتقد أن شمة تناقضاً بين

الأقوال والأفعال، بل إن أسوأ الأمور هو الاندفاع إلى الفعل قبل مناقشة النتائج مناقشة جيدة...^(١).

«لأبد لي أن أقول - في كلمة واحدة - إن أثينا هي معلمة بلاد اليونان ومدرستها، وإنني لأعلن أن كل فرد من مواطنينا، قادر في كل مناحي الحياة أن يظهر على أنه سيد نفسه أو مالك شخصه، وأهل لمعالجة مختلف الأمور والشئون الطارئة في يسر ولباقة. وليس قولي هذا عبارة تملئها المناسية، ولا هو قول فيه مدهانة، بل إنني أقول الحق وأشير إلى الواقع، والدليل على صدق قولي هو سمو المكانة التي بلغتها الدولة بسبب هذه الفضائل والسجيا التي جئت على ذكرها...».

«لقد أطلت الحديث عن عظمة أثينا؛ لأنني أود أولاً أنؤكد لكم أن ما نصارب من أجله أئمن جداً مما يحارب من أجله الآخرون؛ ولأبرهن لكم ثانياً لماذا استحق هؤلاء الشهداء مثل هذا التكريم، ومثل هذا الاحتفال الذي أقمناه... إنني بتقريظي لهذه المدينة، والحديث عن فضائلها فإنني أكون قد نوهت بتضحية هؤلاء الشهداء، وأمثالهم من الرجال الذين أقسامت المدينة على أساس فضائلهم عسرها وسؤدها...»^(٢).

حاولنا أن نختصر - قدر المستطاع - هذا الخطاب الجثائزي الطويل الذي ألقاه بركليز في حفل شهداء أثينا، الذين سقطوا في أول عام من أعوام حرب البيلونين العشر، ولعل أهم

1 - Thucydides : Ibid.-147-148

2 - Thucydides: Ibid. P.149.

- ١٣٠ -

عناصر الخطاب هي كما يلي:

١ - يبدأ بركليز بامتداح السنة المتبعة في الاحتفال بتكريم الشهداء، لكنه يريد أن يكون في الحفل تكريم للأجداد أيضاً، الذين لم يخلوا يوماً على الوطن بحياتهم.

٢ - يقوم بركليز، في الواقع بالتركيز أساساً على خصائص «الشخصية الأثينية» الحقبة، فمعظم الخطاب ينصب على صفات المواطن الأثيني، من ناحية، ومناقب أثينا بصفة عامة، من ناحية أخرى.

٣ - بدأ يصف نظام الحكم في أثينا، وهو النظام الديمقراطي، الذي يفخر به المواطن الأثيني، ويعدّه نموذجاً تحتذيّه الدول الأخرى، وهو يعنى حكم الشعب لا حكم طبقة ولا جماعة ولا فئة.

٤ - خصائص هذا النظام هي:

١- كل الأفراد متساوون أمام القانون.

ب - جميع الفرص متاحة أمام الأفراد لاختيار صاحب الكفاءة للمناصب الشاغرة.

ج - لا أهمية للطبقة التي ينتمى إليها الفرد، فليست هي التي تؤهله لشغل المناصب الرفيعة ذات المسؤولية.

د - لا أهمية للثروة، فلا يكون الفرد بعيداً عن الأوسواء، أو محروماً من خدمة بلده بسبب فقره.

- هـ - الحياة السياسية خرة ومفتوحة وليست احتكاراً لأحد.
- و - لكل إنسان أن يستمتع بحياته التي يرتضيها لنفسه ما دامت لا تضر الآخرين.
- ز - تغلب على المواطن الأثيني، في حياته الخاصة، روح الحرية والتسامح، وفي المسائل العامة طاعة القانون.
- ح - يعود بركليز بعد ذلك إلى الحديث عن «المواطن الأثيني» الذي من خصائصه الاستمتاع والترويح عن النفس بعد عناء العمل.
- ط - المواطن الأثيني يمجّد الموهبة ويحب الجمال في غير إسراف، ويحب الحكمة دون أن تفقده شهامة الرجال.
- ي - المواطن الأثيني لا يستسلم لأحد في أمر يمس استقلاله الروحي وإبداعه المستمر، وهو يعتمد على نفسه اعتماداً كاملاً.
- ك - المواطن الأثيني، حتى إذا اضطر في أعمال تجارية، تراه ملماً إماماً جيداً يشئون بلاده السياسية.
- ل - ثم يعود بركليز إلى التفاخر بأثينا معلمة اليونان ومدرستها، وأن ما تحارب من أجله أثينا - وهو الحرية - أثمن كثيراً مما يحارب الآخرون من أجله. ومن هنا جاء فضل الشهداء.
- ونذكر هذه العناصر الأساسية في خطاب بركليز؛ لأننا سوف نجدها تتكرر في خطاب إسبازيا الذي يرويهِ سقراط في «مساورة مينكسيونس» لأفلاطون...

ثالثاً: إسبازيا ... ومحاورة «مينكسيوس»

تدور المحاوراة حول «الخطاب الجنائزى» الذى سمعه سقراط من إسبازيا رفيقة «بركليز بن إكزانتثيبس... XANTHIPUS»، وهى التى علمته فن الخطابة، كما علمت كثيرين غيره. والخطاب تأبين لشهداء سقطوا فى معركة. ولم يهتم أفلاطون بتحديد هوية المعركة ولا نوع الحرب^(١).

وتبدأ المحاوراة بمقدمة تنطوى على سخيرية من نفاق الخطباء حتى ليخيل إلى المرء أن «التسليق والنفاق والمداينة» هى موضوع محاورة مينكسيوس، وإن كان ذلك لا يظهر إلا فى المقدمة فحسب حيث يقول سقراط ساخراً: «ربما كان من الأفضل للمرء أن يموت فى المعركة؛ لأنه فى هذه الحالة سوف يحظى بجنازة رائعة حتى ولو كان فقيراً، وسوف يمتدحه الناس بكلمات قد لا يستحقها، ويعلن الحكم عن فضائله، سواء أكانت لديه أم لم تكن، حتى يمسى المرء مسحوراً بهذه الكلمات، وقد يتصور نفسه وقد أصبح إنساناً عظيماً، بل أعظم وأسمى وأنبل مما كان يظن؛ ويستمر معه هذا الشعور بالكرامة ثلاثة أيام (هى مدة الاحتفالات) وقد لا يفارق منه إلا فى اليوم الرابع أو الخامس...»^(٢).

1 - The Dialogues of Plato, Vol. I Trans. by R. E. Allen, Yale University Press, 1984, P.319.

٢ - أفلاطون: محاورة مينكسيوس ٢٣٥ - أ ب . وانظر أيضاً الشرح الذى قدم به «إن» لترجمته لهذه المحاوراة فى كتاب «محاورات أفلاطون» السالف الذكر ص ٣١٩.

ويكون تعليق مينكسيديوس: «إنك تسخر، على الدوام، من الخطيئة ياسقراط، وعلى أية حال، فقد اختاروا اليوم خطيباً لهذه المناسبة (وهو بركليز) ولا أظن أن مهمته ستكون سهلة؛ لأن عليه - فيما أظن - أن يرتجل الخطاب...»^١.

ويرد سقراط: إنه لا خوف على بركليز فقد علمته معلمة البيان «إسبازيا» فن الخطابة، وقد أعدت بالفعل الخطاب الجنازى الذى سوف يلقيه قائد أثينا^(١). ولقد سمعته منها بنفسى، بل إننى حفظته عن ظهر قلب، وكانت هى على استعداد لأن تجلدهنى بالسوط إن نسيت منه شيئاً!«^(٢).

١ - Plato: Menexenus. 236. B.

2 - Ibid.230.C.

رابعاً : خطاب «إسبازيا» ... الجنائزى

بعد ذلك يبدأ سقراط فى رواية خطاب إسبازيا الجنائزى تحت إلحاح مينكسيثوس، فيقول إنها بدأت الخطاب على نحو ما فعل بركليز فى الخطاب الذى أسلفنا ذكره، فى استدراج هذه المسة الجميدة التى جرت عليها أثينا فى تأبين شهدائها «إذ من الضروري أن يكون هناك تأبين للشهداء، وخطاب يمتدح الأموات الأبطال، وينصح الأحياء خاصة الأخوة والأبناء أن يقتلوا ذويهم من الشهداء...»^(١). هكذا بدأت «إسبازيا» خطابها لسقراط، ثم استطرحت متسائلة: لكن أى نحي يمكن أن يكون هذا الخطاب؟ وكيف نبسدا مديح هؤلاء الأبطال...؟ يبدو لى أنه من المناسب لطبيعة الأمور أن يمتدحوا لخيريتهم، وهم أختيار بالفعل؛ لأنهم انحسروا من أختيار، فستمتدح إذن، نبالة المحدث، وجودة القربية...^(٢).

١ - نبالة المحدث:

من حيث ولادة هؤلاء الأبطال، فإن أسلافهم لم يكونوا أجانب، بل كانوا أبناء هذه الأرض الطيبة، عاشوا عليها، وحملتهم وأرضعتهم، وتلقفتهم برعايتها، وكانت أهم الحقيقة التى يستريحون فى حضنها:

1 - Plato: Menexenus, 236 . D.

2 - Ibid.

ولهذا كان من المناسب أن نبدأ بتمجيد الأرض التي هي الأم، وتلك هي الطريقة المناسبة لتمجيد هؤلاء الأبناء، وهي بلاد جديدة فعلاً بالثناء، وتلك بسبب مناقب أثينا التي لا تمتدحها نحن فحسب، بل يمتدحها الجنس البشرى كله، بل إنها لتعزيزه حتى على الآلهة^(١). فهي كالأم الحانية على أبنائها، فكما أن المرأة تبرهن على أمومتها بأن ترضع صغارها (وليست أما من لا تكون لديها هذا الذبح) كذلك تبرهن بلادنا على أمومتها، بأن تنتج لأبنائها القمح والشعير، الذي يحتاج إليه الإنسان في طعامه. وتلك علامة على الأمومة أصدق من أمومة المرأة؛ لأن المرأة في حملها وولادتها تحاكي الأرض وليست الأرض التي تغلد المرأة...^(٢).

٢ - جودة التربية:

إن بلادنا التي كانت باستمرار حرة وواظمة، احتضنت أبناءها وربتهم إلى أن أصبحوا رجالاً، ثم منحتهم آلهة ليكونوا لهم حكماء ومعلمين، وهذه الآلهة هي التي نظمت حياتنا، وعلمتنا، وأرشدتنا في فنون حياتنا اليومية.

١- هنا نجد إشارة إلى أسطورة النزاع بين الآلهة - ولا سيما الإله بوزيدون إله البحر والآلهة أثينا إلهة الحكمة - على هذه المدينة، وتضيف إسبازيا «كيف يمكن للمدينة (أو الدولة) التي يتنازع حولها الآلهة ألا يمتدحها الجنس البشرى بأكمله؟» محاوره مينكسيوس ٢٣٧ - ج.

2 - Plato: Menexenus: 237 D , 238 , B.

ولد أجدادنا وتعلموا، وشكلوا حكومة لأنفسهم: حكومة حكيمة، وعاقلة للرجال الأخيار. وسمى هذا الشكل من أشكال الحكومة بالحكومة الديمقراطية - لبعض الوقت - وإن كان شكل حكومتنا هو «الاستقرائية»، لأنه في الواقع، أفضل نظم الحكم...»^(١).

لقد كان الملوك في تاريخنا القديم يرثون العرش، ثم أصبحوا يعينون بالانتخاب بعد ذلك. وهكذا أصبحت السلطة بأيدي الشعب على وجه الإجمال، فالشعب هو الذي يعين الأفراد الأكفاء لشغل المناصب الشاقرة، كما أنه يعطي الحكم لمن هو أفضل دون أن يستبعد أحد بسبب مولده أو لضعفه في بدنه، أو لفقره، أو ما شابه ذلك من أمور ثانوية. فليس ثمة سوى معيار واحد لتولي الحكم والسلطة، ألا وهو: الفضيلة والحكمة^(٢).

«لقد كان شعبنا - على الدوام - يقدر الأعمال الجميلة، العامة منها والخاصة على حد سواء، ويجد أنه من الضروري أن يقاتل من أجل الحرية: فمن أجلها قاتل الإسبرطيون، كما قاتل البرابرة على حد سواء.

ولهذا فإني أؤكد أن أولئك الرجال ليسوا أباءنا فحسب، بل هم أباء الحرية، وأباء حريتنا، وحرريات الذين يقطنون في هذه القارة كلها.

١ - هذا هو رأي أفلاطون الذي كان يعتقد أن الديمقراطية مرادفة للفوضى ولحكم الغفواء. أما النظام الأمثل للحكم، في نظره، فهو النظام الأرستقراطي. قارن د. إمام عبد الفتاح إمام «الطاغية: دراسة فلسفية لحسب من الاستبداد السياسي» ص ١٠٦ وما بعدها.

٢ - أفلاطون: محادثة مينكسينوس ٢٢٨ ج.

لقد نظر الأثينيون جميعاً إلى ما فعله الأثينيون، وأصبحوا تلاميذاً لأبطال الماراتون Marathon^(١)، وهكذا أصبح الجنود الأثينيون في سهل الماراتون، كالبصارة في سلاميس Salamis^(٢)، أساتذة في الفنون العسكرية لهيلاس كلها^(٣).

وما يمكن أن يعيبه شخص ما - في رأي إسبازيا - على مدينتنا، أو يوجه إليها الاتهام - شيء واحد فقط، أو اتهام واحد فحسب هو: أنها كانت رحيمة وشفوفة أكثر مما ينبغي، وأنها تقف بجوار الضعيف، وتساعد أكثر مما ينبغي، وأنها لا تستطيع أن تنفض يدها عن مساعدة من أضرها حينما تراه مستعبداً، بل وأن تخلف عنه ألامه. ولقد ساعدت أثينا اليونانيين وحررتهم من العبودية، ولقد ظلوا أحراراً بعد ذلك إلى أن قاموا باستعباد أنفسهم^(٤).

تلك هي الخطوط الرئيسية في الخطاب الجاثري الذي ذكره

١ - الماراتون Marathon : سهل في الجزء الشرقي من وسط بلاد اليونان على بعد ٣٩ كم إلى الشمال الشرقي من أثينا. فيه هزم الأثينيون (سبتمبر ٤٩٠ ق.م) القوات الفارسية، وأرسلوا أحد الجنود يعدو إلى أثينا ليلبلغهم ثبات النصر، وظل يجري إلى أن وصل وأبلغهم، ثم سقط ميتاً، وكانوا يحتفلون كل عام «بسباق الجري» باسم سباق الماراتون تخليداً لذكرى ذلك الجندي المخلص.

٢ - سلاميس Salamis : جزيرة تقع على خليج سارونيك إلى الغرب من العاصمة أثينا. دارت على مقربة منها عام ٤٨٠ ق.م. - المعركة الحاسمة التي أعلنت انتصار اليونان نهائياً على الفرس.

٣ - أفلاطون : محادثة مينكسينوس ٢٤٩ - (أ) و (ب).

٤ - أفلاطون : محادثة مينكسينوس ٢٤٥. أ.

سقراط في «محاورة مينكسينوس» على لسان «إسبازيا» ، ومن الواضح أن النظرة العجلى تلاحظ التشابه القوي بين هذا الخطاب وبين خطاب بركليز الذي سبق لنا أن أوردنا أهم عناصره، مما يؤكد قبول سقراط بأن إسبازيا كانت معلمة فن الخطابة لبركليز ولغيره من خطباء أثينا.

خامساً: حجتان ضد «مينكسينوس»

لكن هناك مشكلتين يثيرهما بعض الباحثين على النحو التالي :

المشكلة الأولى : إن هذا الخطاب الذى أورده سقراط على لسان إسبازيا ليست له أهمية فلسفية ؛ فهو مجرد ضرب من البلاغة ، أو البيان ، أو الفصاحة اللغوية دون أن ينطوى على أية أفكار فلسفية بالمعنى الدقيق لهذا اللفظ .

المشكلة الثانية : أنه على الرغم من أن أفلاطون هو الذى كتب محاورة مينكسينوس ، وعلى الرغم من أن وجهة النظر التى نسبها إلى إسبازيا صحيح ، وهى خاصة بها فعلاً ، فإن أفلاطون كان يسخر من الخطابة والخطباء ، حتى أن المحاورة بأسرها يمكن أن تعد - فى نظر البعض - قطعة من أدب «السخرية والتهكم» ، ومن ثم فإن أفلاطون لم يكن جاداً عندما كتب هذه المحاورة !.

أما بالنسبة للمشكلة الأولى فإن أصحاب الرأى الذى يقول إن الخطاب ليست له أهمية فلسفية - محاللون بالرد على الأسئلة الآتية :-

١ - كيف يتفق ذلك مع القول بأن أفلاطون هو صاحب المحاورة ؟
وبعبارة أخرى : كيف تفسر كتابة أفلاطون لهذه المحاورة رغم طابعها اللافلسفى الظاهر ؟ كيف يمكن أن نقول إن هذه المحاورة هى العمل الوحيد «اللافلسفى» لأفلاطون ؟ وكيف تستقيم مع بقية محاوراته ... ؟

٢ - ومن ناحية أخرى ألم يكن «فن الخطابة» فرعاً من الفلسفة ؟

الم يفرق أفلاطون نفسه في محاوره جورجياس بين نوعين من الخطابة أحدهما يعتمد على التفات والتماق وهو نوع رديء ومرفوض، والآخر وحده جميل ومطلوب وهو الذي يعمل على جعل نفوس المواطنين أفضل..^(١).

٢ - الم يكتب أرسطو كتاباً مستقلاً عن الخطابة، ويشير فيه بالفعل إلى «الخطاب الجنازى» الذى ذكره سقراط على لسان إسبازيا ليقول بعد ذلك - فى لمحة ذكية بارعة :- «ليس من الصعب أن تمتدح الأثينيين وتحن بين ظهرانيهم .. لكن المشكلة حقاً أن تمتدح الأثينى فى اسبرطة»^(٢). عدوة أثينا اللدود! ومن المحتمل أن أرسطو كان يقرر صدق محاوره مينكسيخوس، كما أنه كان يتابع تراث الأكاديمية المبكر، وهو يزودنا بمفتاح لتفسير المحاوره...^(٣).

٤ - الم تكن الخطابة من بين المجموعة الثلاثية ... Trivium - طوال العصور الوسطى - التى كانت تضم فسقه اللغة، والخطابة، والمنطق، وكانت تسمى «بالعلوم العقلية»؛ لأنها تتناول أفعال العقل - ما يدل على الوضع «العقلى» - ومن ثم الفلسفى - للخطابة عند اليونان وفى العصور الوسطى؟

١ - Plato : Gorgias 503 , A.

٢ - أرسطو «الخطابة» ترجمة د. عبد الرحمن بدوى - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد عام ١٩٨٦ ص ٦٧.

3- The Dialogues of Plato Trans. by R. E. Allen: P. 319.

والمشكلة الثانية : هي أن أفلاطون لم يكن جاداً، بل إن محاوره مينكسيثوس ليست سوى قطعة من أدب السخرية والتهكم. فالخطابة هي عمسرافلاطون بصصفة خاصة كانت جزءاً من الفلسفة السوفسطائية. ولم تكن شخصية إسيابازيا شخصية أدبية أو خرافية خلقتها أفلاطون، بل إن العكس هو الصحيح، فقد تمتعت هذه المرأة بشهرة عريضة؛ ولهذا فإن الأدنى إلى الصواب أن نقول إن أفلاطون كان يضع في ذهنه إسيابازيا معلمة الخطابة السوفسطائية، وإنها ساهمت مع غيرها في نمو الحركة السوفسطائية، كما أسهمت إسهامات ملحوظة في تطور فن الخطابة، وإنها كانت رسولاً لهذا الفكر الجديد الذي كان يعتقد أفلاطون أن له نتائج سلبية على أثينا...».

ومعنى ذلك أن «محاوره مينكسيثوس» كُتبت لِنقِد إسيابازيا السوفسطائية، وللسخرية مما تقول، والتهكم من فن الخطابة حتى مع اعتراف أفلاطون أن هذا الفن فرع من الفلسفة، ومع تسليمه بأن إسيابازيا فيلسوفة، لكنها فيلسوفة سوفسطائية تستحق التهكم والنقد كغيرها من السوفسطائيين في عصره. وعلى الرغم من أننا في هذه الحالة نكون قد وصلنا إلى النتيجة التي نريد إثباتها، وهي قدرة «إسيابازيا» - والمرأة بصفة عامة - على التفلسف حتى بغض النظر عن نوع هذه الفلسفة، فإننا نود أن نقف قليلاً عند «النتائج السلبية» التي كانت في ذهن أفلاطون.

سادساً: إسبازيا ...

وحركة الخطابة السوفسطائية

ما هي النتائج السلبية التي كانت في ذهن أفلاطون عندما أراد نقد حركة الخطابة السوفسطائية...؟^{١٩}

لا شك أن أفلاطون كان في ذهنه، عندما كتب محاوره «مينكسينوس» - الانتقادات التي سوف يوجهها بعد ذلك إلى النظام الديمقراطي في محاوره «الجمهورية»، ولقد سبق أن رأيناه يجعل النظام الأرستقراطي هو الأفضل - حتى على لسان إسبازيا زوجة بركليز راشد الديمقراطية الأثينية. ولا شك أيضاً أن كراهية أفلاطون للديمقراطية جاءت في أنه تصورهما ضرباً من الفوضى يكون فيه الإنسان حراً لا يقيده قيده، ولا يخضع لسيده... إلخ^(١). فغى الكتاب الثامن من «الجمهورية» يعتقد أن سمة الديمقراطية الإفراط في كل شيء؛ في الحرية الفاسدة، والمساواة الفاسدة: «إن يغدو العبيد الذين يشترون بالمال متساويين في حريتهم مع ملاكهم الذين اشتروهم»^(٢). وفي محاوره القوانين يقول: «إن الحرية التامة والمطلقة من قيود جميع أنواع السلطة هي شيء أسوأ بكثير من الخضوع لحاكم محدود

١ - د. إمام عبد الفتاح إمام: «الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي» ص ١٠٦.

٢ - أفلاطون: محاوره «الجمهورية» ٥٦٢ (قارن ترجمة د. فؤاد زكريا ص ٤٨٤-٤٨٥).

القوى...^(١) . فليس شمة تحرر كامل من كل نوع من أنواع السُّلطة .

لكن ما علاقة ذلك بإسبازيا؟ وماذا نقول في أمر إسبازيا معلمة
فن الخطابة...؟

نقول إن أفلاطون تعلم منها الكثير من «فن الخطابة» على نحو ما
تعلم سقراط، ولكن ربما كان ما تعلمه أفلاطون هو الأضرار أو الآثار
السيدة التي ينطوى عليها فن الخطابة كفرع من أفرع الفلسفة؛ ذلك لأن
الفلسفة عنده نظام من المعرفة يسعى للكشف عن الحقيقة . كما يسعى
لتوفير أنهان الناس، لكن الفلسفة، من ناحية أخرى، لديها القدرة على
إقناع الناس بأشياء غير صحيحة، أو قل إن لديها القدرة على طمس
الحقيقة ولاسيما إذا لم يكن المستمع على قدر كاف من الذكاء - مثل
سقراط أو أفلاطون - يمكنه من اكتشاف ذلك، ومن هنا تأتي أهمية نقد
«الخطاب الجنائزي» الذي حفظه سقراط عن إسبازيا، وما فيه من
ادعاءات وتزييف للتاريخ، واللوان من البلاغة تدغدغ مشاعر الناس بغير
حق. ولعل هذا هو ما جعل أفلاطون يبدأ المحاوراة باقتناحية تنطوي
على سخرية من نفاق الخطباء الذين يمتدحون المواطن بخلال ليست
فيه حتى «يُمسى مسحوراً بهذه الكلمات» وقد يتصور نفسه وقد أصبح
إنساناً عظيماً!

ومن هنا فإننا نستطيع أن نقول إن ما حفظه سقراط هو «فن
الخطابة السوفسطائية» وذلك يعني قوة التأثير في الجماهير، والحديث
في أمور من شأنها أن تجعل الشعب يتخدع فيظن في نفسه شيئاً آخر

١ - أفلاطون : محاوراة القوانين ٦٩٨ - ١ .

غير ما يعرف!

إننا إذا ما وضعنا في أذهاننا صورة أثينا عام ٣٨٦ ق. م ، فلا ينبغي علينا أن نقول إن هذا «التشورية للتاريخ» تابع من تعظيم الديمقراطية الأثينية؛ فقد أدان الأثينيون أنفسهم هذه الديمقراطية. غير أن الموضوع الأول الذي ينبغي إدانته — وهو المصدر الرئيسي للفسادية — هو إسبانيا؛ هذه الأيونية «المستتيرة» التي كانت العضو النسائي الوحيد في حلقة بركليز...^(١). على ما يقول أحد أنصار هذه الوجهة من النظر؛ إدمووند بلودو Edmund Bloedow.

1 - Quoted by Mary Ellen Walthe: Op. Cit. P.79.

الخاتمة:

إننا إذا ما أخذنا بوجهة النظر التى تقول إن أفلاطون كتب محاوره «مينكسينوس» للسخرية والتهكم من إسبازيا، وما تمثله من فن الخطابة السوفسطائى - وهذا أمر جازئ - فسوف يترتب على ذلك عدة أمور هامة على النحو التالى:

١ - سوف يعنى ذلك بوضوح أن إسبازيا كانت واحدة من المثقفين اللامعين، والمفكرين المؤثرين فى حياة أثينا، وأنها صاحبة عقل لماع فى الموضوعات السياسية التى تهم الشعب، فضلاً عن اهتمامها بفن الخطابة.

٢ - إن معنى ذلك أن نأخذ بجدية واقعة أنها تعاونت مع بركليس فى كتابة خطابه الجنائزى الشهير.

٣ - إن إسبازيا كانت فى ذلك الوقت فى مركز الحلقة الفلسفية السوفسطائية، وهى حلقة كرسست نفسها لتحليل البيان وشرح وكتابة فن الخطابة.

٤ - معناه أيضاً أن أفلاطون نظر إليها على أنها مصدر تهديد، وليس تهديداً شخصياً، بل تهديد سياسى وعقلى فى الحياة الثقافية الأثينية.

٥ - يبدو أن أفلاطون اعتبرها ممثلة لسوء استخدام الفلسفة، بل وسوء استخدام الحكمة والحقيقة من خلال سيطرتها على البيان، وموهبتها فى فن الخطابة.

٦ - يبدو أن تهمة الإلحاد التي وجهت إليها، والتي حوكت
بسببها أمام ألف وخمسمائة من القضاة - كانت دليلاً آخر
على أن الآخرين كانوا يعتبرونها أيضاً مصدر تهديد، يضاف
إلى ذلك تخليد ذكرها في لوحة الجص المرسومة على
بوابة مكتبة الجامعة، والتي تدل على تقدير الأثنين لها
كمفكرة أثينية في دولة المدينة.



الفصل الخامس

«ديوتيما... معلّمة سقراط!»

(من أجل هذا، يا ديوتيما، سعيثُ إليك، فانا في

حاجة إلى معلّم، فخبّريني بالله عليك...)

سقراط: المأدبة ٣٠٧

أولاً : تمهيد

إسبازيا - التي تحدثنا عنها في الفصل السابق - وديوتيميا Dio-tima التي سنتحدث عنها في الفصل الحالي، هما المرأتان الوحيدتان اللتان ذكرتا على أنهما فيلسوفتان في المحاورات السقراطية. لكن - لسوء الطالع - أثير حولهما غبار كثيف لإبعاد خاصية التفلسف عنهما (وربما لتأكيد النقص في القدرة العقلية عند المرأة بصفة عامة) - الأولى بسبب دورها في تأليف «الخطاب الجنائزى» الذي دارت حوله محاوره «مينكسينوس» لأفلاطون، فقد نظر إليها على أنها مثل على التهكم السقراطي، والمزاج الساخر عند أفلاطون.

أما الثانية فقد قيل إنها مجرد شخصية خرافية ابتكرها أفلاطون بخياله الأدبي، وعرضها في محاوره «المأدبة» على أنها هي التي لقت سقراط «فن الحب».

ومن ناحية أخرى هناك رواية تاريخية تقول إنها كانت تعمل كاهنة «مانتينيا .. Mantinea»، وإنها عاشت حوالي عام ٤٠٠ ق.م. وإنها زارت أثينا زمن الطاعون، وإن لقاءها مع «سقراط» تم في الأعم الأغلب أثناء هذه الزيارة، وهناك شواهد من التاريخ ومن الآثار على أن «ديوتيميا» شخصية حقيقية وليست خرافية كما يقول الفريق الأول.

وسوف نبدأ الحديث عن محاوره «المأدبة» لأفلاطون.

ثانياً: مأدبة «أجاثون»

أما المأدبة فهي حفل أقامه الشاعر التراجيدي أجاثون .. Aga-
thon حوالي عام ٤١٦ ق. م، بمناسبة فوزه بالجائزة عن أول «مأساة»
له، وقد أقامها في اليوم التالي للاحتفال التقلّدي مع الشعراء
والممثلين^(١). وهي لهذا السبب كثيراً ما تسمى «مأدبة أجاثون».

وبعد أن تناول الحاضرون الطعام اقترح «أريكسماخوس» ..
Eryximachus أن يتحدثوا في موضوع «الحب»، فوافق الجميع
على اقتراحه، ودعوا «فايدروس» .. Phaedrus أن يبدأ الحديث
فاستهل حديثه بأن وصف الحب بأنه إله عظيم مقرر بين الآلهة والناس
جميعاً، ولأسباب كثيرة.

ثم عقب «بورنياس» .. Pausanias - وهو شاعر شهيد
العلق بأجاثون فذهب - إلى أن الحب ذو طيائع مختلفة منها النبيل،
ومنها الخسيس. وهو يرجع ذلك إلى «أن هناك شخصيتين لأفروديت:
الأولى: أفروديت السماوية التي يرتبط بها الحب الرفيع النبيل. والثانية:
أفروديت العامية الأرضية التي يرتبط بها الحب الوضع والخسيس. فلو
كان ثمة أفروديت واحدة لجاز أن يكون ثمة جنس واحد للحب»^(٢).

ثم تحدث «أريكسماخوس» .. Eryximachus، الطبيب، فوافق

١ - أفلاطون: المأدبة ١٧٣ - أ.

٢ - المرجع نفسه ١٨٠ - د.

على أن وجود نوعين من الحب: التبيل السماوى، والخسيس الدنى، مع بعض التعديلات، فهو يرتب فصول السنة بحيث يظهر تأثير الحب بنوعيه، فإذا تغلب الأول تما الإنسان والحيوان وازدهر الزرع والضرع. وإذا ما سيطر الثانى عمّ البلاء، وجاء دور القحط والجذب، وشاعت الأوبئة، وتفشت الأمراض^(١).

ثم جاء دور الشاعر الكبير «أرسطوفان Aristophanes» الذى ذهب إلى أن الآلهة فى البداية خلقت الرجل والمرأة موجوداً واحداً له من الأيدى أربع، ومن الأرجل كذلك. وله وجهان متشابهان، ورأس يدور فى جميع الاتجاهات، وله أربع آذان. وكان هذا هو المخلوق الغريب بالغ القوة، يجرى بسرعة رهيبة، ويمشى إلى الوراء وإلى الأمام كما يشاء... إلخ. باختصار: كان مخيفاً حتى ركبه الغرور، فحاول أن يرقى إلى السماء، فشطرته الآلهة شطرين حتى تضعف من قوته وتخفف من غروره. وعقب شطر الإنسان الأول شطرين إلى رجل وامرأة. أخذ كل شطر يبحث عن شطره الآخر، فإذا ما التقى به تعانقاً بقوة، لكنهما يريدان أن يعودا كائناً واحداً كما كانا من قبل!

ثم تحدث الشاعر «أجاثون .. Agathon»، فرأى أن الحب أصغر الآلهة^(٢)، وهو مرفه الحس، رقيق الشعور، لا يحتمل الشدة ولا يطيق

١- أفلاطون: المائدة ١٨٨ - 1.

٢- يصورونه فى الأساطير اليونانية فى صورة غلام مجنح يحمل قوساً ونشاباً، أو طفل عايت يسد سهام الحب إلى الشباب والعذارى، وهو عند اليونان .. Eros، وعند الرومان كيريد .. Cupid. د إمام عبد الفتاح إمام «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الأول ص ٢٧٦ - مكتبة مدبولى بالقاهرة.

المكرهه. ولهذا نراه يحيا في أرواح الناس وقلوبهم. فإن وجد فيها غلظة
نفر منها، وابتعد عنها؛ لأنه لا يطيب له العيش والمقام إلا حيث يجد
اللين، والرقّة، والدعة، والخضوع، كما أنه يتحلى بالعفة، وضبط
النفس^(١).

١- افلاطون: المأدبة ١٩٥ - ١٩٦.

ثالثاً: ديوتيميا ... Diotima

عندما نصل إلى حديث سقراط عن «ديوتيميا» فإننا نصل في الواقع إلى أصعب أجزاء «محاورة المادية» - فيما يقول ستانلى روزن - S. Rosen في دراسته الضخمة عن هذه المحاورة^(١)، فقد كانت الأحاديث المسابقة كلها - ابتداءً من حديث «أريكسماغوس» و«فايدروس»، وانتهاءً بحديث «أجاثون» - تمهيداً لحديث سقراط عن «الحب»، وهو المسحور الذى تدور حوله المحاورة. وجاء حديثه على صورة حوار بينه وبين «ديوتيميا»، وهى كاهنة من مدينة، مانتينيا Mantinea...، فى منطقة البلبونيز، ويقول سقراط إن الأثينيين يعرفون هذه الكاهنة جيداً، فهى التى استطاعت أن تدفع عنهم مرض الطاعون عشر سنوات كاملة^(٢). ويذهب عالم اللغة المرموق «ولتر كراتس Walther Kranz ... إلى أن «ديوتيميا» تلقت دعوة لمساعدة أثينا فى حمايتها من وباء الطاعون الذى سبق حرب البلبونيز بعشر سنوات. كما يذهب المؤرخ اليونانى «ثيوكديدز .. Thucydides» إلى أن النبوءات قد لجمعت على قرب وقوع ويلات الحرب والمرض. وفى مثل هذه الظروف العصبية لا تستبعد أن تستعد دولة المدينة فى أثينا بكاهنة من مكان آخر لمواجهة هذه المحن. ومن ثم فمن المرجح جداً أن «كاهنة مانتينيا» كانت موجودة فى هذه الفترة (إلى حوالى عام

1 - Stanley Rosen: Plato's symposium, P.197, Yale University 1987.

٢ - أفلاطون: المادية ٢٠٦ - حص.

٤٤٠ ق. م) ، وإنما التقت حينئذ بسقراط الشاب^(١).

وليس ذلك اللقاء غريباً، ولا شاذاً، إذ يروى لنا المؤرخون أن سقراط الذي كان يحبس زوجته في المنزل، ويحتقر عقلها وتفكيرها، كان في الوقت نفسه يسعى للقاء النساء المثقفات يعلمهن أحياناً، ويتعلم منهن في كثير من الحالات، فأفلاطون، وزينوفون، وغيرهما، يرويان أنه كان يسعى إلى إسبازيا رفيقة بركليز التي تحدثنا عنها في الفصل السابق، وهي أيضاً كانت امرأة لجنينية جاءت من مدينة ملطية، واستقرت في أثينا حتى أصبحت رفيقة لأعظم السياسيين في تاريخها، ألا وهو: بركليز...^(٢).

كما أن زينوفون .. Xenophon يروي في مذكراته أنه «عندما سمع سقراط عن امرأة جميلة في المدينة تستقبل الأصدقاء، وأن جمال هذه المرأة يفوق الوصف حتى أن المصورين يذهبون لرسمها - قال لأصحابه: «ينبغي علينا أن نذهب لرؤيتها، إذ لا يمكن أن نفهمها جيداً لمجرد الاستماع لما يرويه الآخرون». وذهب إلى منزل ثيودوتا Theodota ورأها وهي ترسم، وأعجب بجمالها الفتان ... وسألها فيلسوف أثينا الأكبر: من أين لك المال الذي تنفقين؟ أليس لديك ممتلكات: منزل يدر عليك دخل أو عبيد ... إلخ. فأجابته بأنها تعتمد في دخلها على الأصدقاء الكرماء ... إلخ، فراح يناقشها في أساليب الحياة وقيمتها

1- Mary Ellen Waite: A History of Women Philosophers, Vol I, P.108

٢- د. إمام عبد الفتاح إمام؛ «أفلاطون .. والمرأة» ص ٤٠ مكتبة مدبولي بالقاهرة (العدد الأول من سلسلة «الفيلسوف .. والمرأة»).

.. إلخ^(١)، والمهم عندنا الآن أنه إذا كان من الثابت - تاريخياً - أن سقراط بمجرد أن سمع عن «ثيودوتا» الجميلة ذهب للقائها، مع أنها من الغواني أو السراوى، اليس الأقرب إلى المنطق أن يهتم أكثر بلقاء «ديوتيميا» كاهنة مانتينيا إذا سمع عن وجودها في أثينا...؟ ولاسيما وأن لسقراط تاريخاً طويلاً في الإصغاء لصوت الوجدى الشخصى، حتى اشتهر بأن له «شيطاناً خاصاً»، أو «روحاً داخلية ... Daemon، خاصة - يستشير، وكان يعتبره إشارة من السماء. وفضلاً عن ذلك فقد استشار سقراط بالفعل الكثير من الكاهنات. وهذا واضح فيما يرويهِ افلاطون على لسانه في «محاورة الدفاع»: «كان شريفون ... Cha- rerephon صديقى منذ عهد الصبا قد سأل كاهنة دلغى لتنبئه من هو الحكم منى، فأجاب: ليس بين الرجال من يفضلنا حكمة..»^(٢).

وفي محاورة «المأدبة» يأتي الخادم الذى ذهب فى طلب سقراط - ليقول للحاضرين: «إن سقراط واقف فى رواق مجاور غير ملى بالأحد، ولم يستمع لندائى...»^(٣)، كما أنه يصف حديث ديوتيميا - فى المحاورة نفسها - بأنه «حديث يقطر حكمة..»، ويقول لها «لعلك بلغت من الحكمة غايتها...»^(٤)، وعندما تطرح عليه سؤالاً تكون إجابته: «لو كنت أستطيع، يا ديوتيميا، الجواب، ما أعجبت بحكمتك كل هذا الإعجاب،

1- Xenophon: Memorabilia of Socrates Book III, ch XI.

٢ - افلاطون: محاورة الدفاع ٢١ ح - وأنظر أيضاً محاورات افلاطون ترجمة د. زكى نجيب محمود ص ٥١ لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٩٦٦.

٣ - افلاطون: المأدبة ١٧٥ - ١.

٤ - المرجع نفسه ٢٠٨.

وما كنت اتقف منك موقف التلميذ من الأستاذ لاقتبس منك، واتلقى عنك
معرفة الحب...»^(١).

ذلك كله يجعلنا نرجح أن لقاء سقراط و«ديوتيمات» كان حقيقياً،
وليس مجرد قصة اختلقها أفلاطون. لكن ذلك يطرح سؤالاً أسبق: أين
ذلك على أن «ديوتيمات» كانت شخصية حقيقية واقعية وليست مجرد
شخصية وهمية، أو خرافية خلقها أفلاطون بخياله الأدبي، ولا سيما
وأنه كان أديباً موهوباً...؟

١ - المادية ٢٠٦ ب. (وانظر أيضاً الترجمة العربية بقلم وليد الميرى ص ٦٤ نادر
المعارف بالقاهرة).

رابعاً: ديوتيميا ... شخصية خرافية!

عندما جاء دور سقراط للحديث عن الحب في محاضرة «المأدبة»

قال:

«سأروي لكم حديثاً عن الحب سمعته من امرأة من مانتينا ..
Mantinea اسمها «ديوتيميا» وهي صاحبة أعمال جليلة... إلخ»^(١).

فهل كانت هذه المرأة شخصية حقيقية تعلم عنها سقراط «فن الحب» كما يقول، أم أنها شخصية أسطورية خيالية ابتكرها ذهن أفلاطون؟ من الأهمية بمكان أن نجيب عن هذا السؤال، وأن ندور هذه المشكلة قبل أن تعرض لفلسفة «ديوتيميا».

سوف نبداً أولاً بعرض الحجج التي يرى أصحابها أنها تؤيد بقوة القول بأن «ديوتيميا» ليست شخصية تاريخية حقيقية، وإنما هي شخصية خرافية، وهذه الحجج تتلخص في النقاط الآتية:—

١ - ليس من طبيعة أفلاطون الزج بأمرأة لتقوم بدور رئيسي في الحوار، كما فعل مع ديوتيميا في محاضرة «المأدبة».

٢ - لا يمكن أن نأخذ ما يقوله سقراط مأخذ الجد، فهو لم يتعلم شيئاً قط من أية امرأة، والأرجح أن تكون آراء «ديوتيميا» هي نفسها آراء سقراط.

١ - أفلاطون: «المأدبة» ٢٠١ - 1.

٣ - لا بد أن ننظر إلى محاوراة المأدبة على أنها نموذج رائع لمواهب أفلاطون الأدبية بوصفه «روائيًا»، وذلك يعني أن شخصية «ديوتيميا» خلقها أفلاطون الأديب، واختفى وراءها ليقول ما يريد.

٤ - ليس هناك ذكر لشخصية «ديوتيميا» في المصادر القديمة يمكن أن ترجع إليه سوى محاوراة «المأدبة».

٥ - ربما كانت شخصية «ديوتيميا» من خلق سقراط نفسه، أو أن تكون نموذجاً آخر «لتهكم سقراط الشهير»؛ فسقراط عندما يصف «ديوتيميا» بأنها «كاهنة» وصاحبة أعمال جليلة، استطاعت أن تدفع الطاعون عن الأثينيين عشر سنوات^(١) - لم يكن سوى تهكم، أعني أننا لا بد أن نفهم ذلك كله، على أنه ضرب من السخرية، ولون من التسهك السقراطي الشهير. فسقراط المتهكم العظيم كان يؤمن بأراء «ديوتيميا» عندما كان شاباً، ثم تخلى عنها في مرحلة النضج، ومن هنا فقد أراد - بضرب من التهكم - أن ينسب أراءه المبكرة إلى شخصية أخرى!

١ - أفلاطون : المأدبة ٢٠١ - ١.

خامساً: ديوتيميا ... شخصية حقيقية!

الحجج السابقة هي التي يدعم بها أصحاب الفكرة القائلة بأن «ديوتيميا» شخصية خرافية – موقفهم، وينتهون منها إلى نتيجة هامة هي أنه ليس ثمة امرأة بهذا الاسم، وبالتالي فإن ما قيل من آراء في فلسفة الحب إما أنها كانت لسقراط في شبابه، أو هي آراء أفلاطون.

ويذهب الفيلسوف الأفلاطوني أ. تيلور .. A.E. Taylor (١٨ - ١٩٤٥) إلى القول بأن سقراط أراد في الواقع، أن يحول الحديث نفسه إلى جدل أو حوار أو فكر أصيل، بأن يضعه على لسان امرأة أسماها «ديوتيميا» - وهي كاهنة من مانتينيا .. Mantinea - وهو يروى مسار السؤال والجواب الذي دار بينه وبين هذه الكاهنة، وهو الحوار الذي فتحت فيه عينيه ليفهم الأسرار الحقيقية للحب^(١).

ويستطرد «تيلور» ليرد على فكرة «ديوتيميا» «الشخصية الخرافية» التي خلقها خيال أفلاطون الأديب فيقول: «ومن ناحية أخرى، ليس في استطاعتى أن أتفق مع كثير من الباحثين المحدثين الذين ينظرون إلى «ديوتيميا» على أنها شخصية خرافية؛ ذلك لأن إدخال شخصيات خرافية أو أسماء وهمية في المحاورة هو - في رأيي - حيلة أدبية كانت مجهزة تماماً لأفلاطون - كما سبق أن ذكرنا في فصل سابق...»^(٢).

1 - A.E. Taylor: Plato: The Man and His Work Methuen, 1926, P.224.

2 - Ibid.

كانت كاهنة لم فيلسوفة، فهو قول يمكن الرد عليه، ودحضه من أفلاطون نفسه الذي هو مصدر ثقة للمعلومات عن تاريخ سقراط، فهو يبين لنا في كثير من المحاورات أن سقراط كان شخصية متدينة بعمق، وأنه كان صاحب تاريخ طويل في الإصغاء إلى صوت العرافة أو الكهانة. ونحن مرة أخرى نستشهد بتيلور، الذي يقول في هذا السياق: «منذ قدم لنا سقراط قصة صديقه «شريفون» مع كاهنة دلفي كدليل في دفاعه أثناء المحاكمة، ونحن نستطيع أن نزعج أن سقراط لم يكن يمانع قط في استشارة الكاهنات، بل إنه كان يؤمن إيماناً كاملاً بتعاليمهن .. وفضلاً عن ذلك فإن استشارة «شريفون» لكاهنة دلفي، وقعت خلال السنوات العشر التي نزعج أن لقاء سقراط وديوتيميا قد تم فيها.

وفضلاً عن ذلك فإن عادة استشارة سقراط «للمرأة» وأخذ النصيحة من الكاهنة وردت أيضاً في محادثة «مينون» Meno حيث يقول: «ولقد سمعت عن رجال ونساء حكماء متبحرين في الأمور الإلهية. وهم طائفة من الكهنة والكاهنات الذين بذلوا جهوداً مضنية لفهم مبرر Rationale ما يقومون به من سلوك..»^(١). ومن هنا فإن تيلور ينتهي إلى أن «المعلومات التي يزودنا بها أفلاطون عن سقراط لا مبرر أن نأخذها على أنها وقائع تاريخية...»^(٢).

ولقد قام عالم اللغة الألماني «ف. كرانز» W. Kranz، في

1 - Plato : Meno ; 18 - B.

2 - A. E. Taylor : Socrates, Greenwood Press, 1975.

مقالة له عن «ديوتيميا» برسم خط مواز تماما لشخصية «ديوتيميا»
الحديثة عند الشاعر الرومانسي المراهف هلدلين .. Helderlin (١٨٤٣ - ١٧٧٠) فسقراط وهدلرين كلاهما تلميذ يتعلم من أستاذه
الحب والحكمة. والفرق بينهما هو الفرق بين الفيلسوف الماكر الساخر
المقسامح، العجوز الأفطس الأنف، والشاعر القلق الوحيد الرائع في
جماله وشبابه. والفرق بين المعلمين هو كذلك الفرق بين عرافة
وكاهنة تفتي بالقول الفاصل بعد اختلاف الآراء في شأن الحب - ولا بد
أنها كانت عجوز حتى تؤتي هذه الحكمة - وبين شابة هادئة رقيقة
تقيض عيناها وقلبيها بالطيبة، والحنان، والفهم، للشاعر الذي ألفت به
المقادير في طريقها، وشاءت أن يعيش في بيتها، ويروي عطشه الأبدى
من نبعها، ويغرق كذلك آخر الأمر فيه^(١).

١ - د. عبد الغفار مكاوي: «هلدرلين» - نوابغ الفكر الغربي - العدد رقم ٢١ - دار
المعارف بمصر ص ٨٨ - ٨٩.

سادساً: دليل من الآثار

فى المتحف القومى بنابلى صندوق صغير من البرونز وضعت فيه نسخة أثرية من محاوراة المأدبة، وقد نقشت صورة جميلة على غطاء الصندوق، ويصف «أوتو جـان .. Otto Jahn» - أحسد المتخصصين فى النقوش الكلاسيكية القديمة - الزخارف التى نقشت على هذه الصورة على النحو التالى:

«تعبير الصورة عن منظر بسيط ليس فيه سوى مقعد بلا ظهر، جلست عليه امرأة أنتشحت بثوب طويل فضفاض، كما طرحت على جسدها رداء يغطى الجزء الأسفل منه. ووضعت على رأسها تاجاً يشبه الخوذة لا يكشف إلا عن جبهتها. ومن الواضح أن المنظر يصور امرأة منهمكة فى الحديث، وقد استغرق انتباهها كله الموضوع الذى تتحدث فيه. وفى استطاعتنا أن نقول - دون أن نخشى الوقوع فى الخطأ - إن ذهن المرأة كان مستغرقاً تماماً وهى توجه حديثها إلى رجل يقف أمامها.

أما الرجل فهو يقف مرتدياً رداءً بسيطاً يلتف أحد أطرافه حول ثراعه الأيسر، أما الصدر، والكشفين، والذراع الأيمن فهى عارية تماماً، وهو يميل برأسه قليلاً إلى اليمين، وهو جاسر الرأس، عارى القدمين، أظفاس الأنف، وعيناه غائرتان تحت حاجب كث وشفاة غليظة.. إلخ، وبعد أن يقارن «أوتوجان» بين هذا النقش البرونزى، ونقوش أخرى من عصر أفلاطون، وبعد أن يصف شخصية «الإيروس .. Eros» (الحب) الذى يبدو ظاهراً بين الرجل والمرأة يختم حديثه قائلاً:

«لست أشك في أننا هنا أمام سقراط الذي تركزت عيناه وشده انتباهه إلى كلمات «ديوتِيمَا» التي راحت في حديث حي تعلمه طبيعة الحب، أو كما قالت هي نفسها «أسرار الحب». وبينما يستحوذ عليهما هذا «التأمل المقدس» يقترب منهما إله الحب نفسه (الإله إيروس.. Eros)^(١) في رداء كهنوتي يرتديه رجال الدين أثناء تأديتهم للطقوس والشعائر الدينية».

ويقول باحث آخر هو «بولينو منجاتسيني»- Pallno Mangzzi- ni إن صورة الرجل الموجود على هذا النقش هي نفسها صورة سقراط على نحو ما يجسدها تمثالان من القرن الرابع قبل الميلاد. وبمعنى آخر إن الصورة رسمت على غرار تمثال سقراط الذي أبدعه الأثينيون، في حين يجسد إله الحب إيروس Eros على هيئة كائن أسطوري بأجنحة ملاك في مواجهة صورتي سقراط وديوتِيمَا.

وعلى الرغم من أن «منجاتسيني» يقول صراحة إننا لا نعرف - بمعزل عن هذا الدليل - ما إذا كانت هناك شخصية حقيقية اسمها «ديوتِيمَا»، ولا ماذا كانت عليه علاقتها بسقراط، فإنه يستطرد قائلاً:

«... بالنسبة لأولئك الذين قرأوا محاوره «المادية لأفلاطون، فلا شك أن ديوتِيمَا كانت شخصية حقيقية تشبه تلك الصورة المتقوية...».

١ - (الحب الشهواني) هو إله الحب في الأساطير اليونانية ابن إفروديت إلهة الجمال ورئيس إله الحرب - راجع في ذلك بالتفصيل: د. إمام عبد الفتاح إمام «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الأول - مكتبة مدبولي بالقاهرة ص ٣٥٣.

وفضلاً عن ذلك فإننا نراه يزعم أن الصورة الحقيقية لسقراط و«ديوتيماتا» الموجودة على غطاء الصندوق البرونزي، والتي تصور المادية -- لا بد من مقارنتها بالصورة البرونزية الأخرى التي تغطي جانبي الصندوق، والتي يرجع تاريخها إلى حوالي ٣٤٠ - ٣٣٠ ق.م. وأن النقوش المرسومة «للمادية»، ربما كانت نوعاً من تخليد ذكرى الحفل الذي أقامه «إجاثون» -- أو ربما كانت بمناسبة العيد المثوى للقاء سقراط مع «ديوتيماتا» الذي تم عام ٤٤٠ ق.م. ولا سيما وأن ذلك لم يظهر إلا بعد وفاة أفلاطون نفسه بحوالي سبعة عشر عاماً، وعندما تولى ابن أخته «سبيسيبوس» Spesippus رئاسة الأكاديمية. وليس من المستبعد أن تكون شخصية ديوتيماتا شخصية حقيقية، فهي ليست وهمية من صنع الخيال، ولا هي شخصية أسطورية. ومن المؤكد أن أفلاطون كان يعرف ما إذا كانت شخصية حقيقية أم لا. وإذا كان أفلاطون يعرف ذلك، فكيف يمكن أن يخطئ تلاميذه في موضوع شخصية ديوتيماتا، وهي التي لا شك أنهم ناقشوا حديثها، وساعدوا في إعداد هذه النسخة الأثرية من المحاور... ١٩

الواقع أن اكتشاف هذا الصندوق البرونزي يقدم لنا دليلاً أثرياً هاماً يدعم بقوة القول بوجود «ديوتيماتا»، وإنها شخصية حقيقية، وفضلاً عن ذلك كله فلدينا شهادة مكتوبة تعرض لها فيما يلي^(١).

١ - قارن أيضاً كتاب ماري إلين ويث سالف الذكر من ١٩٥٥.

سابعاً: شهادة مكتوبة

لم يرد ذكر لاسم «ديوتيسما» لمدة خمسة قرون، لا في مسرحية، ولا في أى عمل أدبى، ولا في كتاب من كتب التاريخ، أو موسوعة أو كتابات فلسفية، فتعاليمها، وفلسفتها، في «الحب الشهوانى» لا تذكر إلا في محاوراة أفلاطون الشهيرة «المادية».

ثم بدأت تظهر من جديد فى القرن الثاى الميلادى مع شخصيات نسائية أخرى مثل «ثارجليا.. Thargelia»، و«إسبازيا.. Aespa-sia» فى مسرحية كوميدية للكاتب اليونانى «لوسيان .. Lucian» عنوانها «الخصى .. The Eunuch» تبدأ بتقرير حقيقة واقعية عن «ديوتيسما.. Diotima» و«ثارجليا.. Thargelia» وإسبازيا.. Aes-pasia» عندما يستشهد بهن الكاتب على أن المرأة يمكن أن تكون فيلسوفة. فهؤلاء «نساء فلاسفة فى العالم القديم». والواقع أن الكاتب يذكرهن فى سياق التماس يتقدم به «الخصى» إلى «ديوقليس .. Diocles»، ليسمح له أن يخال وظيفة رسمية كمعلم للفلسفة، وكان ينظر فى ذلك الوقت إلى «الخصى» على أنه «مخنث»، أعنى أنه ليس رجلاً على الأصالة، بل هو أقرب إلى النساء ومن هذا المنطلق كان التماس «الخصى» العمل فى حقل الفلسفة. فإذا كان من الثابت، تاريخياً، أن هناك نساء فلاسفة، عُرِفَ عنهن الاشتغال بالفلسفة وتدريسها، لا فقط إنهن كن تلميذات يدرسن الفلسفة عند هذا الفيلسوف أو ذاك - إنَّ صحَّ - ذلك كله، كان من حق «الخصى» وهو «الرجل - المرأة» أن يحظى بالموافقة على أن يكون مُعلِّماً للفلسفة، وأن يُسمع له بتشكيل

مجموعة من التلاميذ يدرسون على يديه. وها هنا نراه يحتج مشيراً إلى ثلاثة من النساء الفلاسفة هن: «إسبازيا»، و«ديوتيميا»، و«ثارجليا»؛ وربما كان الكاتب يريد أن يسخر من «الخصى» و«من النساء... الفلاسفة» على حد سواء؛ ربما أراد أن يقول إن النساء الفلاسفة أشبه «بالخصى» الذى يحمل صفات الأنثى، ويريد أن يتشبه بالرجال فيقوم بتدريس الفلسفة .. لكن ذلك ليس هو ما حدث، بل على العكس، إن المحور الأساسى للحجة يدور حول ما إذا كان «الخصى» يمكن أن يعد معلماً مناسباً للفلمان فى سن الحلم...؟! فليس ثمة سوى الإشارة إلى أن «ديوتيميا» و«ثارجليا».. Thargelia و«إسبازيا» كن فلاسفة يمارسن التفلسف بالفعل، وليس هناك بالنسبة لديوتيميا - بصفة خاصة - سوى الإشارة إلى أنها كاهنة فيلسوفة ماتت منذ مدة طويلة^(١)!!

وهناك كتاب آخر من فى القرن الثانى الميلادى، أشاروا إلى «ديوتيميا» إشارات مباشرة دون إثارة أدنى شك فى وجودها التاريخى وفى شخصيتها الحقيقية. فأرستديز .. Aristides يشير إلى «ديوتيميا» فى خطبه .. Orations، وكذلك فعّل أحد الشراح فى رسائله إلى أريستديز^(٢).

* كما أشار إليها فى القرن الثانى الميلادى أيضاً «ماكسيموس».. Maximus الصورى (من مدينة صور Tyre على الساحل الجنوبى

1 - Mary Ellen Waithe: Op. Cit. Vol. 1, P.105.

2 - Mary Ellen Waithe, P.106.

الليبانى) حوالى عام ١٢٥ - ١٨٥ ميلادية الذى ذكر ديوتيميا ثلاث مرات.

* وفى استطاعتنا أيضاً أن نشير إلى كلمنت السكندرى (١٥٠ - ٢٢٣) الذى عاش فى أواخر القرن الثانى، وأوائل الثالث الميلادى، والذى يذكر «ديوتيميا» أيضاً فى مؤلفاته.

* وفى النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى نجد Themistius (٣١٧ - ٣٨٨) السياسى اليونانى، أو شارح مؤلفات أرسطو - يذكر «ديوتيميا» على أنها معلمة سقراط.

* بل إننا نجد بريقس .. Proclus آخر فلاسفة الأفلاطونية المحدثة (٤١٠-٤٨٥) فى نهاية القرن الخامس الميلادى - يشير ثلاث مرات إلى «ديوتيميا»، ويقول إنه يعتقد أنها شخصية حقيقية كانت موجودة فى عصر أفلاطون، وأنها ليست مجرد شخصية خيالية.

وهكذا نجد أنه انقضى تسعة عشر قرناً، منذ عصر أفلاطون، أى منذ التاريخ الذى كُتبت فيه محاوره «المأدبة» حوالى عام ٣٨٨ ق.م. حتى عام ١٤٨٥، عندما نشر الفيلسوف الإيطالى «مارسيليو فيسينو» .. Marcilio Ficino^(١) «خطبه» لانهجس فكرة واحسده تقسول إن «ديوتيميا» .. Diotima لم تكن شخصية حقيقية، وأنها التقت بسقراط،

١ - فيلسوف إيطالى (١٤٣٣ - ١٤٩٩) عرف على أنه أفلاطونى. كلفه «كوزيمو دى مديتشى» بترجمة أعمال أفلاطون إلى اللاتينية، وكذلك أعمال بعض فلاسفة الأفلاطونية المحدثة.

ودار بينهما حرار شهير هو الذى سجله أفلاطون فى محاوره «المأدبة». وهكذا ظلت «ديوتيميا» لمدة تسعة عشر قرناً - كما يؤكد الباحثون، والفلاسفة، وأدلة الآثار - شخصية حقيقية لها وجود تاريخى. وربما جاءت ملاحظة الفيلسوف الإيطالى «فسينو» من حكم سابق كان فى ذهنه، وربما مصدره العادات والتقاليد السائدة، فحواه: أن من العيب الحديث، أو حتى مجرد التفكير فى وجود «نساء .. فلاسفة»، أو أنه يصعب جداً أن نتصور أن تكون هناك «إمراة .. فيلسوفة»، وكان الكلمتين متناقضتان لا يلتقيان فى عبارة واحدة لنصف به موجود إنسانى!

ولقد كان هذا الحكم المسبق هو القاعدة التى اعتمدت عليها القرون الخمسة التالية، إذ بدأت تروج الفكرة التى تقول إن «ديوتيميا» شخصية خلقها خيال أفلاطون الأديب، وإنها ليست سوى دليل على براعة هذا الفيلسوف وقدرته الأدبية؛ دون أن يكلفوا أنفسهم عبء الرد على الأدلة التى تحدثنا عنها فيما سبق، ولا سيما الدليل المستمد من الآثار^(١).

1- Mary Ellen Waihe: A History of Women Philosophers, Vol. 1, P.106-108 Kluwer Academic Publishers.1992.

ثامناً: نظريات ديوتيميا ...

١ - طبيعة الحب:

تذهب «ديوتيميا» فيما يروى «سقراط» - إلى أن للحب طبيعة خاصة تتصف بما يمكن أن نسميه «بالوسطية»، فلا هو جميل ولا هو قبيح، ولا هو خير ولا هو شر، بل هو وسط بين هذا وذاك، فكما أنه ثمة حالة للعقل بين الحكمة والجهل، وهي أن يكون للمرء معتقدات صحيحة لكنه لا يستطيع البرهنة على صحتها، فكذلك ليس الحب جميلاً ولا خيراً، وليس بقبيح ولا شريع، لكنه «بين بين»، كما أنه بين الكائن الفاني والموجود الأزلي، وهو نصف إله ونصف إنسان، إنه رسول الآلهة إلى الناس، ومبعوث الناس إلى الآلهة، يرفع إلى الآلهة صلوات الناس، ودعاءهم، وضحاياهم، وقرابينهم، وينقل إلى الناس من الآلهة الأوامر والنواهي، والثواب، والعزاء، ولما كان ذا طبيعة مشتركة فهو يستطيع أن يعبر البرزخ الذي يفصل دنيا الناس عن عالم الآلهة. وبذلك لا ينقسم الكون إلى قسمين منفصلين تمام الانفصال^(١).

٢ - مولد الحب:

وتذهب «ديوتيميا» إلى أن الخصائص المتناقضة في طبيعة الحب:

١ - أفلاطون: المائدة ٢٠٢ ج - (انظر أيضاً الترجمة العربية للدكتور ولیم الميری - دار المعارف بمصر ص ٦٠).

كالتجمع بين الوجود المافى والوجود الأزلّى، والجمال والقيح، والخير والشر، والحكمة والجهل، ترجع فى النهاية إلى مولده. وهى تروى فى تفسير ذلك القصة الآتية:-

أرادت الآلهة أن تحتفل بميلاد إلهة الجمال والجنس «أفروديت Aphrodite..» - فأقام كبير الآلهة «زيوس Zeus..» وليمة كبيرة حضرها: «بوروس Poros ..» إله الغنى. وبعد العشاء تسلسلت: بنيا .. Penia «الحاجة أو الفقر» إلى تلك الوليمة تستجدى شيئاً، ووقفت بجوار الباب، وكان «بوروس» - إله الغنى والشراء - قد سكر لفرط ما شرب من الخمر الإلهية، فخرج إلى صديقه «زيوس»، وغلبه النعاس فنام تحت شجرة، وفكرت «بنيا» فى أن تخفى بعض ما تعانى من يؤس وشقاء بأن تحمل طفلاً من «الغنى»، فضاغته وحملت «بالحب»! فالحب، إذن، حُمِلَ به فى الاحتفال بمولد أفروديت إلهة الجمال، ولذلك تجد فيه شوقاً عارماً إلى الجمال. ولما كان أبوه «الغنى»، وأمه «الفقر»، كان الحب يحمل هذه الخصائص المتناقضة^(١)، فهو فقير معدم، يرقد على الأرض، وفى الأزقة والحصارات، والطرقات... إلخ. ذلك ما ورثه عن أمه. لكنه من ناحية أخرى، يسعى دائماً إلى الخير والجمال؛ جسور، مستقام، يطلب الحكمة ويسعى إلى العلا؛ وهذا ما ورثه عن أبيه. فليس بدعاً أن ترى رجلاً فقيراً يحب امرأة غنية أو العكس، فتلك هى خصال

١ - المرجع نفسه ٢٠٢ ب، وانظر أيضاً: د. إمام عبد الفتاح إمام «الحب ... أنواع» فى كتابه «أفكار .. ومواقف» ص ٢١٣ - مكتبة مدبولى بالقاهرة.

الحب: إنه مركب من الغنى والفقر، من الجهل والحكمة، من القوة والضعف، من «بنيا» و«بوروس»^(١)!!

والحب أيضاً هو حب الحكمة؛ لأن الحكمة شيء جميل، فالحب هو حب الجميل؛ لأنه حمل به في الاحتفال بمولد «أفروديت» فتولد فيه شوق عارم إلى الجمال، ولكن لما كان حباً للحكمة، فإن ذلك يعني أنه لا هو حكيم، ولا هو جاهل، بل هو وسط بين الحكمة والجهل. وتلك نتيجة أخرى ترتبت على مولده فأبوه حكيم حاذق (الفن والثناء) وأمه جاهلة عاجزة (العوز والفقر والحاجة)!

٣ - ما يؤديه الحب للناس:

ترى «ديوتيمات» أن الحب هو حب الجمال، تبعاً لمولده - كما سبق أن ذكرنا - وفقاً لطبيعته، فإذا تساءلتا؛ ومع يتألف الجمال...؟ أو ما هي غاية الحب التي يسعى إليها محب الجمال...؟ كما أجابت ديوتيمات؛ غايته امتلاك الأشياء الجميلة. فإذا عدنا نتساءل؛ وهم ينتفع من يمتلك الجمال؟ كانت الإجابة هي طرح سؤال آخر؛ وما الذي يحققه من يحصل على الخير؟ فالحال مع الجمال هي نفسها حال الخير. والإجابة في الحالتين واحدة؛ إنه يحقق لنفسه السعادة، فالسعادة هي في امتلاك الخير، وقل نفس الشيء في امتلاك الجمال، فالسعادة هي الغاية في الحالتين، ولا يمكن لنا أن نتساءل لم يريد أن يكون المرء سعيداً...؟

١ - د. إمام عبد الفتاح إمام «افكار... ومواقف» ص ٢١٤. مكتبة مدبولي بالقاهرة.

ذلك لأن السعادة هي الغاية النهائية لكل فعل بشري، وهي الهدف الأقصى لكل سلوك إنساني.

٤ - الحب ... أنواع!

لكن : هل يرغب الناس جميعاً في امتلاك الخير؟ وهل الحب عام بين جميع الناس...؟ وإن صح ذلك: فلم تجسد بعض الناس بحب، وبعضهم الآخر لا يحب؟

تري «ديوتيسما» أننا - في العادة - نقتطع «نوعاً» من الحب ونطلق عليه اسم «الحب»، في حين أن كلمة «الحب» تطلق على جنس، أو نوع أعم واشمل من هذا الاستخدام الضيق. وربما أطلقنا أسماء مختلفة على أنواع الحب الأولى. وبمعنى آخر «الحب» اسم جنس يطلق على كل رغبة في الخير والسعادة. وتلك هي حقيقة الحب القوي الغلاب. ولكن تلك الرغبة تعبر عن نفسها بوسائل مختلفة، فعند بعض الناس تتجه «الرغبة» نحو حب المال، وعند البعض الآخر تتجه نحو حب القوة البدنية، وعند فريق ثالث نحو حب «الحكمة»، لكننا عادة، لا نقول عن هؤلاء أنهم «محبون» لأننا نقصر صنع الحب على من تتجه عواطفهم اتجاهاً معيناً فنسميهم محبين.

٥ - كيف يعبر الناس عن الحب؟

فرغنا من تعريف الحب وبيان طبيعته، وعلينا الآن أن نبحث: كيف يفصح الناس عن رغبتهم في الامتلاك الدائم للخير، إذا سلمنا بأن

الناس جميعاً يحبون الخير، ويهتفون دائماً إلى امتلاكه.

١- ولادة ما هو جميل:

تذهب «ديوتيميا» إلى أن الولادة على نوعين، فهي قد تكون بالجسد كما تكون عن طريق الروح. فعندما يصل الإنسان إلى مرحلة النضج، فإنه يشعر بالرغبة الطبيعية للولادة، ولكنه لا يستطيع ذلك إلا عن طريق الجمال لا القبح، فثمة شئ إلهي في تلك العملية، ففي الحمل والولادة يصيب المخلوق الغساني حفظاً من الخلود. ولا يمكن أن تتم العملية في غير انسجام. ولا يتفق القبح مع ما هو إلهي، في حين ينسجم معه الجمال، ولذلك كانت إلهة الجمال هي الآلهة التي ترمي الولادة. وعندما يشعر المرء بالآلم الوضع، فإنه يتعلق بالجمال، ويحس بالسكينة، ويشعر بالاسترخاء اللذيذ، وذلك كله ييسر الولادة ويسهلها. أما القبح والدماصة فإنهما يحدثان نقيض ذلك؛ إذ ينقبض المرء، وينطوي على نفسه متألماً قانطاً، وتتعسر ولادته، ويتحمل آلام الحمل، ولا يضع مولوده. وهكذا نجد أن المرء حين يكون حاملاً، وإذا جاءه المخاض، فإنه يجذب بقوة نحو الجمال، لأن الجمال يعينه على تحمل آلام المخاض^(١).

وقد يشعر القارئ بصعوبة في متابعة هذه الفكرة التي تعرضها ديوتيميا على سقراط، وعلاقتها بالتعبير عن الحب. لكن الفكرة ليست على هذه الدرجة من الصعوبة. فالحب الجنسي الذي يتجه نحو المرأة

١ - أفلاطون : المادبة ٢٠٦ ج - (وانظر ترجمة وأيم الميرى ص ٦٤ - ٦٥) .

يهدف إلى ولادة نسل جديد يكرر الرجل. أما حب الأفكار فهو يستهدف ولادة روحية هي إعطاء أفكار جديدة، وهذه قد تكون عند الرجل، «فالحمل» هنا حمل فكري يقدم لنا تسلاً فكرياً. ولكن «الولادة» هي التعبير عن الحب في الحالتين. ولم تكون الولادة هي غاية الحب؟ الجواب هو أن الولادة هي التي تؤدي إلى الخلود الذي يسعى إليه الموجود الفاني، فسواء كانت ولادة جسدية لنسل بشري جديد أم ولادة روحية لأفكار جديدة فهي في الحالتين تسعى إلى الخلود: خلود الإنسان عن طريق أولاده، أو خلوده عن طريق أفكاره، ولما كان الحب هو الامتلاك الدائم للخير كما قدمنا، فلا بد أن يرغب في الخلود رغبته في الخير. ويلزم عن ذلك أن يكون الحب هو حب الخلود كما هو حب الخير. وهذا تعبير آخر عن الحب، أو صورة أخرى من صورته الكثيرة.

ب - علة الحب والرغبة :

تذهب «ديوتيماس» إلى أن ما يحدث للحيوان جدير بالتدبر والإمعان، فالحيوانات جميعاً من طير ووحوش ودواب... إلخ، عندما تمتلكها الرغبة في التناسل، تقع فريسة لمرض الحب للاتصال بعضها ببعض، وتسعى بعد ذلك لتوفير الغذاء لصغارها، وفي سبيل هذين الهدفين نجدها تتقاتل، وتتصارع حتى الموت، وتعاني ما تعاني من جوع وآلم. كل هذا من أجل حفظ النسل وامتداد الجنس. وربما قلنا إن «العقل» هو الذي يدفع البشر إلى مثل هذا السلوك، ولكن ذلك تفسير خاطئ، فما يصدق عن الحيوان يصدق كذلك على الإنسان، فطبيعة الفاني أنه ينشد البقاء والخلود، وسجله إلى ذلك الولادة والتناسل، فالولادة هي التي تحل فرداً مولوداً محل فرد ميت. وهكذا يظل الفرد

يخلق كائنًا جديدًا، يكون امتدادًا له ، تمامًا مثلما يفقد خلايا من جسمه ويجدد خلايا أخرى، وتمتد عمليات التجديد هذه إلى شعره، ولحمه، وعظمه، ودمه، أعني إلى جسده كله، وهي كذلك تمتد إلى روحه أيضًا؛ فشخصية الفرد لا تثبت على حال واحد، كما أن عاداته لا تتجمد على وتيرة واحدة، ولا رغباته، ولا مسراته وآلامه ومخاوفه وآماله — فلا شيء يثبت من ذلك قط على ما هو عليه، بل هناك جديد باستمرار، وهناك مرونة، والجديد منها لا يزال يخلق القديم.

جـ — المعرفة:

وتقول «ديوتيام» إن ما يحدث لأجزاء المعرفة جدير بالملاحظة: فلا شيء من المعرفة يختفى تمامًا، كما أننا لا نحتفظ بهويقتنا فيما يتصل بالمعرفة أكثر مما نحتفظ بها في الأمور الأخرى، بل إن كل جزء من أجزاء المعرفة يخضع لعملية التغير والتبديل التي يخضع لها الجسم؛ وعملية التذكر نفسها تنطوي على معنى انفصال المعرفة عنها، فالنسيان هو إفلات المعرفة، والتذكر هو الاحتفاظ بها عن طريق إحلال فكرة جديدة محل الفكرة التي فقدت، وهكذا ترانا نخلع على المعرفة هوية وهمية متصلة. وهكذا يتحقق للموجودات الفنية البقاء والخلود. فهي ليست كموجودات خالدة على نحو ما هي عليه، فذلك مقصور على الآلهة وحدهم، بل بعملية تعويض ما يخسر الجنس من أفراد بأفراد آخرين.

د — السعى نحو الخلود:

الكائن الفاني يريد، إذن، أن يحقق لنفسه البقاء والخلود عن طريق النسل الجديد، فهو في ذاته لا يستطيع أن يكون خالدًا، فهو ليس إلهًا ذا

وجود دائم، بل هو موجود فإن؛ يقوم بتعويض ما يخسر، فإن خسر جسده كله كرره في نسله، وعلى هذا النحو يستطيع الفانون المشاركة في الخلود بطريقتهم الخاصة. وكل كائن حي يحفظ نفسه بالطبيعة على هذا النحو. ومن هنا كان السبب الذي يجعل الفرد مشغولاً بالحب لكي يحقق لنفسه النجاة والخلود. إن حب الشهرة والمجد يؤثر في الناس تأثيراً قوياً، لكن حب الخلود شيء مختلف؛ لأنه يعرفهم نحوه حتى أنهم لا يابهنون بالأخطار المحيطة بهم، بل إنهم يضحون بحياتهم إذا دعت الضرورة. إكبان يمكن له «إلكستيس»^(١) أن تموت في سبيل زوجها «ادميتوس».. Admetus ملك تساليا، أو يقدم أخيل على الموت في سبيل صديقه^(٢) «كودروس».. Kodros ملك «أتيكا» لينقذ

١ - ألكستيس .. Alkestis : زوجة ادميتوس .. Admetus ملك تساليا الذي أصيب بمرض عضال، وتمنى على الآلهة أن تمتح الخلود، وتبعد عنه شبح الموت. فاجابته الآلهة إلى طلبه بشرط أن يأتي به بديل من أهل بيته يموت نيابة عنه إذا حضرته الوفاة. وهذا تقدمت زوجته المخلصة «إلكستيس» فضحت بنفسها لكي ينجو زوجها من الموت. وهكذا عاشت الزوجة الوفية، فداء لزوجها الملك؛ وعندما مرهق بتمساليا وجد الملك يبكي زوجته المخلصة، ووجد شعبه من حوله يبكي هذه الزوجة، فهبط البطل إلى ظلمات الدار الأخيرة، وصارع حارسها الجبار، وعاد بالمرأة المخلصة إلى زوجها، فسعدت الملكة بأسرها، قارن أيضاً استشهاده فأيدرس بهذه الأسطورة في بداية محاضرة «المادة» ١٧٩ جـ. وأنظر: د. إمام عبد الفتاح إمام «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الأول ص ٦٥ - ٦٦ مكتبة مديولى القاهرة.

٢ - أخيل .. Achilles : بطل ونصف إله في أساطير اليونان - كان قوياً لدرجة جعلته يقتل الأسود والتمور. ويصطاد الأيل بلا شيك؛ وأخيل في الإلياذة هو البطل العظيم في حرب طروادة الذي تفوق في سلسلة من المعارك، غضب من

بإلادته من غزو الدوريين^(١)، وليحفظ ملكه لأبنائه، أكان يمكن لهؤلاء جميعاً أن يموتوا لولا يقينهم من خلود ذكراهم...؟ كلا إن الرغبة في المجد هي التي تدفع الإنسان إلى العمل الغد، وكلما ارتقى الإنسان ازداد حبه للخلود. أما أولئك الذين تتجه غريزتهم للخلافة اتجاهها جنسياً، فإنهم يجعلون همهم النساء، ويكون حبيبهم جنسياً محضاً، فتراهم يحسبون أنهم يضمنون لأنفسهم الخلود بإنجاب الأطفال. ولكن هناك غيرهم تكون ميولهم للخلافة روحية، ويحملون بالروح لا بالجسد، فينتجون ذرية روحية كالحكمة والفضيلة وما إلى ذلك. ولعل أفضل وأشرف فروع الحكمة هو الذي يتناول تنظيم الدولة والأسرة وهو: الاعتدال والعقل^(٢).

ومن ينجب ذرية روحية يكون أشد سعادة؛ لأن أطفاله (الأفكار في هذه الحالة) يمتازون عن أطفال البشر، فهم خالدون، ويفوقون جمال

«لجامعون» قائد الحملة عندما استولى على محظيته واعتزل في خيمته بعيداً عن الحرب، لكن - عندما بلغه نبأ مقتل صديقه باتروكلوس... Patroclus في القتال انتابته ذوبة جنونية، فأسرع إلى إصلاح ذات البين بينه وبين لجامعون. وخرج في اليوم التالي لقتال الطروانيين، ويصرع بطلهم الأكبر هكتور... Hector. لكن باريس Paris تمكن من قتل أخيل بمساعدة الإله أبوللو. راجع القصة بالتفصيل د. إمام عبد الفتاح إمام «معجم ديانات وإساطير العالم»، المجلد الأول، مكتبة مدبولي بالقاهرة، ص ٣٧ وما بعدها.

١ - كودروس... Kodros. آخر ملوك أثينا في الأساطير اليونانية، ضحى بحياته، بسبب النبوة التي وعدت الأثينيين بالنصر والخلاص من غزو الدوريين إذا قتل الملك على أيدي أعدائه. فكانت تضحية الملك لإنقاذ البلاد، وللاحتفاظ بالعرش لأبنائه من بعده.

أطفال البشر، ولا شك أن الناس يفضلون هؤلاء الأطفال على الأطفال الذين هم من لحم ودم. من أطفال «كالابان» ، و«الأديسة» ، و«أنساب الآلهة» و«الأعمال والأيام» . إلخ؟ هؤلاء هم الأطفال الذين حققوا لأبائهم شهرة، ومجدًا، وخلودًا، حتى ظفر بعضهم بعبادة البشر لهم، بسبب ما تركوه من أطفال رحيين، وذلك أمر لم يحدث لإنسان قط بسبب أطفاله من لحمه ودمه.

٦ - مدارج الروح فى طريق الخلود:

ترى «ديوتيم» أن الرجل الذى يريد أن يتبع الطريق المستقيم إلى هدفه السامى، ألا وهو الخلود، عليه أن يأخذ نفسه من الصغر بتأمل الجمال الإنسانى، فإذا ما أحسن المرشد إرشاده وجهه أولاً إلى حب فتى جميل، ثم إلى إدراك أن الجمال المادى فى شخص هو نفسه الجمال المادى فى شخص آخر، وأنه إذا كان ينشد الجمال الظاهرى، فمن العبث ألا يعترف أن الجمال الذى يتجلى فى جميع الأجسام إنما هو جمال واحد، ومن هنا فإن عليه أن يوجه حبه إلى الجمال بصفة عامة، بحيث يضعف حبه لشخص بعينه، لأنه يدرك أن هذه عاطفة أقل أهمية، وأن عليه أن يتجاوزها إلى مرحلة أخرى، وهكذا يرقى إلى مستوى أعلى، إلى أن يصل إلى المرحلة التى يقدر فيها جمال الروح أكثر من تقديره لجمال الجسد. فلو أنه وجد نفسه نبهة فاضلة فى جسم ليس له نصيب من الجمال لرضى بحبها، والإخلاص لها، فيأتى بالأفكار التى تعمل على التهنيد. وتلك هى المرحلة التى يجد نفسه فيها يتأمل الجمال الذى يتبدى فى الأعمال والنظم المختلفة، ويتضح له

آخر الأمر أن الجمال فيها مرتبط ببعضه ببعض، فيظهر عندئذ حقارة الجمال المادي، وضالّة شأنه، إذا ما قورن بجمال الروح. ومن الأخلاق ينتهي إلى العلوم فيتأمل جمالها، وبذلك يحصر نظره في الجمال بمعناه الواسع، فلا تستعبده عاطفة حقيرة أو نموذج قردى للجمال، سواء أكان موضوع حبه فتى، أو رجلاً أو عملاً من الأعمال، أو نظاماً ما من الأنظمة، وهو أن يحدث في محيط الجمال الذي اتجه إليه بصره الآن، ثم يأتي بسبب حبه الغياض للحكمة بعواطف وأفكار نبيلة جليلة، وإذا ما قوى بفضل هذه التجسّرية يرنو بهبصره إلى العلم الوحيد، وموضوعه الجمال.

٧ - غاية الحب:

وترى «ديوتيماس» أن من يتعلم «أسرار الحب» على هذا النحو، ويرقى في هذا الطريق حتى نهايته، سوف ينكشف له في نهايته جمال رائع هو الغاية من جميع المراحل السابقة. هذا الجمال هو أولاً وقبل كل شيء جمال خالد، وهو ثانياً ليس جميلاً في جانب وقبحاً في جانب آخر، ولا في أن، ثم يتغير في أن تال، ولا باختلاف الظروف والأحوال... إلخ، بل هو جمال مطلق لا يوجد إلا بذاته.

وعندما يبدأ المرء من العالم الحسى مستعيناً بجمال الغلمان، ثم يلمح هذا الجمال المطلق، إنما يكون قريباً من غايته. وهذا هو الطريق القديم في الاقتراب من أسرار الحب الذي يسير فيه المرء عندما يبدأ بنماذج الجمال في هذا العالم، ويجعلها درجات يرقى بها جاعلاً غايته ذلك الجمال الأسمى المطلق من نموذج الجمال الحسى، ثم من أكثر من

نموذج، ثم إدراك الخيط المشترك بين كل ألوان الجمال الحسى، ثم يرقى من الجمال الحسى إلى الجمال الخلقى، ومن الجمال الخلقى إلى جمال المعرفة، ومن المعرفة بفروعها المختلفة، إلى المعرفة المطلقة التى يكون موضوعها الوحيد الجمال المطلق. وهكذا يعرف آخر الأمر ماهية الجمال المطلق.

ها هنا - فى هذا المكان وبجوار الجمال المطلق - ينبغى أن ينفق المرء عمره فى تأمل هذا الجمال المطلق، وعندئذ لن يهتم بذهب ولا فضة، ولا ثياب أو غلمان... إلخ، فهو يطالع ماهية ظاهرة بلا دنس، نقية لا تشوبها شائبة، ومن يحصل إلى هنا يستطيع أن يدرك الجمال

٢ - المأدبة: ١٢١١ - ب.

١ - تذكرنا فكرة «ديوتيماء» هنا بالفكرة الصوفية الإسلامية، حيث يذهب المتصوفة إلى أن غاية الحب فى النهاية هى مشاهدة الجمال الإلهى الأزلئ. فارت ما تقوله رابعة العدوية «لا تحرمنى يا إلهى من جمالك الأزلئ .. اجعل الجنة لأحبائك، والنار لأعدائك، أما أنا فحسبى انت»! فالغاية فى النهاية أن نصل إلى مشاهدة الجمال الإلهى الأزلئ وننظر إليه، ونراه بملء العين اعتماداً على الآية الكريمة «وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة» (٢٣-القيامة)، وانظر «الحب .. أنواع»، د. إمام عبد الفتاح

تاسعاً : فلسفة ديوتيماتا ... وفلسفة أفلاطون:

قد يعترض معترض على حديثنا السابق متسائلاً: ولم لا تكون جميع النظريات التي عرضت لها، وأطلقت عليها اسم «نظريات ديوتيماتا» هي نفسها نظريات أفلاطون؟ اليس من الممكن أن يكون أفلاطون قد عرض فلسفته على لسان «ديوتيماتا»، كما يعرضها أحياناً على لسان سقراط؟

والجواب -- باختصار شديد -- هو: أن هذه النظريات تختلف بوضوح، بل تتعارض أحياناً مع نظريات أفلاطون. غير أن هذه الإجابة تحتاج إلى شرح وتفسير.

١ - الخير ... والجمال:

ربما كان هناك تشابه ظاهري منذ البداية بين فكرة أفلاطون وفكرة ديوتيماتا عن الخير، فإذا كانت السعادة عند «ديوتيماتا» هي في امتلاك الخير، فإن تصورهما للخير يختلف عن تصور أفلاطون اختلافاً تاماً؛ ذلك لأن الخير عندهما هو خير شخصي أو ذاتي، أو قل إنه خير أناني أو خير المرء لنفسه، ونحن نتعرف عليه على أنه محاولة لاكتساب الخلود عن طريق إنجاب المرء لنفسه من خلال فكرة الجميل. كما أن فكرة الجميل ليست هي المثال الأفلاطوني للجمال، بل هي فكرة على مستوى الظواهر فحسب لا على مستوى المثل الأنطونية.

وهكذا نستطيع أن نقول إن «الجمال المطلق» عند ديوتيماتا لا

يتحد مع مثال الخير على نحو ما وصفه أفلاطون في الجمهورية^(١)،
وفضلاً عن ذلك فإن لغة ديوتيميا في وصفها للجمال «إيلية» بشكل
واضح. ويقول ستانلي روزن:

«ليس الخير عند ديوتيميا مثلاً من المثل الأفلاطونية. وكذلك
تصورها للجمال ليس هو نفسه تصور أفلاطون لمثال الجمال... إن
وصف ديوتيميا للجمال لا يفترض سلفاً نظرية المثل. لكن يمكن أن
يفهم كجزء من الأعداد أو التطوير اللاحق على يد سقراط...»^(٢)،
ويقول «... لا شيء في وصف ديوتيميا للجمال في ذاته يرجعه إلى عالم
منفصل أتم الانفصال عن مظاهر عند الإنسان، فانفصال الجمال هو
صورة قريفة لا يمكن رؤيتها في شيء آخر إلا بفضل تلك الأمثلة الكامنة
فيه: فحتى لو صح وأن أفلاطون كان قد انتهى من نظريته عن المثل،
عندما كتب المادبة، فإن هذه النظرية مستبعدة تماماً عن حديث
المادبة»^(٣).

٢ - تصور «ديوتيميا» للخلود:

تستطيع النفس في محاوراة المادبة أن تصل إلى الخلود -
بالمعنى الميتافيزيقي - بواسطة عملية التوالد أو الإنجاب .. بأن تترك

١ - أفلاطون : محاوراة الجمهورية (٤٧٢ - ٤٧٨) .

2- Stanley Rosen: Plato's Symposium P. 270 Yale University Press, 1987

3- Ibid. p277

اسماً أو سمعة تجعلها باقية...^(١).

لكن كيف يمكن للمرء أن يحقق ذلك؟ لو أن المرء أراد أن يترك أكثر من اسم أو سمعة، لو أنه أراد أن يلد «أفكاراً»، وأن يؤثر في الآخرين، فلا بد له أن يعرف نفسه أولاً، كخطوة أولى، أن يعرف من هو؟ فما نوع الهوية الذاتية التي تأخذ بها «ديوتيميا»...؟

أ- الخلود ... والهوية الشخصية:

إن هدف «ديوتيميا» في روايتها للحب هو تحليل ما الذي يبقى من الوجود البشري على مر الزمان، وعندها أنه لا يبقى من الشخص سوى صفاته؛ ذلك لأنها تذهب إلى أن الوجود المتصل المستمر للكائن الحي يعني أن تحل صفات أخرى تشبهه محل ما قد فنى من صفات... وعلى هذا النحو نستطيع أن نقول إننا خالدون في أبنائنا، وفيما ننسله من أفكار. وتلك فكرة أساسية من الهوية، الشخصية عندها. وهي تختلف أتم الاختلاف عن التصور الذي قدمه أفلاطون في محاوره القبياس الأولى (١٢٩ ب - ١٣٠ ج) التي يذهب فيها إلى أن هناك شيئاً أساسياً هو «أنا»، أعني كياناً يقف خلف جميع الصفات والكيفيات القابلة للتغير. فالنفس هنا جوهر قائم بذاته قابض خلف جميع التغيرات الجزيئية، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نفهم لم كنت «أنا» الآن نفس الشخصية التي كنتها في الصغر، أو عندما كنت طفلاً، في الوقت الذي أكون فيه مع كل صفة أو كيف. إذ أستطيع أن أتعرف فيها على نفسي، ومن ثم فإنني عندما أصبح شايًا، فإنني لا أصبح شخصاً مختلفاً عن

3 - Quoted by: Mary Ellen Waithe Op. Cit. P.86.

ذاتى عندما كنت صغيراً بنفس الدرجة التى أكون بها شخصاً مختلفاً عن شقيقى مثلاً، صحيح أن لى الآن شخصية تختلف عن شخصيتى عندما كنت طفلاً، غير أن هذا الاختلاف ليس هو نفسه كالاختلاف بين شخصيتين من البشر.

إن الخلود عند «ديوتيميا» لا يعنى - كما هى الحال عند أفلاطون - خلود النفس بعد موت البدن، بل يعنى خلوى فى نسل، إما عن طريق إنجاب الأبناء الذين يواصلون حمل الصفات الموجودة عندي، أو إنجاب الأفكار (وهو التوالد الروحي) الذى يجعلنى أبقي حياً فى هذه الأفكار - فالخلود هنا هو خلود الفكرة، تماماً مثلما نقول إن أفلاطون خالد، أو أرسطو خالد - دون أن نعنى أن نفس أفلاطون أو أرسطو «خالدة»، وإنما المقصود أنهما ماتا جسدياً منذ أربعة وعشرين قرناً، لكننا مازلنا ندرس فكرهما ونحلله، وتأخذ منه، وننقده... إلخ، مازلنا نتحدث عن «فكرهما» ونستفيد منه وهذا يعنى أنه «فكر خالد»، فالتناسل الجسدى، أى إنجاب الأبناء يجعل الصفات خالدة بأن يجعلها تتكرر فى النسل البشرى، وكذلك الأفكار القيمة تكون خالدة؛ فما زالت الإلياذة والأوديسة يقرأهما الناس - فى جميع الثقافات حتى هذه اللحظة - وهذا ضرب من الخلود الفكرى. وقل مثل ذلك فى «الفارابى» أو «ابن سينا» أو «ابن رشد» أو «ابن خلدون»... إلخ، فهم خالدون بفكرهم لا بأنفسهم.

وذلك يعنى أننا حين نتحدث عن شخص ما، فإننا لا نستطيع أن نتعرف فيه - رأى ديوتيميا - عن جوهر Substance يكمن تحت الأعراض، بل نتعرف فحسب على مجموعة من الصفات المتشابهة

المتداخلة المستمرة، والمتصلة عبر الزمان: «ومن ثم فإن علينا أن نأخذ فكرة ديوتيميا وتفسيرها للهوية الشخصية مأخذ الجد، فمن وجهة نظرها ليس ثمة «جوهر» ولا «ذات» ميتافيزيقية كامنة، بل إن الشخص هو مجموعة من الصفات. وما هنا يكون من المشروع أن نعد هذه الفكرة إلى مفهوم «الخلود»، وإلى فكرة «ديوتيسما» عن «الحب»، بوصفه صفة من الصفات الخاصة...»^(١).

وإذا لم يكن ثمة سوى هذه الصفات التي تعبّر عن الهوية الشخصية، فإن ذلك يعنى أننا عندما نحب شخصاً ما فإننا بذلك نحب صفاته (أو بعضها على الأقل)، لكن لو صبح ذلك لأصبح من الواجب أن نسأل عن قيمة هذه الصفات. وهكذا يصبح من المشروع الزعم بأن حبنا ينبغي أن يتناسب مع قيمة الصفات التي نحبها، وأن علينا أن نحب تلك الخصائص الجديرة بأن تحب أينما وجدت. ويمكن للمرء الذي يسير في طريق ديوتيميا وتفسيرها للحب - على هذا النحو - أن يتدفع إلى طريق «اللاشخصية»!

في حين أن افلاطون يرى أن النفس جوهر مستقل عن البدن، ولأنها ارتكبت خطأ فقد سجنّت في هذا البدن وسوف تتحرر منه بالموت، نكثها لا تموت معه؛ حيث إنها خالدة. ويقدم افلاطون في محاولة «فيدون» وحدها أربعة أدلة على خلود النفس بعد فناء الجسد هي: تعاقب الأضداد، والتذكر، والبساطة والتركيب، ومثال الحياة، لكن

1 - Quoted by: Mary Ellen White: Op. Cit. P.88.

الدليل الذى يؤثّر ويبرّاه مقننعا أكثر من غيره، لم يبسطه إلا فى «فايدروس» و«القوانين» وهو أن النفس متحركة بذاتها^(١).

ب - الخلود ... ونظرية التذكّر

يربط أفلاطون بين نظريته فى «خلود النفس» ونظريته فى تذكّر المثل، ولعل أفضل مثال لعملية الربط هذه - وهو المثال النموذجى - هو التجريبية التى قام بها سقراط وأجراها على خادِم «مينون»... Meno، وهو عبيد صغير، أخذ يسأله عن طول ضلع المربع الذى مساحته ثمانية أقدام مربعة، ولم يكن الخادِم على علم سابق بالهندسة، ومع ذلك جعله سقراط يتذكّر قوانين الهندسة التى تعلمتها نفسه فى وجود سابق^(٢).

كما عرض أفلاطون أيضا لعملية الربط بين خلود النفس، ونظريته فى تذكّر المثل، فى محاورته «فيدون»^(٣)، وفى محاورته «فايدروس»^(٤)، أما النفس عند «ديوتيماس» فهى تختلف عن ذلك أتم الاختلاف؛ فلا هى عاجزة عن تذكّر المثل بطريقة أفلاطون، ولا هى نفس - إنها ليست خالدة أصلا؛ ذلك لأن الموء إنما يحقق الخلود عند «ديوتيماس» - بطريقة غير أفلاطونية تماما. وفى استطاعتنا أن نقول أن

-
- ١- د. أحمد سيفاد الأهراسى: أفلاطون ص ٩٤ - دار المعارف بمصر عام ١٩٦٥ (سلسلة نوايخ الفكر الغربى عدد رقم ٥).
 - ٢ - محاورته «مينون» ٢٨٢ - ٢٨٥.
 - ٣ - محاورته «فيدون» ٧٢ وما بعدها.
 - ٤ - محاورته «فايدروس» ٢٤٨ وما بعدها.
-
-

النفس عند «ديوتيماس» لا تحقق الخلود على الإطلاق؛ ذلك لأن الخلود عندهما مجازي فحسب وليس ميتافيزيقيا.

ج - الخلود ... وتناسخ الأرواح

على الرغم من أن «ديوتيماس» تنذهب إلى أن الرغبة في الخلود تدفع المرء إلى أن يكافح لكي يلد تسلاً يشبهه، تسلاً بشرياً، فإن الشخص الذي يعجز عن التوالد لا يسلك الطريق الذي يسلكه الرجل الشرير عند أفلاطون على الإطلاق.

ذلك لأن أفلاطون يعتقد أن النفس البشرية تنال جزءاً ما صنعت، وأن كل شخص يثاب أو يعاقب أو يلقي جزاءه حسب عمله. فالفيلسوف أو محب الحكمة تصعد نفسه إلى السماء حيث مقر الأنفس، فتستمتع بالنظر إلى الحقائق المجردة؛ فلا لجسام، ولا مادة، ولا ألوان، ولا صور محسوسة، بل إن مقر الأنفس يصبح غذاءها الروحي. أما غير الفلاسفة فيتناسخون في أبدان بشر، وأبدان حيوانات حسب أعمالهم. فالرجل الشرير قد تناسخ نفسه مرة أخرى في جسد امرأة، وربما في جسد حيوان. ولهذا نراه يقول في طيمائوس: «فمن زل عن المبادئ الأخلاقية، تحول في ولادته الثانية إلى طبيعة إمراة، فإن لم يرفع عن شره في هذه الحالة أيضاً فإنه يظل يتحول من طبيعة وحش إلى طبيعة وحش آخر تماثله في شره... وهكذا دواليك»^(١).

وهكذا يتضح لنا أن تناسخ الأرواح - المأخوذ عن الهند عن طريق

1-Plato : Timaeus, 24 C.

الفيثاغورية - يذهب إلى أن الجبناء والفجار من الرجال سيصبحون بعد ذلك «نساء»، وخفاف العقول والسذج، الذين يظنون، مثلاً، أن علم الفلك يمكن تحصيـله بالنظر إلى النجوم من غير معرفة الرياضة، سيصبحون طيوراً، وأولئك الذين لا فلسفة لهم سيصبحون كواسر برية، وأغبي الناس فهما سيصبحون أسماكاً^(١).

أما «ديوتيماء» فهي لا تؤمن بالتناسخ، ولا بانتقال النفس من بدن إلى بدن؛ لأن النفس أولاً ليست جوهراً، وهي في نظرها ثانياً ليست خالدة، ولأن الاختلاف هائل بين فلسفتها وفلسفة أفلاطون.

١ - برتراند راسل: «تاريخ الفلسفة الغربية» المجلد الأول من ٢٣٠ ترجمة د. زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة - الطبعة الثالثة ١٩٧٨.

الختام:

لقد ناقشنا في هذا الفصل شخصية «ديوتيماء»، وإثبتنا أنها شخصية حقيقية، وأنها كاهنة وفيلسوفة من مانتينا، وأنها زارت أثينا عندما استدعاهما الأثينيون لمساعدتهم في الحماية من مرض الطاعون، وأنها التقت بسقراط أثناء هذه الزيارة. ثم عرضنا بعد ذلك لنظريات «ديوتيماء» في «الحب» و«الخلود» و«الجميل»... إلخ، وبينما في النهاية كيف أن هذه النظريات تختلف في كثير من الجوانب عن فلسفة أفلاطون، كما أنها تتعارض مع هذه الفلسفة في جوانب هامة (مثل خلود النفس، وتناسخ الأرواح... إلخ)، والواقع أن ديوتيماء تختلف من أفلاطون في كثير من المسائل الأساسية لفلسفته ونظرياته مثل: تصوره للخير، وتصوره للخلود، وتصوره لتناسخ الأرواح، ونظريته في الهوية الشخصية، ونظريته عن المثل.. إلخ، ولا يمكن أن يقال إن الباحث المتخصص في أفلاطون يمكن أن يجد بعض التناقضات في فكره حول موضوع من الموضوعات من محاورة إلى أخرى، ذلك لأن الأمر هنا يتعلق بتناقضات أساسية حول أفكار مركزية توجد في جميع أو معظم المحاورات الأخرى.

وهكذا نستطيع أن نقول في النهاية إن «ديوتيماء» كانت واحدة من «النساء... الفلاسفة في العالم القديم» وأنها تبرهن - كما سوف تبرهن المرأة في العالم الحديث - على أنها ليست أقل من الرجل في قدرتها العقلية، ولا في استعدادها للفلسفة.

الفصل السادس

«جوليا دوننا ... أوجوليا الفيلسوفة»

* هل يمكن أن توجد فضيلة العفة عند الخصص؟

* وهل مجرد الامتناع عن الظلم يُشكل العدل؟

أبو للونيوس... Appollonius

تمهيد ...

«جوليا دونا» ... أو «جوليا الفيلسوفة»، كما كان يطلق عليها المؤرخون في القرن الثالث الميلادي، المرأة التي، كوَّنت حلقة من أديب العقول في عصرها: حلقة تضم الشاعر، والفيلسوف الفيشاغوري، والمثاثنى، والسوفسطائي، ومعلم البيان، والمحامي، والسياسي، والطبيب، والمؤرخ ... إلخ - على نحو ما سنعرف فيما بعد - عاشت في الفترة التي أعقبت الإمبراطور الرواني ماركوس أوريليوس (١٢١ - ١٨٠ م) - والسابقة على أفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠ م) والأفلاطونية المحدثة. وعلى الرغم من أنها - على ما نعلم - لم تخلف وراءها كتباً من تأليفها تعالج الموضوعات الفلسفية التي كانت تدرسها، فإنها كانت تدرس نفسها لدراسة الفلسفة، وتوجه أعضاء حلقتها إلى الكتابة في موضوعات معينة اهتمت بها اهتماماً شديداً على نحو ما سنعرف فيما بعد. ولقد كانت الوحيدة من بين أولئك الذين نُطِّلق عليهم اسم الفلاسفة - ربما باستثناء ماركوس أوريليوس - التي سُنَّ اسمها على أكثر من ثلاثمائة وخمسين عملة مختلفة، كما وجد اسمها على أكثر من ١٨٠ مبنى من المباني العامة، والتماثيل المتناثرة في أنحاء البلاد، حتى أضفى عليها الناس في النهاية صفة القداسة!

وسوف نبدأ أولاً في سرد تفاصيل حياة هذه المرأة اللامعة، ثم نحاول بعد ذلك أن نجيب عن السؤال:

لِمَ أُطِّلق عليها لقب فيلسوفة ؟؟؟

أولاً : حياتها ...

ولدت «جوليسا دونا - Julia Donna»، أو «جوليسا دومنا J.Domna»، عام ١٧٠ ميلادية في إيميسا... Emesa - وهي الآن ضاحية في مدينة حمص الحديثة - في «سوريا على نهر العاصي»^(١)، وأسمها دوما أو دومنا Domna قريب التشبه بالكلمة اللاتينية Domina التي تعني «السيدة»، وإن كان من الممكن أن يكون الاسم أرمني الأصل بمعنى مارثا.. Martha^(٢)، وكان والدهما «يوليوس باسيانوس.. Julius Basianus»، الكاهن الأكبر لمعبد إله الجبل.. Elagabal، وهو إله الشمس في «إميسا» التي كانت مركزاً دينياً هاماً في ذلك الوقت.. حيث كانت عبادة هذا الإله منتشرة في هذه المنطقة^(٣).

ولا يروى لنا التاريخ شيئاً يذكر عن تربية «جوليسا» في حياتها المبكرة، لكن من المرجح أنها التقت ببعض المثقفين المرموقين الذين كانوا يقدون على منزلهم، ويبدو أنها تعلمت من المناقشات التي تدور

١ - كانت حمص المدينة السورية التي تقع على نهر العاصي في الجزء الغربي من وسط البلاد قد أصبحت في ذلك الوقت مستعمرة رومانية.

٢ - شقيقة العازر ومريم، ومديقة يسوع المسيح (لوقا ١٠ : ٤٠) وهي ترمز في التراث المسيحي إلى الحياة النشطة الإيجابية، بينما ترمز شقيقتها مريم إلى الحياة التأملية.

٣ - إله الجبل.. Elagabal : هو إله الشمس أو هو إله حارس في معتقدات الشرق القديم ولا سيما سوريا، وكان النسر هو الطائر المقدس عنده. قانن، د. إمام عبد الفتاح إمام «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الأول ص ٣٣٠ - مكتبة مدبولي بالقاهرة.

بينهم وبين والدها الكاهن. وسوف يتضح فيما بعد اهتمامها بالترتجيم والرياضيات بصفة عامة، وهو اهتمام غرسه فيها البيئة التي عاشتها وهي طفلة، ومن المحتمل أيضاً أن «سبتيموس سقيروس... Septimius Severus»^(١)، رآها لأول مرة في ذلك الوقت عندما كان يقبع في هذه المنطقة بوصفه قائداً عسكرياً للحامية الرومانية في حمص. وكانت «جوليا» في التاسعة أو العاشرة من عمرها، وبعد ذلك بعدة سنوات أصبح «سقيروس» نفسه حاكماً على إقليم ليون في بلاد الغال (فرنسا قديماً)، وهناك فقد زوجته الأولى، وراح يبحث عن الزوجة الثانية ذات الحظ السعيد التي سوف ترتبط به. وهنا اكتشف أن سيدة شابة من حمص في سوريا قد خبأت لها النجوم طالعاً ملكياً، فأسرع في التوصل إليها وحظى بالزواج منها^(٢).

وكانت «جوليا» تستحق في الواقع كل ما يمكن أن تعد به النجوم، فقد وهبت هذه المرأة - حتى عندما تقدمت بها السنوات - كل مفاتيح الجمال، وجمعت بين روعة الخيال، ورياسة العقل، وقوة الحكم، مما يندر أن يوهب لبنات جنسها فيما يرى إدوارد جيبون...^(٣).

لقد ولد سقيروس عام ١٤٦ م في قرية لبدة Lebda (الليبية)

-
- ١ - سبتيموس سقيروس (١٤٦ - ٢١١ م) سوف يصبح إمبراطوراً لروما (١٩٣ - ٢١١) وسوف ينشج سلالة سقيروس الحاكمة على نحو ما سيظهر فيما بعد
 - ٢ - إدوارد جيبون «أضمحللال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» ترجمة محمد علي أبو ذرة، ومراجعة أحمد نجيب هاشم، المجلد الأول، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ص ١٨٠.
 - ٣ - المرجع السابق، في الصفحة نفسها.
-
-

على الساحل الشمالي لأفريقيا، وبعد أن درس اللغتين اليونانية والرومانية في المدرسة، ذهب إلى روما لدراسة القانون، وعين في عهد الإمبراطور «ماركوس أوريليوس» في وظائف متتابعة في: أسبانيا، وسردينيا، وأفريقيا، وسوريا. وفي عهد الإمبراطور «كومودس Commodus^(١)»، أصبح حاكماً لجاليا.. Gallia في وسط فرنسا.

قلنا إن زوجته الأولى ماتت في هذه الفترة، وراح سقيروس يستشير أبراج النجوم - فقد كان يؤمن إيماناً قوياً بالتنجيم - عن المرأة التي تصلح زوجة له، فأخبره المنجمون أن هناك - على نهر العاصي - في سوريا فتاة جميلة ابنة الكاهن الأكبر لإله الجبل يقول طالعها إنها ستكون زوجة لأحد الملوك، وسوف تصبح إمبراطورة مهيبة الجانب، رصينة العقل، قوية البيان، هي «جوليا دونا» فسمى إلى الزواج منها، وهكذا كان اختياره للزواج من فتاة سورية راجع إلى إيمانه بالتنجيم فيما يقول واحد من كتاب القرن الرابع الميلادي...^(٢).

تزوج سقيروس وجوليا عام ١٨٧ ميلادية، وكان هو في الحادية والأربعين، أما هي فكانت في السابعة عشرة، وأنجبا طفلهما الأول في منطقة ليون Lyons في الجزء الجنوبي الشرقي من فرنسا في أبريل

١ - لوسيسيوس كومودس (١٦١ - ١٩٢ م) إمبراطور روماني (١٨٠ - ١٩٢) ابن ماركوس أوريليوس، وكان طاغية مجنوناً فاسقاً مستهتراً، وقد دفعه اعتزازه بقوته البدنية إلى التوهم بأنه البطل الأسطوري «هرقل»، وإلى التزول إلى المعجقة لمقاتلة الأسود.

١ - Beatrice H. Zedler: Julia Domna in A History of Women Philosophers Vol. 1, P.117.

١٨٨ ، وأطلقا عليه اسم «باسسيانوس Bassianus» على اسم والد «چوليا» وهو الذي عرف طوال التاريخ باسم كاراكالا.. Caracalla، أما الابن الثاني فقد سمي جيتا.. Geta. على اسم والد سفيروس وشقيقه، وقد ولد في روما في العام التالي ١٨٩ م.

وفي عام ١٩١ ميلادية عين سفيروس حاكماً لـ «باتونيا.. Pan- nonia»، وهي مقاطعة رومانية في أوروبا الوسطى، كانت تشمل الجزء الغربي من هنغاريا الحديثة. وأجزاء من شرق النمسا وشمال يوغسلافيا الحديثتين - وكان المركز الرئيسي لقيادته في كارنيتوم Camuntum» على نهر الدانوب، ها هنا كان سفيروس زوج «چوليا» قائداً لثلاث مناطق، ولما علم بمقتل الإمبراطور كومودس - Commodus^(١) - الذي مهد قتله الطريق أمام أسرة «سفيروس» - نادت قواته بسفيروس إمبراطوراً، وكان المتآمرون في روما قد قدموا العرش إلى «بريتناكس Bertinax» وهو سناتور معمر ومحافظ، ولكنه قُتل بيد الحرس البريتوري بعد حكم دام ستة وثمانين يوماً! فرحف سفيروس بقواته سريعاً إلى روما، وصوت مجلس الشيوخ في صفه بأن يرقى العرش - وهكذا تولى به إمبراطوراً على روما.

٢ - ميخا كمودوس بتفكيره، ومن ثم بروما من ثرى شموخها عندما ظن نفسه «موقل الرومان» والشمس المشرقة .. إلخ، وضعت له مارتشيا Marcia - أحب خلياته إلى نفسه - جرعة من السم في النبيذ الذي قدمته لعشيقها بعد أن عاد من رحلة صيد متعبة، وبينما كان يتلوى من ألم السم، اقتحم غروفته شاب مقتول العضلات وقتله خنقاً دون مقاومة؛ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية - المجلد الأول ص ١٦٢.

فى عام ١٩٣ م، وهو العام الذى دخل فيه «سفيروس» روما
مختصراً ظافراً، لم يظهر اسمه فقط على العملة، بل كتب عليها أيضاً
اسم «جوليا دونا»، وفى هذا العام أيضاً انعم هو على «جوليا» باللقب
الإمبراطورى «أوجستا.. Augusta» وهكذا بعد ست سنوات من
زواجهما تحققت نبوءة النجوم وأصبحت جوليا زوجاً لملك، بل
أصبحت «إمبراطورة» لروما!.

كان هناك منافسان قويان لسفيروس على عرش روما. أما الأول
فهو «نيجر».. Niger حاكم سوريا فى الشرق، والثانى هو الابينوس
Albinus حاكم بريطانيا فى الغرب، وسار سفيروس بقواته أولاً إلى
الشرق، وهزم «نيجر»، بل قُتل هو وزوجته وأولاده عام ١٩٣ ميلادية،
وواصل سفيروس حملته فى الشرق ضد أولئك الذين ساعدوا نيجر
وأيدوه. وكانت «جوليا» تصحب زوجها فى حملته على الشرق وتقيم
فى معسكره، حتى أطلق عليها عام ١٩٦ لقب «أم المعسكر».. Mater
Castrorum اعترافاً بدورها فى مرافقة الزوج وتشجيع الجنود،
وحضورها المستمر فى المعسكر.

ثم وجه «سفيروس» انتباهه بعد ذلك إلى «الابينوس» الذى أراد
بعض الشيوخ إمبراطوراً، فسير قواته إليه، وكان الابينوس قد صير من
بريطانيا إلى بلاد الغال (فرنسا قديماً) - فهزمه سفيروس عند منطقة
ليون الفرنسية عام ١٩٧ للميلاد، وقتل الابينوس وزوجته وأولاده،
وأصدقائه، وعلى الأقل ٢٩ من أعضاء مجلس الشيوخ الذين كانوا
يقودونه.

ولقد قيل إن فكرة سفيروس فى القضاء على منافسيه - نيجر

والإمينوس - بدلاً من أن يجعلهما خلفائه، كانت تعود أساساً إلى طموح «جوليا» التي اقترحت عليه القضاء عليهما، وشجعت في الإعداد لذلك لكي تجعل من ابنيها خلفاء لأبيهما على عرش روما، لكن لا شك أن «سقيروس» كان يريد لأبنيه أيضاً أن يرثا العرش، ولكي يضقى «سقيروس» مظهر الشرعية على حكمه فقد أعلن «ماركوس أورليوس» الذي مات عام ١٨٠م أباً له بالتبني، كما زعم أن كمودوس كان شقيقاً له!

وبعد أشهر قليلة من أنتصار «سقيروس» في ليون صحبت جوليا زوجها في رحلة أخرى، لكن إلى الشرق هذه المرة، وإلى أفريقيا عام ٢٠٣ على وجه التحديد. وبعد عودتهما أقيمت الألعاب الرياضية في روما عام ٢٠٤ ميلادية إيثاناً بافتتاح عهد جديد، وعلى خلاف الإمبراطورة السابقة، كان لجوليا دور بارز في الاحتفالات. ولكن رغم الاحترام وآيات الشرف، التي حظيت بها «جوليا» في روما وفي طول الإمبراطورية وعرضها، فإن السنوات القليلة الأولى من القرن الثالث، لم تكن بسارة، ومن ثم لم تكن «جوليا» سعيدة؛ والسبب أنها واجهت مشكلتين حادتين: الأولى: عدو في البلاط الإمبراطوري، والثانية: سلوك الابنين؛

كان «بلوتيانوس Plautianus» الذي كان مثل «سقيروس» من مواليد شمال أفريقيا يتمتع بثقة الإمبراطور حتى أصبح الوزير الأثير المقرب إليه؛ جمع ثروة طائلة وتغلغل نفوذه في كل مكان حتى نصبت له التماثيل في طول العالم الروماني، وفي عام ٢٠٢ ميلادية رتب لزواج ابنته بلوتيللا Plautilla من بيسيانوس الذي أصبح يلقب الآن «كاراكلاء» الابن الأكبر لجوليا وسقيروس، رغم معارضة جوليا،

ومعارضة العريس، معاً في إتمام هذا الزواج!

كانت جوليا حانقة على نفوذ «بلوتيانوس» القوي على هذا النحو، وهو أول قائد يتمتع بسلطات واسعة، ويسعى استغلالها أسوأ استغلال. وقد كان زواج ابنته من أكبر أبناء الإمبراطور ضماناً لحسن مستقبله، لكن لسوء حظه ثبت أنه كان إبناً يسقطه، فعندما زادت أطماع «بلوتيانوس» وأثارت من في القصر لجبر الإمبراطور - الذي لا يزال يحبه - على قتله على غير رضا منه^(١).

لقد كان بلوتيانوس يعامل «جوليا» الرقيقة بطريقة سيئة؛ لأنه كان يفتقها بشدة لرجاحة عقلها وكياستها، وكثيراً ما كان يدس لها عند الإمبراطور، ويثير الشبهات حول سلوكها، ويجمع الأدلة ضدها، بإكراه نساء نبيلات على الشهادة الزور عن طريق التعذيب؛ ويذهب بعض المؤرخين أنه اقنع الإمبراطور بمحاكمتها، لكنها برئت من جميع التهم! ومن حسن الطالع أن «جيتا» Geta، شقيق سفيروس وهو يرقد على فراش الموت عام ٢٠٤م أخبر سفيروس أن «بلوتيانوس» غير جدير بثقته، وبعد ذلك الإتهام بالتآمر لقتل الإمبراطور، وتم إعدامه في العام التالي (٢٠٥م)، ويرى أحد المؤرخين أن أحد الذين شهدوا إعدام

١ - إدوارد جيبون «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» المجلد الأول ص ١٧٤ - وانظر في نفس هذا الكتاب حاشية ص ١٧٤ حيث يقول جيبون «من أكبر تصرفاته نزقاً وجراً أنه خصي مائة من أحرار الرجال الرومان فيهم المعتزجون، وفيهم رب الأسرة، لا شيء، إلا أن يكون في ركاب ابنته عند زواجها من الإمبراطور الصغير حاشية من «الخصيان» معاً هو جدير بملكمة شرقية..»

بلوتيانوس «انتزع بضع شعيرات من لحيته وأحضرها إلى بوتيللا (ابنته) «وچوليا» الإمبراطورة، ولم تكونا تعرفان شيئاً عما حدث. وصاح وهو يقدم لهما شعيرات اللحية:

«انظرا! ها هو ما تبقى من بلوتيانوس! وسوف يسبب لأحدكما الفرح والبهجة، وللأخرى الحزن والأكـم...»^(١).

أما المشكلة الثانية التي كانت تواجه «چوليا» فهي أن الابنين «كاراكلا» و«جيتا» كانا يقضيان معظم أوقاتها في اللهو والمتعة والتسلية كعادة الأقران في ذلك الوقت، لكن الأسوأ من ذلك أن كلا منهما كان يكره الآخر! ولقد حاول الإمبراطور، عبثاً، أن يخضع الابنين لسيطرته، وأن يعيشا في إنسجام كل منهما مع الآخر. وصحبا الأب في حملة إلى بريطانيا عام ٢٠٨ م لعلهما يستفيدا من وجودهما خارج روما، وأن ينخرطا في سلك الحياة العسكرية، وأن يعيشا معاً عيشة الأباطرة. فأعطى لجيتا Geta - الابن الأصغر - مسؤولية المنطقة الواقعة تحت السيطرة الرومانية، في حين وأصل سقيروس مع «كاراكلا» السير ضد البرابرة الذين غزوا الولاية من الشمال. غير أن الإمبراطور اشتد عليه مرض النقرس، الذي كان يعاوده بين الحين والحين، حاول «كاراكلا» أن يسيطر على الجيش، وأن يثير الاقتراعات ضد شقيقه، بل بلغ به العنقوب أن طلب من الأطباء أن يعجلوا بوفاته والده، الذي كان قد تجاوز الستين آنذاك، وأقبعه داء النقرس حتى استلزم الأمر أن يحمل على محفة! وكلما اشتد المرض على سقيروس

1- Beatrice H. Zeller: Julia Domna, P.190.

اشتعلت نار الأطماع الوحشية والأحاسيس السوداء في نفس الابن الأكبر وضاق ذرعاً بالإبطاء في تقسيم الإمبراطورية، ولقد حاول أكثر من مرة التعجيل بالأيام القليلة الباقية من حياة والده، وجهود دون جدوى في إحداث فتنة بين الجنود. وقضى سقيروس نحبه في يورك York في ٤ فبراير عام ٢١١م وهو في الخامسة والستين من عمره، وفي السنة الثامنة عشرة من حكم مجيد موفق. وفي لحظاته الأخيرة أوصى ولديه بالولاء والوشام، كما أوصى الجيش بهما خيراً، وأحرق جثمانه وأخذت «جوليا» الرمان المتبقى من الجثة إلى روما ليدفن في ضريح قخم شيد للأباطرة^(١).

كانت «جوليا» تقف إلى جانب زوجها في جميع الإصلاحات التي قام بها طوال حكمه، سواء في الإدارة أو القيام بالأعمال العامة، أو إقامة الجسور وإصلاح الطرق، وترميم المباني القديمة، كما ساعدت «جوليا» في إصلاح «قاعة الاجتماعات للنساء» وإعادة معبد فيستا Vesta إلى المديانة عند الرومان. وكانت رحلاتها المتعددة مع زوجها - وهو ما تظهرنا عليه صورها على العملات ونقوش المياني - دليلًا على تقدير زوجها لها، وما تقوم به من دور هام بوصفها إمبراطورة، أما الآن فقد تركها وحيدة، تعاني مشكلة الانقسام بين ولديها، والصراع بينهما على من يرث العرش بعد وفاة الأب.

لقد أوصى المستشارون الذين عينهم الأب في حضور «جوليا» بتقسيم الإمبراطورية بحيث ينال «كاراكلا» أوروبا كلها، في حين تكون

1 - Ibid.

أسياء من نصيب «جيتا». لكن جوليا عارضت التقسيم بقوله: «فى استطاعتكم يا أولادى، تقسيم الأرض والبحار جميعا، لكن كيف يمكن لكم تقسيم الأم؟» وهكذا رفضت فكرة التقسيم، وإن ظلت الكراهية تعمل عملها بين الشقيقين، وأخيراً استجاب «كاراكلا» لتوسلات أمه - بخبت ودهاء - ورضى ببقاء أخيه فى بيتها على أساس أن تتم المصالحة والتراضى بينهما - وفيما هما يتحدثان اندفعت جماعة من الضباط كانوا مختبئين بسيف مسلولة، وانهاؤا على «جيتا» وحاولت الأم المذهولة أن تحميه بين ذراعيها، ولكن عبثا كانت تكافح، وجرح يدها وتلطخت بدماء ابنها الأصغر، بينما رأت الأكبر يستحث السفاحين ويعاونهم، ثم يفر إلى المعسكر ويرتمى على الأرض أمام تماثيل الآلهة. وعندما عاد إلى القصر وجد جمعا من النسوة النبيلات يبكين الابن الأصغر الذى لقى حتفه قبل أوانه، فهدمن الإمبراطور الحقود بالموت فوراً، بل إنه نفذ تهديده بالفعل فى بعضهن، واستقبل حكمه بإعدام عدد كبير قدر بأكثر من عشرين ألفاً من الجنسين كان من بينهم حراسه ووزرائه ومعاونوه، ففضلاً عن كل من ارتبط بأقل صلة بجيتا. Geta. ورضع فى ذهنه: كسب محبة الجيش، والنظر إلى بقية رعاياه على أنهم قليلو الأهمية، «وراح يتنقل بين أوروبا وآسيا. وحدث أن كانت تصحبه أمه، وهو يقيم فى سوريا، عندما اقترب منه ضابط اسمه «مارتياس» مدعياً أنه إنما يؤدى واجبه وطعنه بالخنجر، وكانت

تلك نهاية المارد الجبار الذي لطخت حياته الطبيعة الإنسانية بالعار^(١) .
ويقول أحد المؤرخين إن أمه حزنت عليه؛ «ولم يكن حزنها
بسبب موته، أي أنها أرادت له طول العمر، بل لأنها شعرت بالحيرة
عندما تبين لها أن عليها أن تعود من جديد إلى حياة خاصة...»^(٢) .

١ - إدوارد جيبون «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» المجلد الأول ،
ص ١٩٢ .

2 - Beatrice H. Zedler : Julia Domna P.122.

ثانياً : جوليا ... الفيلسوفة:

كانت «جوليا» الإمبراطورة مشغولة بتأدية واجباتها الرسمية، في الوقت الذي كانت تتابع فيه إهتماماتها العقلية وتطويع ثقافتها ودراساتها الفلسفية. ويتمثل الدليل التاريخي على ذلك في شهادة اثنين من معاصريها: الأول هو: الفيلسوف اليوناني السوفسطائي «فلوستراتوس Philostratus» ١٧٠ - ٢٤٥ ميلادية الذي تعلم في أثينا أولاً، ثم قام بالتدريس فيها بعد ذلك قبل أن ينتقل إلى روما ويستقر في بلاط الإمبراطورة «جوليا»، ويصبح أحد أعضاء حلقتها الفلسفية، وهو صاحب كتاب «حياة السوفسطائيين»^(١).

والشاهد الثاني هو: السياسي والمؤرخ الروماني «ديوكاسيوس Dio Cassius» (١٥٥ - ٢٣٠ ميلادية) الذي كتب «تاريخ روما» في ثمانين كتاباً، كان الأول - فلوستراتوس - لا يتحدث عنها إلا ويلقبها بـ«جوليا .. الفيلسوفة»، كما يذكر أن «حلقة جوليا» كانت مؤلفة من علماء الرياضة والفلاسفة، ويقول أنه كان أحد أعضاء هذه الحلقة.

أما «ديو» فهو بعد أن يذكر السلوك العدائي لـ«بلوتيانوس» الوزير الأثير المقرب إلى سثيروس - تجاه جوليا يقول: «ولهذا السبب فقد بدأت جوليا تدرس الفلسفة، وتقضي معظم وقتها مع

1 - Ethel M. Kersey: Women Philosophers. A Bio-Critical Source Book, green Wood Press N,Y 1989, p137.

السوفسطائيين» ، ثم يشير إلى الفترة التي كانت فيها «جوليا» تدسّم رسائل رسمية من ابنها، وتقوم باستقبال الرجال المرموقين في «نيقوميديا» ، وانطاكية في آسيا الصغرى من عام ٢١٥ إلى عام ٢١٧ م يقول عنها ديون: «إن جوليا كرسّت نفسها أكثر وأكثر لدراسة الفلسفة مع هؤلاء الرجال...».

هذه التعليقات من جانب معاصري جوليا توحى بالأسئلة الآتية:

١ - مَنْ هم أعضاء حلقة جوليا، أو صالونها الأدبي؟ وماذا كانت اهتماماتهم؟

٢ - مَنْ هم فلاسفة السوفسطائية في عصرها؟

٣ - ما هي الفلسفة التي درستها؟

٤ - وما هي الفلسفة التي كانت تفضلها..؟

سنحاول فيما يلي الإجابة عن هذه الأسئلة على التوالي:

ثالثاً: صالون چوليا الأدبي أو حلققتها الفلسفية:

من هم أعضاء هذا الصالون...؟ يذكر فلوستراتوس أن حلقة چوليا كانت تتألف من «علماء الرياضة والفلاسفة». ويبدو أن مصطلح علماء الرياضة هنا كان يعنى علماء التنجيم .. Astrologers، حيث كان التنجيم فى ذلك الوقت جزءاً لا يتجزء من الرياضيات. والأرجح أن «چوليا» احتفظت باهتمامها بهذا العلم من سوريا، ولا سيما أنها ولدت فى مدينة حمص، وتربت على الديانة السورية القائمة فى ذلك الوقت، ولقد سبق أن ذكرنا أن والدها كان الكاهن الأكبر «لإله الجبل»، وفضلاً عن ذلك فيبدو أن زوجها كان يشاركها الاهتمام بالتنجيم أيضاً، فقد سبق أن ذكرنا أنه كان يستشير الأبراج فى أمر زواجه، وأنها هى التى أوحى إليه بهذه الفتاة السورية التى يقول طالعها إنها ستتزوج ملكاً. وعلى الرغم من أنه يعوزنا أسماء علماء الرياضة والتنجيم فى صالون چوليا الأدبي، أو حلققتها الفلسفية، فإن هناك أسماء كثيرة يذكرها المؤرخون الذين أعدوا قائمة طويلة من المثقفين المرموقين فى عصر «چوليا»، وذهبوا إلى أنهم جميعاً كانوا أعضاء فى صالونها، فضلاً عن أخت چوليا واسمها «چوليا ميسا» وأبناء عمومتها وبعض أقاربها. والقائمة تضم الأتى اسماؤهم:

- ١ - «بابينيان Papinian» وهو محامى مرموق - ويحتمل أن يكون ابن عم چوليا - الذى عمل فى خدمة الإمبراطور سقيروس، وقام بكثير من الإصلاحات القانونية الهامة فى الإمبراطورية.

٢ - «أولبيان Ulpian»، وهو تلميذ المحامي السابق بابنيان، وأحد المشتغلين بالقانون، وكان عضواً في المجلس الاستشاري للإمبراطور سقفيروس.

٣ - «أوبيان Oppian» الشاعر الذي أهدى كتاباً عن الصيد للإمبراطور الإبن كاراكلا قائلاً: «إلى دونا العظيمة التي وهبت إلى سقفيروس العظيم».

٤ - «أثنايوس Athenaeus» مؤلف كتاب: «السوفسطائيون على العشاء»، وهو شرح للمأدبة السوفسطائية، ويحوى معلومات كثيرة متناثرة.

٥ - الإسكندر الأفروديسي - الفيلسوف المشائى الشهير والملقب بالشارح الأكبر لأرسطو، وكانت عضويته في هذه الحلقة سبباً - فيما يبدو - في أن قام الإمبراطور سقفيروس برعايته وتعيينه رئيساً للمدرسة المشائية في أثينا.

٦ - «سرينس سامونيكس .. Sammonicus Serenus» الذي قتله «كاراكلا» بعد مقتل شقيقه جيتا .. Geta.

٧ - «جالينيوس .. Galen» (١٢٩ - ٢١٥ م) الفيلسوف والطبيب اليونانى الذى جال فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية قبل أن يستقر فى روما ويصبح طبيباً فى بلاط الإمبراطور «ماركوس أورليوس». وأنصبت فلسفته على: فلسفة العلم، والطبيعة، والمنطق.

٨ - «ماريوس ماكسيموس Maximus Marrius»، الذى ألف

كتاباً عن «حياة سيكتموس سفيروس»، وهو الكتاب الذي أصبح مرجعاً في التاريخ الروماني.

٩ - ديوكاسيوس Dio Cassius، المؤرخ الروماني الشهير وصاحب كتاب «التاريخ الروماني» في ثمانين كتاب، كما أنه ألف أيضاً كتاباً صغيراً عن الأحلام والبشائر.

١٠ - «جورديان .. Gordian» الذي كان حاكماً للمقاطعات الرومانية في إفريقيا، والذي أهده «فلوستراتوس» كتابه المعروف عن «حياة السوفسطائي»، وأصبح هو نفسه إمبراطوراً فيما بعد، ولكنه كان باستمرار شخصية مثقفة حتى قيل عنه إنه كان يقضي أيامه في صحبة أفلاطون، وأرسطو، وشيشرون، وفرجيل.

١١ - مجموعة متنوعة من السوفسطائيين الذين سيرد ذكرهم في القسم التالي^(١).

رابعاً: السوفسطائيون .. The Sophists

لا شك أن دارس الفلسفة اليونانية عندما يلتقى بمصطلح «السوفسطائي» فسوف يرد إلى ذهنه في الحال أسماء لامعة مثل: «بروتاجوراس .. Protagoras» صاحب العبارة الشهيرة «الإنسان مقياس الأشياء جميعاً»، و«جرجياس Gorgias» صاحب كتاب «في الوجود، أو في الطبيعة» وكتبه الأخرى في الخطابة – ولا سيما كتابه: «رسالة في فن الخطابة»، وقد يستدعى مصطلح السوفسطائي أيضاً أفلاطون وأرسطو، ورأيهما في الفيلسوف السوفسطائي أنه الرجل الذي كان يدعى الحكمة وهو عاطل منها ... إلخ إلخ.

غير أن مصطلح السوفسطائي في عصر «جوليا» لم يكن له أي معنى ذي، كما أنه لم يكن يدل على الموقف الفلسفي الشهير القديم، بل إنه كان في الواقع لقباً أو مصطلحاً شرفياً يطلق على الخطباء ومعلمي النسيان الذين وصلوا إلى الذروة في المهارة الخطابية. فالسوفسطائيون في القرنين الثاني والثالث الميلاديين كانوا على رأس المثقفين الذين يناقشون تقديراً عالياً من عليّة القوم، ومن عامة الناس على حد سواء، كما كان الأباطرة يقدرونهم وينعمون عليهم بالمتاحب والماكن الرفيعة في الدولة، ولهذا فقد بلغوا من الثراء حداً جعلهم يقدرون الهبات على جماعاتهم بإقامة المباني العامة. كما أنهم أظهروا في حياتهم أن فن الإقناع يمكن أن يكون وسيلة للنجاح في الحياة العامة. ولحد مصادرنا الرئيسية عنهم هو «فلوسترأتوس» الذي كان عضواً بارزاً في صالون «جوليا».

ويميز فلوستراتوس في كتابه «حياة السوفسطائيين» بين
«السوفسطائية القديمة» التي أسسها «جورجياس» في القرن الخامس
قبل الميلاد و«السوفسطائية الثانية» التي أسسها «إسكينس» Aes-
chines^(١) في القرن الرابع ق. م.

لقد كان الفن السوفسطائي القديم يتعلق «بالخطابة الفلسفية»
طالما أن أولئك الذين استخدموه كانوا يتخذون مواقف فلسفية في
الموضوعات المطروحة في ذلك الوقت مثل: الشجاعة، والعدالة،
والاعتدال، والشكل الحالي للعالم.. إلخ. أما «السوفسطائية الثانية»
(ويفضل فلوستراتوس استخدام كلمة «الثانية» بدلا من كلمة
«الجديدة»)، فإن أتباع إسكينس Aeschines عالجوا موضوعاتهم من
زاوية مختلفة: فيها السياسة، وفيها الثقافة العامة، وفيها تنقيح فن
الخطابة نفسه. ومن ثم فقد كانت الموضوعات التي يدرسونها
مستمدة من التاريخ والأدب اليوناني القديم، كما كانوا يستعرضون
فيها مهاراتهم في فن البيان.

ويذكر «فلوستراتوس» في كتابه أولئك الذين ينطبق عليهم
مصطلح «السوفسطائي» على الرغم من أن السوفسطائي – في رايه –
ليس فيلسوفاً خالصاً، فإنه لابد أن يبدأ بالإصغاء، بعمق، إلى ثمانية من
الفلاسفة، يبدو أنهم كانوا من السوفسطائيين؛ لأنهم يستعرضون

١ - كان إسكينس ٣٨٩ - ٣١٤ ق. م. خطيباً أثينياً بارعاً، وهو يمثل الجيل الثاني من
السوفسطائيين فيما يقول «فلوستراتوس»، كما كان معارضا سياسياً لديموستين
في الجمعية الأثينية.

نظرياتهم بسهولة ويسر، وقصاحة وبيان، وبعد ذلك يناقش «فلوستراتوس» تسعة من السوفسطائيين القدامى منهم «بروتاجوراس» و«جورجياس» و«هيبياس» و«أنطيقون»، و«بروديقس».. إلخ، وأكثر من ٤٢ من السوفسطائية الثانية، رغم أنه ربما لم يكتب كتابه هذا عن «حياة السوفسطائيين» إلا بعد وفاة جوليا، فمن الصواب أن نفترض أنه طالما أن «فلوستراتوس» كان عضواً بارزاً في صالون جوليا التي كانت خبيرة بتاريخ السوفسطائية، فإنه كان يعرض عليها المعلومات ويناقشها فيما يصل إليه من معارف، وأنها كانت تتتبع تأليفه للكتاب.

وشاهدنا على أنه كان يفعل ذلك نستمدّه من رسالة كتبها إلى «جوليا» يخبرها فيها أن أفلاطون لم يكن يمتنع من السوفسطائيين، بل كان على العكس، معجباً بهم، حتى أنه تبني الصورة الأدبية للحوار التي كان يستخدمها «جورجياس» و«بروتاجوراس» و«هيبياس». ثم يذكر كذلك أمثلة من المفكرين الذين رأوا أنه ينبغي محاكاة السوفسطائيين، ومنهم «إسبازيا الملطية» التي يقال إنها شجذت لسان بركليز وهذبه حتى يقلد «جورجياس» ثم يضيف: «واسكينس أيضاً الذي تعرفينه» (والخطاب موجه إلى جوليا) وناقشنا حديثه فيما كتب من محاورات بأسلوب قاس، لم يتردد أن يكتب على غرار جورجياس في حديثه عن مفكرة مرموقة هي «ثارجيليا.. Thargelia».

ويختتم فلوستراتوس رسالته بقوله:

«أيمكن أن أدرجو أن تقومى أنت أيضاً أيتها الملكة العظيمة بحث بلوتارك (٤٦ - ١٢٠م) أجراً اليواثانييين، أن يكف عن إهانة

السوفسطائيين، وألا يسوق حماقات عن «جورجياس»؟ فإن فشلت في إقناعه، فأنت - على أقل تقدير - تعرفين، بحكمتك وحصافتك، الاسم الذي يطلق على رجل من هذا القبيل^(١).

ولما كان «بلوتارك» كاتب السير اليوناني المعروف قد مات قبل أن تولد «چوليا» بنصف قرن، فقد تشكل البعض في صحة الرسالة، غير أن «فلوستراتوس» عندما يطلب من «چوليا» أن تتحدث إلى رجل ميت، فإنه يستخدم عامداً - - فيما يبدو - ضرباً من الفن الأدبي القديم، ولا سيما أن «چوليا» كانت على علم تام بفلسفة «جورجياس» وغيره من السوفسطائيين القدامى^(٢).

وبالإضافة إلى معرفة «چوليا» بالسوفسطائيين القدماء، فإن كتاب «فلوستراتوس» يساعدنا في معرفة «السوفسطائيين في القرنين الثاني والثالث الميلاديين الذين عرّفتهم چوليا معرفة شخصية، ومنهم الأسماء الآتية:

٢ - Quoted by Beatrice H. Zedler: Op. Cit. p.125-126.

٢ - لاحظ أن السوفسطائيين القدامى كانوا أول واضعين لحقيقتين لعلم الخطابة. ولقد كان هذا العلم هو العلم الذي يجب أن يوضع في هذا العصر من حيث إنه الممثل الحقيقي لروح العصر، كما أنه التعبير عن إحدى خصائص الروح اليوناني، وهي الميل إلى النضال الذي ظهر أولاً في الحياة الجسمية (الأنساب الرياضية في بلاد اليونان) ثم انتقلت المتنافسة في القرن الخامس إلى الميدان الفكري، وأصبحت أداة المتنافسة هي الكلام أو الخطابة، وكذا كان للخطابة المكان الأول في الحياة الوجودية اليونانية - انظر في ذلك د. عبد الرحمن بدوي «موسوعة الفلسفة» المجلد الأول ص ٥٨٨ - ٥٨٩ المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت عام ١٩٨٤.

* «أبو للونيوس Apollonius، الأثيني (وهو غسير أبو للونيوس الطياني الفيثاغوري الذي سنتحدث عنه بعد قليل)، الذي كان في زيارة للإمبراطور سفيروس عام ١٩٦ أو ١٩٧، ودخل في منافسة خطابية وظفر فيها.

* «هيرقليدس .. Heracleides، الكاهن الأكبر في لقياء Ly-cia^(١) الذي اشتهر بأنه سوفسطائي. وله حادثة معروفة هي أنه انهار وهو يرتجل خطاباً أمام الإمبراطور سفيروس.

* «إيليان .. Aelian» وهو مفكر روماني عاش في عهد سفيروس، وكان يتحدث اليونانية بطلاقة، وقد ألف في التاريخ، كما أنه كتب عن طبيعة الحيوان.

* وهناك سوفسطائي آخر كان معروفاً جيداً للإمبراطور وزوجته جوليا وهو «انتيباتر Antipater، الذي كان معلماً خصوصياً لابنهما، كما أنه عمل وزيراً لدى سفيروس. وكتب مراثية بعد مقتل جيتا .. Geta المفضيت شقيقه، ومات في الثامنة والستين من عمره «بأن أمسك، إرادياً، عن الطعام»!

* ويقول «فلوستراتوس» أن هموكراتس Hemocrates كان عضواً في الحلقة السوفسطائية، كما أن هليودورس Heliodorus كان أيضاً من بين الحلقة السوفسطائية.

١ - كانت لقياء Lycia مقاطعة بحرية قديمة في الجزء الجنوبي الغربي من آسيا الصغرى، ثم أصبحت ولاية رومانية.

* ويقول أيضاً عن فلسكس.. Philiscus من تساليا إنه عندما كان في روما؛ «التحق بحلقة جوليا التي تضم مجموعة من الفلاسفة وعلماء الرياضيات، وحصل منها - برعاية الإمبراطور - على كرسى الخطابة في أثينا، ولقد استمر يشغل كرسى الخطابة في أثينا لمدة سبع سنوات.

* كما كان «فلوستراتوس» نفسه أحد الأعضاء البارزين في صالون جوليا الأدبي أو حلقتها الفلسفية، كما كان من المقربين إليها، ولهذا نراه بعد أن يذكر «جوليا» بالاسم يقول: «كنت انتمى إلى حلقة الإمبراطورة التي كانت معجبة للغاية بممارسة البيان والخطابة، وهو في نهاية كتابه «حياة السوفسطائيين» يعتبر نفسه واحداً من السوفسطائيين. يقول:

«أما عن فلوستراتوس، وعن قدراته في القانون والمحاكم، والبلاغة، والسياسة، وكتابة البحوث، وإلقاء الخطب الحماسية - وأخيراً؛ موهبته في الحديث المرتجل - فليس لى أن أتحدث عن ذلك»^(١).

وهناك كاتب من المحدثين فَحَصَ حَلَقَةَ «جوليا» أو صالونها

1 - Beatrice H. Zedler; Op. Cit. p.126.

الأدبي قحماً دقيقاً، ثم قال في النهاية:

ولقد كانت هناك حلقة من السوفسطائيين والفلاسفة تشارك فيها «جوليا» بنفسها في المناقشات، وتستمتع بما يدور فيها من حوار، كما كان فلوستراتوس، وفلسكس السوفسطائيين عضوان فيها...^(١).

1-Ibid. P126.

خامساً : ما هى الفلسفة التى درستها جوليا...؟

لا تقدم لنا نصوص المعاصرين «لجوليا» إجابة واضحة ومباشرة عن هذا السؤال. فهذا هو «فلوستراتوس» فى كتابه «حياة السوفسطائيين» يشدد على أسلوب البيان، والخطابة عند من كان يحضر الحلقة من الرجال، كما كان هناك بعض السوفسطائيين الذين اهتموا بأفلاطون والأكاديمية، ونحن نعرف أيضاً من كتابه أنه جرت العادة فى زمن ماركوس أورليوس أن يعين الإمبراطور لا فقط أساتذة كراسى البيان والخطابة فى أثينا وروما، بل أيضاً أساتذة الأفلاطونية، والأرسطية، والرواقية، والأبيقورية. وربما ظل هذا التقليد حتى زمن «جوليا». وعلى كل حال فإن «فلوستراتوس» يشير إلى الأنواع الأساسية من الفلسفة فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين التى ربما رغب الطالب فى معرفتها. لكن الواقع أننا إذا أردنا أن نعرف اهتمامات «جوليا» الفلسفية فربما كان الأفضل أن نبحث عنها فى الكتب التى امرت بتأليفها؛ فهى تدل، بالقطع على متحنى التفكير عندها.

سادساً: الفلسفة التي اهتمت بها جوليا:

قلنا إنه ربما كان لـ «جوليا» اهتمامات فلسفية رئيسية، ويمكن أن نجدها في الكتب التي تم تأليفها بأمر من الإمبراطورة، فما هي هذه الكتب؟ من الثابت أن «جوليا» أمرت فلوستراتوس بتأليف كتاب عن سيرة حياة أبو- للونيوس الطياني - فمن هو هذا الفيلسوف؟ وما الذي جذب انتباهها إليه؟

١ - أبولونيوس الطياني Appollonius of Tyana

هو فيلسوف يوناني من الفيثاغورية المحدث في القرن الأول الميلادي (ولد قبل المسيح بأربعة أعوام)، وكان بمثابة «مسيح وثني»، درس في طرطوس وفي أجيأ في معبد اسكليوس، ووقف نفسه على مذهب فيثاغورس، سافر إلى الهند، وزار بابل ونيوى وهو في طريقه إليها، كما زار اليونان وإيطاليا وإسبانيا. وقصة حياته مليئة بالخوارق والمعجزات حتى عده الناس ساحراً، ولكنه كان يؤكد أنه لا يملك سوى عطية الاستبصار والتنبؤ. وبعد أن شجا بأعجوبة من نيرون ودومشيان، مات عن مائة عام في أفسس حيث أسس مدرسة فيثاغورية، وقد بلغ حد القداسة في هذه المدينة، حتى أن صورته كانت ترفع في كثير من المعابد. وقد ابتنى له «كاراكلا» معبداً، ونحن نعرف من كتابه «حياة فيثاغورس» وقد اعتمد عليه فرغوريوس ويامبليخوس، ونحن نعرف أن

من تأليفه أيضاً «رسالة في المعرفة»... إلخ إلخ^(١).

٢ - تلك كانت فكرة سريعة وعامة عن هذا الفيلسوف الذي أهتمت به «جوليا» وأمرت بتأليف كتاب عنه. فما الذى شد انتباهها إليه؟! لقد شد انتباهها فى الواقع بعض الذكريات عن «أبولونيوس» رواها تلميذه «داميس .. Damis»، وعرضها بأسلوب شيق قائلاً إنه: «يأمل أن يكون كتابه على شرف أبولونيوس، وأن تكون فيه فائدة لأولئك الذين يحبون العلم»^(٢).

لقد نظر بعض الناس إلى «أبولونيوس» على أنه ساحر وعراف، ويرى فلوستراتوس بعض الروايات عن قدرته السحرية، حتى أننا لا نستطيع أن نفرق فى أنشطته العادية بين الواقع والخيال، لكن الحقيقة أن أبولونيوس كان فيلسوفاً من المدرسة الفيثاغورية المحدثه، ولد فى طيانا Tayana فى إقليم كابادوسيا Cappadocia فى الجزء الشرقى من آسيا الصغرى، ودرس فى شبابه: فلسفة أفلاطون، والمدرسة المشائية، والرواقية، والأبيقورية، وفيثاغورس، وفى السادسة عشرة من عمره اعتنق حياة الزهد الفيثاغورية ومارسها، فامتنع عن تناول اللحم، وشرب الخمر، وأدان التضحية بالحيوانات كقرايين للأكهة، ولم يكن يرتدى من الملابس سوى المصنوعة من الكتان، كما كان طويل الشعر، ملتحيًا، وباختصار: عاش حياة الفقر والزهد والعفة، ومارس

١ - قارن حياته بالتفصيل : جورج طراييشى «معجم الفلاسفة»، ص ٣٦ دار الطليعة - بيروت.

٢ - اقتبسته بيرلانس زدار فى بحثها «جوليا دومنا» السالف الذكر ص ١٢٨.

طقوس المدرسة الفيثاغورية ومنها «الصمت»، إذ يروى عنه أنه ظل خمس سنوات في صمت مطبق، وتعلم كثيراً من الكهنة ورجال الدين في جميع البلدان، فعندما سافر إلى فارس - وهو في طريقه إلى الهند - التقى «بالمجوس» - كهنة الزرادشتية - كما التقى في الهند برجال الدين البراهمة وحاورهم في الهندوسية، والتقى بالفلاسفة «العرافة»، كما سافر إلى مصر وتعلم من كهنة وادي النيل. ثم اليونان، وإيطاليا، وأسيانيا... إلخ، كما سبق أن ذكرنا، ولقد اتهمه الإمبراطور نيرون .. Neron اتهاماً باطلاً بأنه خائن - وكذلك فعل الإمبراطور دومشيان .. Domitian واستطاع الإفلات من الموت بأعجوبة، ومات خلال حكم نيرفا Nerva، أعني فيما بين ٩٦ و ٩٨ م^(١).

وكان فيثاغورس الذي يعتبره «ابولونيوس» ملهمه الروحي، قد أسس في القرن السادس قبل الميلاد جماعة دينية - كما سبق أن ذكرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب، كانت تدرس العلوم ولاسيما الرياضيات - سارت على قواعد صارمة في حياتها كنوسيلة للتطهر والعمل على خلود النفس، وهي قواعد فصلنا فيها القول فيما سبق. وكانت الفيثاغورية المحدثه إحياءاً للتعاليم الفيثاغورية القديمة ممزوجة ببعض العناصر الأفلاطونية والصوفية. وكان مودراتوس - Modera tus، وأبولونيوس Appollonius أعظم ممثليها في القرن الأول الميلادي.

١- الإمبراطور الروماني ماركوس نيرفا (٣٥ - ٩٨) كان إمبراطوراً لروما لمدة عامين فقط من ٩٦ حتى ٩٨ .

لقد نظر بعض الباحثين إلى كتاب فلوستراتوس عن «حياة أبولونيوس» على أنه رواية، أو قصة خيالية. لكن بغض النظر عن دقة الكتاب من الناحية التاريخية، فهو كتاب هام بالنسبة لنا بوصفه سجلاً للمبادئ التي أحيتها «جوليا الفيلسوفة» ولإسيما وأننا لا نعلم عن كتب «جوليا» نفسها شيئاً، ومن ثم ففى غيبة تأليف «جوليا» فإننا سوف ننظر إلى هذا الكتاب لا على أنه كتب بتكليف منها فحسب، بل على أنه يكشف كذلك عن الأفكار الأساسية التي اهتمت بها، وأرادت تنميتها وتطويرها، ولقد دارت هذه الأفكار حول موضوعات متنوعة وهامة منها: الله، والإنسان، والخلود، والأخلاق الشخصية، والفلسفة السياسية... إلخ^(١).

ومن الواضح أن «أبولونيوس» عبر عن ميله لفلسفة فيثاغورس حيث يقول: «مذهبى الخاص فى الحكمة هو نفسه مذهب فيثاغورس فيلسوف ساموس.. Samos»، كما أنه تعلم من فيثاغورس الشيء الكثير حول السلوك العملى فى الحياة: ضبط النفس، والسيطرة على رغباتها، والسير بقواعد حكيمة. كما تعلم منه ضرورة عبادة الآلهة: «وإن يعترف بوجودها سواء أكانت ماثية أم لا»، وهكذا تعرف على الله خالق العالم الذى أخرج الأشياء جميعها إلى الوجود؛ لأنه إله خير^(٢).

وكان أسلوب العبادة الذى يسير عليه أبولونيوس هو نفسه أسلوب العبادة عند «جوليا»، إيتة الكاهن الأكبر لإله الجبل الذى عرفته

1-Beatrice H. Zedler Op. Cit. p.128.

2-Idid, P.129.

منذ نعومة أظفارها، عندما كانت تصلى لإله الشمس الذى كان يتحكم فى الفصول الأربعة وبذلك كان مصدر الضوء والنور والدار، وإنضاج المحاصيل، كما أن أبولونيوس - مثل جوليا - دعا إلى إقامة تماثيل للآلهة فى المعابد، واعتقد أن هذه التماثيل - سواء أكانت لأبولو، أو زيوس، أو أثينا - تمثل جهد العقل البشرى لتصوير الحقيقة المثالية. ولكنه نقى التراث المصرى الذى كان يصور الآلهة فى صورة حيوانات^(١)، ففى رأى أبولونيوس أن:

«هناك تشابهاً معيناً بين الآلهة والإنسان، ولقد مكّن هذا التشابه الإنسان من دون جنس الحيوان أن يتعرف على الآلهة، وأن ينظر فى الطبيعة والطريقة التى تشارك بها فى الجوهر الإلهى... إن الناس الطبيعيين الخسرين يحملون فى أعماقهم شيئاً من هذا الجوهر الإلهى»^(٢).

وهو يرى أن كل شئ يحمل فى داخله نفساً خالدة، ومصدر وجود هذه النفس هو «ما لا يتسل»، كما أنه اعتقد، مثل أفلاطون، أن

١ - يعتقد هيجل على العكس أن عبادة الحيوان تمثل الارتباط بين ما هو روحى وما هو طبيعى، ومن ثم فإن العبادة المصرية التى هى أساساً عبادة الحيوان هى الأكثر تطوراً ورفقاً، ويقول أيضاً: «من المؤكد أن الأمم التى عبدت الشمس والنجوم ليست أعلى قدراً من تلك الأمم التى عبدت الحيوانات، بل العكس هو الصحيح، لقد تصور المصريون فى عالم الحيوان الشئ الباطنى، وما هو غير قابل للإدراك... محاضرات فى فلسفة التاريخ «العالم الشرقى» ترجمة إمام عبد الفتاح إمام من ٢٠٣ - ٢٠٤ مكتبة مبدئى بالقاهرة.

2-Beatrice H. Zedler; Op. Cit. P.130.

النفس بما أنها مقيدة بجسد فإن فهي مسجونة، ومن ثم فقد قارن بين حياة النفس في البدن وحياة الإنسان داخل السجن، واعتبر الموت هو الخلاص أو الفرار من هذا السجن. غير أن أبولونيوس كان على وعي بأن هناك أراء مختلفة ومتنوعة عن النفس، ويعتقد فلوستراتوس أننا لو أخذنا بتعاليم أبولونيوس عن النفس «فإننا نستطيع - بفرح ومتعة، وبمعرفة جديرة بطبيعتنا البشرية - أن نشق طريقنا إلى الهدف الذي رسمته لنا ربات القدر Fates»^(١).

أما هو هذا الطريق الذي رسمته لنا ربات القدر، فذلك ما يتضح من نصوص كثيرة من سيرة حياة أبولونيوس، على الرغم من أنه لا يعرض بصوتاً نظرية في فلسفة الأخلاق، فإننا نجد تشديداً وتركيزاً عن حاجتنا إلى تحسين فضائل: الحكمة، والشجاعة، والعدالة، والاعتدال، وضبط النفس. ولقد اعتقد أبولونيوس أن الإنسان الذي يعيش الحكمة هو أعظم من كولوسوس رودس Colossus of Rhodes^(٢). أما بالنسبة للشجاعة فقد شدد أبولونيوس على أنه لا يكفي أن تمتلك الفضيلة كصفة، بل لا بد للمرء أن يمارسها أيضاً.

وكان أبولونيوس يعلم تلاميذه فضيلة العفة، والاعتدال، وضبط النفس، ولهذا فقد حصر نفسه - بالنسبة لاستخدام الأمور المادية - في

١ - ربات القدر Fates: ثلاث ربات في الأساطير الرومانية ومن: فاني، ولاكسيس، وكلوثو. ولكل واحدة منهن وظيفة خاصة تقوم بها في حياة الإنسان. راجع إمام عهد الفتح إمام «معجم ديانات وأساطير العالم» مكتبة مبدولي بالقاهرة.

٢ - تمثال ششم للإله الشمس هليوس Helios، كان ارتفاعه يزيد عن ٣٠ متراً، أقيم حوالي ٢٨٠ ق. م. ويعتبر هذا التمثال إحدى عجائب الدنيا السبع.

الضرورات الأساسية، لأنه اعتقد أن أسوأ الرذائل جميعاً هي رذيلة الجشع والشر؛ وفضلاً عن ذلك فقد انتقد السكر والنهم في تناول الطعام. كما اعتقد أنه لكي يبقى على ذهن الإنسان صافياً، فمن الأفضل أن يبقى «مرحاً في رصانة واتزان» وها هنا نراه يفضل أن تشرب الماء بدلاً من الخمر، وإن كان لا يطلب من أصحابه أو من الملوك الامتناع الكامل عن تناول الخمر، بل فقط الاعتدال في تناولها. يقول:

«... الفلسفة بالنسبة للملك هي أن يندمج الاعتدال والانفعاس معا ينسب معقولة، أو هي الإفراط والصرامة معا... لكي يكون لديه الكبرياء وعزة النفس».

ولقد دار النقاش حول موضوع العفة عندما تسامل داميس Da-mis تلميذ أبولونيوس؛ هل يمكن أن توجد فضيلة العفة لدى الخصى... ولقد أجاب أبولونيوس بقوله: «إن فضيلة العفة لا يمكن أن توجد لدى الخصى، طالما أن العفة الجنسية لا ترجع إليه هو، بمعنى أنه لم يختتر ذلك وإنما جاء رغماً عنه، وهو يذهب إلى أن العفة الحقيقية - مثلها مثل الاعتدال - لا تعنى العجز عن الإفراط أو الإقلال في أفعالك أو رغباتك، بل هي تنبع من القرار الذي تتخذه وتسير عليه، بحيث تجعل أفعالك ورغباتك تحت سيطرتك»^(١).

وفي مناقشة أبولونيوس للعدالة نراه يشدد أيضاً على المعنى الإيجابي للفضيلة، وي طرح السؤال الآتي: هل مجرد الامتناع من الظلم يشكل العدل...؟ لقد تعلم أبولونيوس من براهمة الهند أن العدالة هي

1-Beatrice H.Zedler; Julia Domna P.130.

أكثر بكثير من أن تعنى اللاظلم، أو عدم ارتكاب أفعال ظالمة؛ ذلك لأنها تتطلب من المرء أن يكون إيجابياً في فعل ما هو عدل، وأن يحث الآخرين على عدم ارتكاب الظلم^(١).

ولم يكن «أبولونيوس» مهتماً بأخلاق الفرد فحسب، بل أيضاً بأخلاق المجتمع، فقد كان مهتماً، بصفة خاصة، بالطريقة التي نحقق بها الانسجام في المجتمع، وكيف يمكن للفلسفة أن تعين الحاكم وتساعدته في أفعاله، وتقف بجواره وترشده في سلوكه. وهو يعترف من الناحية الواقعية بوجود منافسة بين المدن (أو الدول)، لكنه يعتقد أن هذه المنافسة ينبغي أن توجه نحو إبراز ما هي المدينة التي تقوم بأداء واجباتها على خير وجه، وتحقق بالتالي ما نسميه بالصالح العام. وكثيراً ما نراه يريد ما يقوله أفلاطون في «الجمهورية»: «... يبدو لي أنه من الأفضل لكل مرء أن يفعل ما يفهمه أحسن من غيره، وأن يفعل الفعل الذي يمكن أن يفعله أفضل من غيره...».

أما من حيث الفلسفة السياسية فقد اعتقد أبولونيوس أن النظام الملكي هو أفضل صور الحكم، ولاسيما إذا كان حاكم القطيع البشري راعياً عادلاً ولقد عاش هو نفسه تحت حكم العديد من الأباطرة الرومان، ذكر منهما اثنين على أنهما حاربا الفلاسفة والفلاسفة، فقد أصدر

i-Ibid, P.131.

الإمبراطور نيرون .. Neron^(١)، مرسوماً بتحريم الفلسفة، فلا يجوز لأحد في روما أن يقوم بتدريسها أو دراستها، وكذلك فعل الإمبراطور الثاني وهو دوميشيان Domitian^(٢) الذي جعل مجرد كلمة «الحكمة» إهانة أو إساءة يستوجب صاحبها العقاب، كما أصدر مرسوماً يعاقب الفلاسفة ويتحققهم، في الوقت الذي نجد فيه أباطرة رومان آخرين، من أمثال فسبازيان Vespasian^(٣)، وتيطس Titus^(٤) - يطلبون العون من أبولونيوس ويسائوتيه المشورة، ولقد قال في معرض رده على فسبازيان: «إن جلالة الملك لا يعلمه أحد، بل أقصى ما يستطيع أن يفعله

١ - نيرون Neron (٣٧ - ٨٦) إمبراطور روما ٥٤ - ٨٦ م تميز بهذه بالظلم والوحشية، أقدمته مشيخته أن أمه تتأمر عليه لتسقطه، فرفض أن يقتل المرأة التي حملته في بطنها، فطاردها رجاله حتى قصرها ولما قبضوا عليها خلعت ثيابها وقالت لهم «أذهبوا سيوفكم في رجلي»، واحتاج قتلها عدة طعنات، ولما رأى الإمبراطور جثتها العارية كان كل ما قاله «لم أعرف أن لي أمًا بعث هذا الجمال»، وكان نيرون يومها شاباً في الثانية والعشرين من عمره (عام ٥٩ م) مفرماً بالشعر والموسيقى، والغدق الجميلة، والتمثيل، أحرق روما عام ٦٤ م، واتهم المسيحيين بذلك واضطهدهم، وانتحر بعد أن ثار عليه القادة العسكريين في إفريقيا، وإسبانيا وبلاد الغال (فرنسا).

٢ - دوميشيان Domitian (٥١ - ٩٦ م) إمبراطور روماني (٨١ - ٩٦) ابن الإمبراطور فسبازيان. رقى العرش خلفاً لأخيه الإمبراطور تيطس Titus، كان حكمه استبدادياً يتسم بالقسوة والوحشية، حارب الفلسفة، وتعقب الفلاسفة.

٣ - فسبازيان Vespasian (٩ - ٧٩ م) إمبراطور روماني (٦٩ - ٧٩ م) حاول القضاء على تمرد اليهود بمحاصرة أورشليم (القدس)، ثم ترك الحصار لايته تيطس Titus وخرج إلى روما لكي يقر النظام فيها بعد انتحار «نيرون».

٤ - تيطس Titus (٣٩ - ٨١ م) إمبراطور روماني (٧٩ - ٨١ م) ابن الإمبراطور فسبازيان وخليفته أعاد بناء روما بعد أن أحرقتها نيرون.

أن يقدم له مجموعة من النصائح والإرشادات العامة منها:

* مارس سلطتك باعتدال.

* دع القانون يحكمك أنت قبل أن يحكم رعيته.

* احترم الآلهة.

* لتكون عاملاً خيراً وصالحاً.

فما الذى يمكن أن يهم الإمبراطورة «جوليا» من ذلك كله..؟ لا شك أنها اهتمت بالجوانب الأخلاقية والسياسية معاً: الأخلاق الشخصية التى تهتم الفرد فى سلوكه، والأخلاق الاجتماعية التى تساعد فى تحقيق الانسجام فى المجتمع. ومن ثم فقد اقتنعت تماماً بأن الفلسفة يمكن أن تكون مرشدة لا فى حياة المرء الشخصية فحسب، بل فى ممارسة السلطة السياسية أيضاً.

على الرغم من أن «فلوستراتوس» لم يكن قد انتهى بعد من تأليف كتابه عن «حياة أبولونيوس» عندما ماتت جوليا عام ٢١٧م - فإنها بغير شك كانت على علم بمضمونه، فهى التى أمرت بتأليفه وعاصرت مراحل هذا التأليف، وشجعت «فلوستراتوس» وساندته فى كل مرحلة. ومن ثم فقد ذهب أحد الكتاب، بحق، إلى أن هذا الكتاب: «يقدم لمحات مضيئة لذهن امرأة لعبت دوراً رائداً فى فترة حاسمة من التاريخ الرومانى»، وذلك بسبب أنها هى نفسها كانت عاشقة للفلسفة، كما كانت تؤمن بخلود النفس، وحاجة الإنسان إلى الفضائل العقلية والخلقية، بقدر حاجته إلى الإرشاد والتوجيه الذى يمكن أن تقدمه الفلسفة لأولئك الذين لديهم سلطة سياسية ويمارسونها.

وعلى الرغم من أن المذهب الفيثاغوري الجديد نسخته الأفلاطونية
المحدثة، فلاشك أن «جوليا» قد وجدت الكثير من الموضوعات التي
اهتمت بها عند أبولونيوس، وكانت جديرة بأن تعجب بها، كما وجدت
الكثير من التعاليم الفلسفية المألوفة في الفلسفة الكلاسيكية.

الختام:

تلك هي المرأة الالامعة التي كانت شعلة مضيئة في مدينة روما، فلماذا أطلق عليها المؤرخون في القرن الثالث الميلادي لقب «جوليا ... الفيلسوفة»؟

في استطاعتنا أن نجيب، في إيجاز، أن سبب التمسسية يرجع لانشغالها بالفلسفة، ودراساتها لكثير من الموضوعات والمشكلات الفلسفية، كما أنها أمرت بتأليف كتاب عن فيلسوف من الفيتاغورية الحديثة، رأت أن أفكاره لا بد أن يعرفها الناس لما لها من أهمية، كما أنها كانت على علم، وصلة مباشرة، بأفكار السوفسطائيين القدماء، وبمعلمي الخطابة من السوفسطائية الثانية في عصرها، وفضلاً عن ذلك كله فقد تعلمت هي نفسها من خلال صالونها الأدبي، وحلفتها الفلسفة، كما شجعت هي نفسها الآخرين أن يتعلموا، أما واقعة أنها كانت إمبراطورة، فقد كانت ذات مغزى خاص، لقد سبق أن رأينا أن بعض الحكام المسابقيين من الرجال الأشداء من أمثال «نيرون» و«دوميشيان» قد حرموا الفلسفة دراسةً وتدریساً، واضطهدوا الفلاسفة ونفوههم خارج البلاد، وأعدموها أساتذتهم على نحو ما فعل «نيرون» مع سنكا الفيلسوف الرواقي الكبير، عندما أمره بالانتحار، فقطع الرجل شرايينه وترك الدماء تسيل حتى قضى نحبه! أما «جوليا نونا» فقد استخدمت سلطتها الإمبراطورية في حماية الفلسفة، كما أنها ساعدت على ازدهار الفلاسفة، وأعطتهم المكانة التي يستحقونها، وأمرت بتأليف

الكتب عنهم، وتحليل أفكارهم، ومناقشة فلسفاتهم... وليس ذلك
بالإنجاز الهين^(١)؛

وتقول إثيل كيرزي Ethel M. Kersey ... إن «جوليا دوناء» .. أو
«جوليا الفيلسوفة» هي المرأة التي أهدى إليها ديجنز اللايرتي Dio-
Laertius كتابه الشهير «حياة مشاهير الفلاسفة»^(٢).

1-Bearrice H.Zedler: Julia Domna p.123 in "A History of Women Philosophers" Vol I..

2- Ethel M.Kersey: "Women Philosophers A Biocritical Source Book"
Greenwood Press, New Yourk, 1989, p.137.



الفصل السابع

«ماكريتنا ... Makrina»

«جوهر النفس هو قدرتها على التفكير العقلي،

ولا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة...»

ماكريتنا ... Makrian

أولاً: حياتها ومؤلفاتها:

ماكريتا Makrina (٣٢٠ - ٣٧٩ م) قديسة، وفيلسوفة يونانية، وصاحبة أقدم نظام ديني لزهد النساء وتنسكهن، نقل إلينا حياتها شقيقتها جريجورى Gregory (٣٢١ - ٣٩٦ م) أسقف نيسسا.. Nyssa من (٣٧ - ٢٧٦). وأحد آباء الكنيسة الشرقية، وأحد أبطال مجمع القسطنطينية (استانبول حالياً).

ولدت فى قيصريّة الجديدة عام ٢٣٠ فى القرن الرابع الميلادى، وهى تنحدر من أسرة أرستقراطية، كان والداها - باسيليوس وإيميليا - ينتميان إلى الطبقة الأرستقراطية، حيث كانت الأسرة تملك أراضى شاسعة يعمل فيها العبيد. صحيح أن أملك الأسرة صودرت، لكن من المحتمل أنها عادت إليها عند تولّى الإمبراطور قسطنطين للحكم. كان جدّها لأمها فقيهاً فى الديانة المسيحية، وضليعاً فى الفلسفة اليونانية على حدٍ سواء. ويخبرنا شقيقتها جريجورى كيف أن شقيقته «ماكريتا» عاشت حياة زهد وتنسك. ولقد أضطّار شقيقاها «باسيليوس»، و«بتروس» حياة الزهد أيضاً، ولقد خلدها شقيقتها الثالث «جريجورى» الذى امتدحها فى كتاب ألفه عنها بعنوان «حياة ماكريتا Vita Makrina»، ويذكر جريجورى أنه كان بينه وبين شقيقته مناقشات فلسفية حول خلود النفس والبعث والقيامة، حتى وهى على فراش الموت.

ولقد دون جريجورى هذه المناقشات فى محاوره جعل عنوانها «فى النفس والقيامة. De Anima et Resurrectione». بعد موتها مباشرة. ويتضح من هذه المحاوره أن «ماكريتا» كانت مثقفة ثقافة رفيعة، وإنها

كانت على دراية ممتازة بالفلسفة اليونانية، فقد علمتها أمها «إميليا Em-melia» لكنها لم تتلق أى تعليم رسمى، على نحو ما تعلم شقيقاتها فى أثينا. ولقد برهنت «مأكرينا» على عقلية ممتازة وعلم واسع بالموضوعات التى ناقشتها الفلسفة اليونانية منذ أفلاطون، ويذهب الباحثون فى حياتها إلى أن محاوره «فى النفس والقيامة» هى الشرط الثانى من محاوره فيدون لأفلاطون^(١).

i - Ethel M. Kersey: Women Philosophers: A Bio-Critical Source Book, "P. 146, Green Wood.

ثانياً : ماكرينا ... والقراث الروحي:

١ - وحدة النفس وخلودها

تدافع ماكرينا في محاوره «في النفس والقيامة» عن خلود النفس، في حين يلعب جريجوري دور الخصم، لكي تزدها الحقيقة وضوحاً وتألقاً، وتقلب القضية من جميع الجوانب. أما وجود النفس فهو أمر مسلم به طوال المحاوره على نحو ما جرت العادة في العالم القديم كله. وتصف ماكرينا طبيعة النفس على النحو التالي:

«النفس جوهر مخلوق حي وعقلاني تتغلغل فيه قوة الحياة، والقدرة على إدراك الموضوعات الحسية، وهي توجد في جسم عضوي مزود بالحواس، على قدر ما تهب الطبيعة هذه القوى»^(١).

ويذكرنا وصفها للملكات النفس بوصف أفلاطون في محاوره «فيدون»، فيما عدا أن ماكرينا تسمى النفس «بالجوهر المخلوق». أما في محاوره فيدون فإن أفلاطون يضع النفس في مرتبة وسطى بين العالم الحسي المرنى وعالم الخلل، أو العالم العقلي، وهو يقول في محاوره «طيمائوس... Timaeus»؛ إن النفس خلقها الصانع Demiurgos ولاسيما الجزء الأعلى منها، وهو الجزء العقلي...^(٢). وتذهب ماكرينا إلى أن النفس هي مبدأ الحياة والحركة، لأن بقايا الجسد الميت ومخلقاته

1 - Quoted By: Cornelia W. Wolfskeel L: Makrina, p.140.

2 - Plato: Timaeus 69. C.

عندما تصبح أشلاء هي ثمرات تختفى عند الموت، والتصور الذى يقول إن النفس هي مبدأ الحياة موجود عند أفلاطون في محاوره فيدون^(١) بوصفه التصور الذى يذهب إلى أن النفس هي ملكة الإدراك والتفكير، ولا يمكن أن تكون شيئاً مادياً.

غير أن برهان ماكرينا على خلود النفس ليس هو نفسه برهان أفلاطون في «فيدون»؛ فعندها أنه لا بد أن تكون هناك قوة عقلية وروحية قادرة على التوفيق والتنسيق، وتفسير نتائج كل فعل من أفعال الإدراك الحسى. وهذه القوة الروحية هي: النفس التى هي واحدة، وبسبب هذه الواحدية فإن النفس تبقى بعد فناء الجسد؛ لأن البسيط غير المركب لن يفنى عندما يتلاشى المركب، وهذا يعنى أن النفس التى هي مبدأ الحياة: خالدة. ويظهر هذا البرهان في الفصل السابع من محاورتها مع شقيقها جريجورى، ويعارض شقيقها فكرتها التى تقول إن النفس تبقى أيضاً مع العناصر التى يعود فيها الجسد للميت. غير أن «ماكرينا» تدافع عن قضيتها؛ ففى رأيها أن النفس واحدة، وروحية، وغير قابلة للفناء، ولا يمكن أن تنقسم إلى أجزاء مهما يكن نوعها^(٢)، إن النفس لا يمكن أن تكون مع عنصر - كما يقترح جريجورى - وتترك بقية العناصر، فواحدية النفس وعدم قابليتها للقسم، يضمنان عدم فناءها.

سوف نتحدث فيما يلى عن زهد «ماكرينا» وتنسكها، لكن لما كان

1-Phaedo,105.C.

2-Cornelia W. Wolfskeel Op. Cit. P.141.

هذا الزهد يمكن أن يفهم أفضل في ضوء تراث الزهد المسيحي، وغير المسيحي، الذي استمر قرونًا طويلة، فإنه يبدو من الأفضل أن تصف بإيجاز الحياة العقلية والروحية في القرن الرابع قبل أن نناقش فلسفة ماكرينا في شيء من التفصيل.

٢ - الزهد أو التمسك Asceticism

الزهد أو التمسك، بمسقة عامة، هو كبح الرغبات الجسدية والنفسية وقهرها؛ تحقيقاً لهدف ديني أو مثل أعلى روحي. وهي عملية روحية قديمة مارسها كثير من أتباع الديانات المختلفة، لكن يتخذ الزهد نظاماً أشد صرامة - في مظهره - في المسيحية التي قالت إن جسد الإنسان والأرض التي هو جزء منها مأخوذان بخطيئة آدم، فهما لا يستحقان من المسيحي الصحيح سوى الأزدراء، وأن الشيء الوحيد ذا القيمة هو الروح. ومن هنا نشأت ظاهرة الرهبانية Monasticism المسيحية التي تحتم على أصحابها الاعتزال في الأديرة والعيش فيها عيشاً قوامه: العزوبة، والعبادة، والفقير والصبر، والطاعة العمياء. وهذه الظاهرة ليست وقفاً على المسيحية، فلبوذية أيضاً رهبانيتها التي لا تقل صرامة عن رهبانية المسيحية.

ويلاحظ دودز، Dodds أن القرن الرابع الميلادي شهد ميلاً قوياً نحو الزهد - سواء في الديانة المسيحية أو غيرها - حتى أصبح ذلك الأنبل من السمات العامة لذلك العصر، وربما بدأ هذا الميل - في القرن الأول قبل المسيح - على يد الأفلاطونية المحدثة المبكرة التي نظرت إلى الحياة على هذه الأرض على أنها أدنى من الحياة العليا، وقد تضررت

النفس من البدن وما يحيط به من عالم مادي، أما الأفلاطونية المتأخرة فقد ذهبت إلى أن «نفس» الإنسان هي الوسيط بين العالم العقلي والعالم الحسي الذي ينتمي إليه جسده. ومن ثم فإن الإنسان لا يشعر أنه في بيته، وهو على هذه الأرض، وهو يريد أن يتجاوز هذه الحياة الأرضية. وهناك سمة رئيسية وجوهرية في نفس الإنسان هي أنها تحاول باستمرار أن تبقى على اتصال بالعالم العقلي، حتى أن هدف الإنسان أثناء وجوده على الأرض هو الوصول إلى «عالم المثل» بأن تعيش حياة زهد وتقشف، وعفة، وطمهارة، ونقاء، وبمعنى آخر: على الإنسان أن يحيى حياة يقوم العقل بتوجيهها إلى العالم العقلي؛ حتى يحمي نفسه من تجسد جديد بعد الموت. فلابد أن يكون ذلك هو الهدف الرئيسي لحياة الإنسان على الأرض. وتقوم النفس البشرية بمهمة مزدوجة في المذهب الأفلاطوني Platonism أثناء حياة الإنسان على الأرض، وتكشف هذه المهمة المزدوجة عن تناقض في «النفس»؛ لأنها تجد نفسها في مرتبة وسطى بين العالم المعقول والعالم المحسوس، أما عند أفلاطون Plotinus (٢٠٤ - ٢٧٠ م) وتلميذه فرغوريوس Porphyry (٢٢٢ - ٣٠٤ م)، فإن المرتبة الوسطى للنفس تؤدي إلى ظهور الزهد والتنسك نتيجة للإفراط في التأمل المجرد.

وهكذا ظهرت سمة عامة للأفلاطونية المجددة هي الحط من كل ما هو مادي، والتطلع - في شوق عارم - لتجاوز هذه الحياة الأرضية عن طريق الزهد والتنسك. ولهذا قيل إن التصوف عند أفلاطون كان

تصوفاً من نوع خاص، إنه «تصوف عقلي»^(١)، فقد نظر إلى الفضيلة الأخلاقية وحياة الزهد والتأمل العقلي على أنها وسائل أساسية، وجهود ضرورية تبذلها النفس البشرية، حتى تتحرر من قيود الحياة الجسدية. وهكذا لا تكون الحياة الفاضلة ممكنة بدون درجة معينة من الزهد، أو قل إن حياة الزهد ضرورية لكي نصل إلى العالم العقلي، عالم المثل الذي توحد الأفلاطونية المحدثة بينه وبين العقل الإلهي أو النوس، Nous، وتنتظر إليه على أنه المثال الحق للفضيلة.

ولقد كتب «فرقريوس» إلى زوجته مارسلا.. Marcella يقول إن التطهر والزهد يكمنان خلف توظيف العقل، وذلك هو الطريق الوحيد للوصول إلى الله، ولهذا فإنه ينظر إلى الرجل والمرأة على أنهما متساويان من حيث «النفس»، وهما معاً قادران على الدخول في حياة الزهد والتفكير، والقيام بالممارسة العقلية التي تحقق الهدف النهائي للحياة، ألا وهو الاتحاد بالله^(٢).

٣ - الغنوصية ... Gnosticism^(٣)

الغنوصية، أو مذهب العرفان، مذهب عقلي نشأ في نطاق

١ - التسامعية الرابعة لأفلامين - دراسة وترجمة للدكتور فؤاد زكريا - وزارة الثقافة بمصر - الهيئة المصرية عام ١٩٧٠ ص ٥٢.

2 - Cornelia W. Wolfskeel: Makrina, P.142.

٣ - مصطلح الغنوصية .. Gnosticism مشتق من الكلمة اليونانية «غنوس Onosis» ومعناها: المعرفة.

الكنيسة المسيحية خلال القرن الأول الميلادي، وازدهر بصفة خاصة خلال القرن الثاني للميلاد، أكد أصحابه أهمية المعرفة الروحية بأكثر مما أكدوا أهمية الإيمان، كما حاولوا التوفيق بين تعاليم المسيح والفلسفات الإغريقية والشرقية، وأنكروا التفسير الحرفي للكتاب المقدس. ومن أجل ذلك اعتبرتهم الكنيسة هرطقة.. Heretics. ومارقين عن الدين.

وتوجد خصائص الزهد أيضاً في الغنوصية التي تنظر إلى العالم الحسي باحتقار، وتعتبره شراً في ذاته، فقد اعتبرت المادة مبدأ مستقلاً، ومصدر كل شر. وهذا ما تجده في مذهب «باسيليديس.. Basilides»^(١) أحد أتباعها. كما أن العالم الحسي لم يخلقه الله العلي العظيم في مذهب «فالنتينوس.. Valentinus»^(٢)، بل خلقه «الصانع» ومساعدوه، وهي كائنات شريرة وأرواح دنسة عن طريقها تدلف إلى الخليقة الانفعالات والأهواء. وهذه الخليقة هي نفسها التي أضاف إليها الله للعنى العظيم بذرة من الجوهر العلوي هي: الروح. وكل تاريخ العالم هو تاريخ الكفاح ضد جماعة الشياطين التي تحاول القضاء على هذه البذرة. ويمكن للقارئ أن يلاحظ بوضوح ما في الغنوصية من ثنائية مانوية، فقد كان

١ - غنوصى مصرى سكندري من النصف الأول من القرن الثاني الميلادي، وهو مؤسس إحدى عبادات الأسرار التي استمرت قروناً بعده.

٢ - غنوصى مصرى كتب باليونانية - ولد في أواخر القرن الأول الميلادي ومات حوالي ١٦٦ م. أصله من مصر درس في الإسكندرية، وطاف حول البحر الأبيض، عكف في روما على دراسة النصرانية، وانتهى به الأمر إلى اعتناقها، اتهم بالهرطقة بسبب أفكاره الغنوصية. ولم يحل ذلك دون انتشارها والتأثير في كثرة من التلاميذ الذين انتسبوا بعد وفاته فقتلوا: المدرسة الأنطاكية، والمدرسة الإيطالية.

العالم – والمادة في ذاتهما – شر في مذهب مانى Mani^(١)، والخيط المشترك بين جميع المذاهب الغنوصية هو أنه لا بد من إنقاذ الإنسان من هذا العالم، واحتقار الجسد والمادة والأمور الدنيوية، وهذه الخاصية موجودة في الغنوصية منذ سيمون Simon المجوسى^(٢) الذى قام بكثير من الأعمال السحرية التى تشبه ما تدعو إليه الغنوصية – أدت إلى الزهد الذى تغلغل في المسيحية المبكرة، غير أن هذا التشابه لا يقدم لنا رابطة أساسية بين الغنوصية والمسيحية.

٤ - الغنوصية، والمسيحية، ودونية المرأة

كانت الغنوصية، إذن، تعتقد أن الشر الأصلى لهذا العالم حقيقة واحدة، وهى تفسر وجود هذا الشر بسبب أن هناك «صانعاً» هو الذى أوجده من مادة شريرة، وليس الخالق العظيم. أما المسيحية فهى، من ناحية أخرى، تؤكد خيرية العالم، وخيرية الله، فالعالم خلقه الله العلى العظيم وهو إله خير، ولهذا جاء العالم خيراً فى أصله، لكنه أصبح شريراً عندما عصى الإنسان إرادة الله، ولهذا تجاذب الموقف المسيحى بين رفض العالم وقبوله، ولا سيما فى بداية المسيحية. فالكون الذى

١ - مانى بن فاثك (٢١٦ - ٢٧٤ م) من أتباع الفرس، جاء ليتم عمل زرادشت ويروا والمسيح، وتكمن الثنائية Dualism؛ قاله العلى العظيم يعارضه أمير الظلام، واللائتان عنصران أوليان والعالم مخلوق من أجسام حكام الظلام ولهذا فهو شر. راجع فى ذلك كله «المعتقدات الدينية لدى الشعوب» ترجمة د.إمام عبد الفتاح إمام ص ١٥٠ وما بعدها، مكتبة مدبولى، بالقاهرة.

٢ - أعمال الرسل: الإصحاح الثامن: ٩ - ١٠.

نراه لا بد من قبله على اعتبار أنه خير أو حسن: «ورأى الله كل ما عمله
فيما هو حسن جداً» (سفر التكوين الإصحاح الأول: ٣١) لكن بسبب
واقعة أنه «شر» لا بد من رفضه. ويبدو أن تيارات الزهد التي كانت قائمة
في القرن الأول الميلادي – انعكس أثرها على الزواج، متأثرة في ذلك بما
جاء على لسان القديس بولس – مؤلف سفر الرؤيا – والنظر إلى
العذرية على أنها أفضل من الزواج^(١).

ويشير بعض الباحثين إلى أن الإنسان قد شعر بعدم الأمان، في
العصر القديم في عالم يسوده التغيير المستمر، فحاول أن يهرب من هذه
المضاعف المقلقة، وأن يبحث لنفسه عن مأمن في نوع من «الغوص»..
Gnosis وهو استبطان المرء، وضياع ذاته في المناطق المجهولة من
النفس، وفي كراهية هذا العالم. واتخذت المرأة التي كان ينظر إليها على
إنها مجرد جسد مادي – إلى مرتبة أدنى من الرجل في جميع المذاهب
الغنوصية، وهكذا اعتبرت المرأة خطراً على الرجل، وتجسدت للمشاعر
التي يهرب منها حتى دفعت إلى أن يسلك في حياة الزهد والتسلط^(٢).

١ – تارن «حسن للرجل ألا يمس امرأة». رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس
الإصحاح السابع: ١. وايضاً: «أقول لغير المتزوجين والأرامل أنه حسن لهم إذا لم يثابروا
لما أئنا» – ٨ من نفس الإصحاح. وانظر ايضاً: «هؤلاء هم الذين لم يتجسسوا مع
النساء لأنهم أطهار... رؤيا يوحنا اللاهوتي الإصحاح الرابع عشر: ٤.

2 - Cornelia W. Wolfskeel: Makrina, P.143-144

ثالثاً: ماكريتنا ... وروح المرأة:

يرى جريجورى شقيق «ماكريتنا» تعريفها للنفس «فى محاوره فى النفس والقيامة»، لكنه يعتقد أن هذا التعريف غير كافٍ فى تفسير ملكات النفس، فهو يعتقد أن هناك ملكات أكثر من ملكات التفكير، وإعطاء الحياة، والإدراك الحسى، فهناك أيضاً ملكات خاصة بالرغبة والغضب التى يمكن النظر إليها كدوافع لكثير من الانفعالات، ومن الواضح أنها ليست جسدية، ومن ثم لا بد أن تنتمى إلى النفس أكثر من أن تنتمى إلى البدن. أو أن نقول بوجود نفس أخرى. وهاتان الفكرتان مستبعدتان عند ماكريتنا مادامت ماهية النفس هى ملكة التفكير، فالانفعالات – من ناحية – لا يمكن أن تنتمى إليها، كما أننا لا نستطيع أن نفترض وجود فى نفس أخرى بداخلنا – من ناحية أخرى.

وأجابت ماكريتنا أن اعتراضات «جريجورى» وجيهة، فلاشك أن بداخلنا انفعالات كالجوع والرغبة، لكن هل هذه الانفعالات تنتمى إلى ماهية النفس؟ أم أنها أضيفت إليها بعد ذلك؟ تلك أسئلة ينبغي بحثها والإجابة عنها، ولتعتقد ماكريتنا أن على أولئك الذين يتحدثون عن النفس أن يضاعوا الكتاب المقدس فى أذهانهم. فالكتاب المقدس يقول إن النفس مخلوقة على «صورة الله»، فهى إذن تشبه الله، وعلى ذلك فلا يمكن أن تكون فيها انفعالات ولا أشجان!

غير أن «جريجورى» يعود إلى السؤال: وماذا تظنين فى أمر الانفعالات: الرغبة، والغضب، والجوع، وما إلى ذلك؟ وتجييب ماكريتنا: إن هذه حركات داخلية لا تنتمى إلى ماهية النفس، وإنما هى فقط مجرد

قشور Incrustation للنفس؛ لأننا، جميعاً، قادرون على محاورة هذه الانفعالات والانتصار عليها، وهى قدرة تكون فى بعض الأحيان عظيمة النفع لنا.

عرضنا بإيجاز أهم سمات النقاش بين ماكريتا وجريجورى. حيث تظهرنا ماكريتا على إلمام بالفلسفة اليونانية، بما فى ذلك محاورة «فيدون» لأفلاطون، وكتاب النفس De Anima لأرسطو، ثم يتصل الحوار بينها بعد ذلك نتيجة لتعليق ماكريتا القائل بأن جميع الانفعالات يمكن ردها إلى انفعالى: الرغبة والغضب، دون أن نعتبرهما ينتميان إلى ماهية النفس، لأن ملكة التسفكير هى جهد النفس. ويعترض «جريجورى» على استبعاد الانفعالات من طبيعة النفس رغم أن الكتاب المقدس لا يعتبر الانفعالات سببة باستمرار، ومن ثم فهى ليست دائماً مما يجدر استبعاده والتخلص منه. وتوافق «ماكريتا» على ذلك، لكنها تعود فتقول إننا نحن الذين نوجه الانفعالات فنجعلها أحياناً حسنة وأحياناً سيئة. كما أنها تشدد على وأحدية النفس، وعدم قابليتها للقاء، وخلودها بفضل هذه الواحدة، والنفس البشرية الخالدة تبقى بعد موت البدن.

لاتتابع «ماكريتا» تعريف أرسطو للنفس من «أن النفس كمال أول لجسم طبيعى ذى حياة بالقوة»^(١)، فهو يرى أن النفس هى

١ - أرسطو «كتاب النفس» ٤١٢ ظ - ترجمة الدكتور أحمد نؤاد الأهوانى -
مراجعة على اليونانية الأب جورج قنوتى، الطبعة الأولى ١٩٤٩، دار إحياء الكتب
العربية، ص ٤٧ - ٤٣.

«صورة» أو ماهية الجسم الطبيعي، ولهذا فلا يمكن فصلها عن البدن، ومن هنا فإن النفس تموت بموت البدن - وينطبق ذلك على النفس النباتية والحيوانية، بقدر ما ينطبق على النفس البشرية. غير أن النفس البشرية عند «ماكرينا» تمتلك أيضاً ملكة التفكير أو النوس .Nous، وهي تأتي من الخارج وغير قابلة للقضاء. وتلاحظ «ماكرينا» أن ملكات النفس هي القوة التي تهب الحياة والتفكير، والقدرة على الخلق والإبداع في المادة. وعلى الرغم من أن أرسطو بحث جميع مظاهر النفس، فإنه ذهب إلى أن النفس قاذية، ولهذا فإن «ماكرينا» تلوم أرسطو لأنه لم ينته من هذه الوقائع إلى إدراك وحدانية النفس وبالتالي خلودها. ويكمن تصور «ماكرينا» لوحدة النفس خلف نقدها لوجهة نظر أفلاطون في الانفعالات، حيث يقول في محاضرة «فايدروس» بالتشبيه المجازي الشهير للنفس بالعربة يجرها جوادان جامحان مسئولان عن الانفعالات. وترفض «ماكرينا» هذا التصور؛ لأن النفس، عندها، واحدة وشبيهة بالله، وهي أساساً «بلا انفعالات»^(١).

ولقد أصبح من الواضح من مناقشة «ماكرينا» لطبيعة النفس وللخلق البشري، أنها لا ترى فروقاً جوهرية بين نفس الرجل ونفس المرأة، فجوهر النفس عندها، هو قدرتها على التفكير العقلي، ولا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة، وليست الانفعالات أجزاء جوهرية من النفس. ولا تلوم «ماكرينا» النساء - كما فعل كلمنت الإسكندري - على

1- Cornelia W. Wolfskeel: Makrina, P.145.

الانفعالات الشريرة أو الرذائل المختلفة^(١)؛ ذلك لأن «ماكريتا» كما رأينا لا تذهب إلى أن الانفعالات جزء من ماهية النفس بحيث تصبح جزءاً من طبيعة المرأة «بقدر ما يعود إلى الاختيار الحر لدى كل امرأة وهذا، تقع المسئولية على عاتق النساء فرادى، ولكنها لا ترجع إلى الطبيعة الجوهرية للنفس عند المرأة - وهو فهم أعمق كثيراً من تصور كلمنت الإسكندري الذي اعتبر طبيعة المرأة بما هي كذلك .. شيئاً مخزياً ومجلاً حقاً»^(٢)، أما «ماكريتا» فتبني أن طبيعة النفس واحدة، وهي سواء عند الرجال أو النساء، وهي مخلوقة على «صورة الله» وشبيهة به....!

ويبدو أن شقيقها باسيليوس Basilius الملقب بالأكبر، وأحد «الأقمار الثلاثة»^(٣) - كما قيل عنه - وهو من معلمى الكنيسة - كان يشاركها هذه النظرية، فنحن نراه يشرح الإصحاح الأول من سفر التكوين بقوله:

١ - قارن رأى كلنت الإسكندري في المرأة كتابنا «الفيلسوف المسيحي... والمرأة»، ص: ٦٦ وما بعدها، مكتبة مديولى بالقاهرة (العدد الثالث من سلسلة الفيلسوف والمرأة).

٢ - المرجع السابق، ص: ٦٨.

٣ - هو الأخ الأكبر للكريتا (٣٢٩ - ٣٧٩ م) درس أولاً فى القسطنطينية ثم فى أثينا، وعندما توفي والده عام ٣٥٦ م عاد إلى قيصريه ليعلم فيها البيان. تنصر ثم طاف بمراكز التنسك والزهد فى سوريا، وما بين النهرين، ومصر، وبعد هذه الرحلة باع أملاكه ووزع ثمنها على الفقراء، وعاش متوحداً فى الريف بعيداً عن المدينة.

«تمتلك المرأة أيضاً خصائص الموجود الذى خلق على صورة الله بنفس الطريقة التى يمتلك بها الرجل هذه الخصائص، فطبيعتيهما واحدة، ومتساوية فى الشرف، متساوية فى الفضائل، متساوية فى المنافع، متشابهة وقت الإدانة...»^(١) ومعنى ذلك أن «باسيليوس» ينظر إلى النفس - أو الذهن أو العقل - عند الرجال والنساء على أنه واحد، وعلى أنه صورة لله، أو هو قبس إلهى. وهما معاً - الرجل والمرأة - قادران على تحقيق التشبيه بالله عن طريق الفضائل المختلفة، وإن كان التشبيه الكامل لا يحققه - فى رأيه - سوى المسيح نفسه الذى كان كاملاً من كل وجه. وهكذا ينظر باسيليوس إلى المرأة على أنها مساوية للرجل فيما يتعلق بقدرتها العقلية والروحية: «وذلك لأنها خلقت على صورة الله، فلها نفس العقل - أو الذهن - ومن ثم فلها الغلبة والسيطرة، كالرجل، على المخلوقات الأخرى (الدواب) وعلى رغباتها الدنيا...»^(٢).

1-Quoted by Cornelia W. Wolfskeel: Makrina, P.147

٢- أفلوطين «التساعية الرابعة» ترجمة ودراسة بقلم- د. فؤاد زكريا ص ١٨٠، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، عام ١٩٧٠.

رابعاً: ماكرينا ... والخلق، والتجسيد، والقيامة

تدبح آراء ماساكرينا عن «الخلق» من فكرتها عن الانفعالات: فالإنسان في الكتاب المقدس يقف على رأس المخلوقات، ومن ثم كانت النباتات والحيوانات تلي الإنسان في ترتيب الموجودات، وتذهب ماكرينا إلى أن النفس النباتية موجودة في النبات، على حين أن النفس النباتية بوظائفها، وكذلك ملكات الإدراك الحسي في أن واحد موجودة في الحيوان، أما جوهر النفس البشرية فهو قدرتها على التفكير، غير أن النفس مرتبطة كذلك بالطبيعة الحيوانية. ولقد اقتنعت «ماكرينا» بأن النفس خالدة، وأنها هي العنصر للعناصر التي يعود فيها الجسد بعد الموت. فالتجسد، عندها، يعاد نسجه من العناصر القديمة في بدن أشد دقة، وسوف يشبه هذا البدن الروحي الجديد الجسد السابق، حتى أن النفس سوف يسهل عليها أن تتعرف عليه.

١ -- ماكرينا وتراث أفلوطين

يبدو أن توحيد «ماكرينا» بين الله والخير والجميل، له أصول في الأفلاطونية المحدثة، ولاسيما التسامية الأولى، والسادسة لأفلوطين. فضلاً عن أن أفلوطين يؤكد في التسامية الرابعة أن للنفس البشرية مهمة مزدوجة وإن كانت واحدة: «النفس واحدة وإن اختلفت الملكة التي تعمل في كلتا الحالتين. جميع الملكات الأخرى توجد في كل من هاتين

الملكتين»^(١)، ويقول إن الجمال الموجود في العالم الحسنى هو حث للنفس البشرية للمسمى نحو جمال العالم المعقول الذى يكون العلم المحسوس نسخة أو صورة أو شبيه له، ويتساءل أفلاطون في التساعية الخامسة: لم تركت الأنفس الله والدها؟ لقد تجسدت في البدن لكنها تتطلع شوقاً تجاه العالم المعقول، أعنى تجاه الله، وهو يذهب إلى أن العالم المعقول لاشر فيه، وإذا كان العالم المحسوس صورة أو نسخة منه فإن ذلك يعنى أن هذا العالم المرى يشارك بدرجة ما فى ضروب من «الخيرية»، رغم وجود العنصر المظلم فى ذلك العالم ألا وهو «الهيولى» أو المادة. وعند أفلاطون أن النفس البشرية أثناء وجودها فى البدن عليها مهمة للمحافظة عليه، لكن عليها أيضاً مهمة أخرى هى البحث عن طريق العودة إلى العالم العقلى الذى جاءت منه، وهو يعتقد مثل أفلاطون فى (طيمائوس ٨٧هـ) أن الإنسان مركب من نفس وبدن (التساعية الأولى) وهذا يعنى أن الجسد الثانى هو أنسب جسد لطبيعة الإنسان، ولا علاقة لفنائه بسقوط النفس، فالنفس المتجسدة فى بدن هى وحدها التى يمكن أن تخطئ. لكن ليس جسد الإنسان مما يمكن استعادته فى نهاية الزمان إلى العالم المرى المحسوس، وهو جزء من مسار أزالى للغيبض.

وعلى العكس من ذلك تذهب ماكرينا إلى أن فناء جسد الإنسان الحالى سببه «السقوط»، أعنى سقوط الإنسان فى الخطيئة الأولى، فقد كان لدى الإنسان، قبل الخطيئة، جسد بلا انفعالات (انظر كتابها فى

١ - أفلاطون «التساعية الرابعة» ترجمة ودراسة يقدم د. فؤاد زكريا، ص ١٨٠، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر عام ١٩٧٠.

النفس والقيامة الفصل الثامن عشر^(١).

وتعتقد «ماكريتا» أن الجسد الروحي الذي يخلو من العواطف والانفعالات سوف تسترده النفس يوم القيامة. لقد كان أفلاطون في محاوره «طيماتوس» يذهب إلى أن فناء الجسم البشري ينتمى أيضاً إلى طبيعة الإنسان، وقد صنعتها الآلهة الميثية، في حين أن نفس الإنسان قد خلقها الصانع .. Demiurgos بنفسه، وهكذا كان الإنسان مركباً من النفس والبدن، وأصبحت مهمته الحياة في هذا العالم - كما جاء في محاوره طيماتوس (٤١ هـ و ٤٢ هـ)، وقد يقلت الإنسان من التجسيد أو التناسخ إذا ما عاش في البدن حياة حسنة مستقيمة. أما «ماكريتا» فمن الواضح أنها تختلف عن أفلاطون في تفكيرها فهي تذهب إلى أن الجسد البشري سوف تكون له قيامة، وسوف تسترده النفس في نهاية الزمان بطريقة خاصة.

تقول:

«سوف ترى، عندئذ، أن هذا الثوب البدني الذي تحلل الآن عن طريق الموت، سوف ينسج من جديد من العناصر ذاتها، لا بناء على تركيبه الحالي الثقيل، وإنما سوف يغزل من خيوط أكثر رقة وأشد دقة.»^(٢).

وعلياً أن نلاحظ أن «القيامة» فكرة مسيحية قلباً وقالباً، وأن

1- Cornelia W. Wolfskeel: Makrina P.157.

2- De Anima et Resurrectione "Quoted by Cornelia, Ibid, P.158.

«ماكرينا» تعتمد في هذه الفكرة على الكتاب المقدس، على نحو ما سوف يتضح فيما بعد.

٢ - ماكرينا... وفورفوروس

توجد عند فيلسوف الأفلاطونية المحدقة «فورفوروس» - تلميذ أفلوطين - وجهة نظر يمكن أن نقارنها بأفكار أستاذه، فالتمييز لا يعتقد أن الأشياء المادية أو الجسمية Corporeal سيئة أو شريرة، على الرغم من أنه، يعتقد أن من الضروري للنفس أن تهرب من جميع الأشياء الجسمية، لكي تبلغ هدفها الحقيقي في العالم العلوي. إن على البشر أن يتصوروا الله حاضراً في كل ما يقومون به من أفعال؛ فهو يراقب تصرفاتهم وأفعالهم. والله هو علة كل ما هو جميل وخير في العالم، في حين أن أفعال البشر هي علة الشر الأخلاقي. لقد كان أفلاطين يعتقد أن الخطيئة في العالم سببها أن الإنسان يستسلم لأشياء هي أدنى من النفس، وعنده أنه عندما يولد المرء (وهو هنا يتابع أفلاطون في طيمائوس ٤١ - م) يضاف إليه نوع آخر من النفس تنتمي إليها الانفعالات المربعة، وذلك إضافة إلى النفس العاقلة العليا في الإنسان، وهكذا تصبح النفس البشرية مركبة، وهذه «التركيبية» هي التي يمكن أن ترتكب الخطايا، في الوقت الذي تظل فيه النفس العليا للإنسان - التي هي الذات الحقّة - كما هي لا تمس. أما فورفوروس فهو يقول صراحة إن علة الخطايا الكبرى ينبغى ألا يبحث عنها داخل البدن، بل داخل النفس، وهو يرى أن الفضيلة هي الطريق الوحيد إلى الله، والإنسان الذي يلهث وراء اللذة يتعارض تعارضاً مطلقاً مع حبه لله. إن على المرء أن يتخلى عن

الانفعالات ويكبح جماح الإحساسات التي تثيرها، وهو يرى مثل أستاذه أفلاطون أن النفس يمكن أن تتجسد مرة أخرى بعد الموت، رغم أنه يرفض صراحة تصور أفلاطون الذي عرضه في طيماوس والذي يقول إن النفس يمكن أن تتجسد مرة أخرى في جسد حيوان. والمرء خلال حياته على هذه الأرض يمكن أن يجد ثراه الروحي داخل نفسه، ويمكن أن يعمل العقل؛ لأن عقل الرجل الحكيم (أو المرأة الحكيمة) هو معبد لله، والله هو الموجود الوحيد الذي يحتاج إليه الرجل الحكيم أو المرأة الحكيمة. ويعارض فورفوريوس في كتابه «ضد المسيحيين Kata Christianoon» الذي وضعه في خمسة عشر باباً - عارض العقيدة المسيحية في قيامة الجسد. فعنده أن فكرة القيامة تتناقض مع تصور أزلية العالم. غير أنه يذهب إلى أن روح الإنسان الطيب لا يمكن أن تهبط من جديد أبداً، مادامت الحكمة الكاملة لا يمكن أن توجد في هذه الحياة الدنيا، والحياة بعد الموت لا بد أن تكتمل عن طريق الوجود الإلهي.

٣ - ماكرينا... وتراث فيلو السكندري

فيلو السكندري (٣٠ ق - ٥٠ م) فيلسوف يهودي، أكبر ممثل للفكر اليهودي المثقف باليونانية في ذلك العصر، أثر تأثيراً قوياً في فكر الآباء (آباء الكنيسة)، كما أدخل عنصراً جديداً في تاريخ الفلسفة هو الروح. كان يسمى بأفلاطون اليهود؛ لأنه حاول أن يوفق بين اليهودية والأفلاطونية. درس «فيلو» موضوع خلق الإنسان في كتابه «في الخلق» وأماكن أخرى، وشرح عقيدة «صورة الله» الواردة في الإنجيل الأول من سفر التكوين، غير أن شرحه معقد وقد أسى فهمه.

فهو في بعض الفقرات يتحدث عن المرأة بوصفها موجوداً أدنى من الرجل، ويعتبرها مسئولة عما في العالم من شرور، وفي أحيان أخرى يتحدث عنها على أنها صورة الله، وأن الله خلقها على صورته، أما النفس العاقلة عند الإنسان، التي هي نسخة من العقل الإلهي Divine.. Logos لا جنس لها، فالتعارض بين الجنسين الذكر والأنثى يفتى إلى العالم الحسي المرئي، فلم يفكر «فيلو»، من الناحية النظرية، أن لدى الرجل والمرأة معاً نفساً عاقلة، ولهذا فهما معاً «مخلوقان على صورة الله»، لكنه - رغم ذلك - يعتبر المرأة الموجودة فعلاً أدنى من الرجل، وهي علة الشرور في هذا العالم. وكان «فيلو» أول فيلسوف قدم تفسيراً فلسفياً للإصحاح الأول من سفر التكوين، ولقد اقتنع فيلو - مثل أفلاطون - أن الله لا يمكن أن يخلق أى نوع من أنواع الشر، كما أنه يفسر قصة السقوط في سفر التكوين على أنها رمز لسقوط العقل عندما أغوته الحواس والعواطف والانفعالات، لكن الإنسان قادر بواسطة هذا العقل نفسه على العودة إلى حالته الأصلية، وهو يرى أن الله الذي لا يمكن أن يضع الشر، ولا يمكن أن يكون علة لأى نوع من أنواع الشر في العالم، خلق هذا العالم المرئي بإرادته الخيرة، وهدف الإنسان على الأرض هو ممارسة الفضائل المختلفة مع جيرانه. وهذا هو معنى الاتحاد بالله، والنفس التي تتطلع شوقاً إلى الله سوف تحقق هدفها بهذه الطريقة.

٤ - ماكريتنا... ونظريات التجسيد

درست «ماكريتنا» النظريات المختلفة للتجسيد التي كانت معروفة بين فلاسفة اليونان^(١)، ورفضتها جميعاً؛ لأن هذه النظريات تعنى وجود حركة دائرية للأرواح بين السماء والأرض، وهذه الحركة فى عودتها، تفترض سلفاً سقوط النفس كسبب لظهورها على الأرض من جديد. وتعتقد ماكريتنا أن هذه الفكرة تتناقض مع خيرية الله ومع العناية الإلهية، فإذا كان وجود الإنسان سببه الخطيئة، فإن ذلك يعنى أنه لن يكون صالحاً للفضيلة، وفى الفقرة الرابعة من كتابها فى «النفس والقيامة» ترفض ماكريتنا، بوضوح، الفكرة التى تقول إن نفوس البشر العاملة يمكن أن تتجسد أو تتناسخ من جديد فى أجساد الحيوانات والنباتات كنوع من أنواع العقاب عما ارتكبه من خطايا، فلقد صور أفلاطون حياة النفوس المختلفة وهى تتجسد فى حيوانات مختلفة: فهذه نفس تتجسد فى صورة بجعة، و«نفس» المغنى والشاعر «ثاميريس Thameris» تتجسد فى بلبل، وغيرها فى صورة أسد وهكذا^(٢) كما أن «أفلوطين» لم يستبعد تماماً إمكان تجسد النفس البشرية فى أجسام الحيوانات والنباتات، ومعنى ذلك أن النفس البشرية عند هذين الفيلسوفين يمكن أن تفقد خاصيتها «العاقلة» كنتيجة لارتكابها للأفعال

١ - كانت الآية الواردة فى «سفر التكوين»: «خلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكر وأنثى خلقهم» - مصدر إرباك كبير لأعداء المرأة، كما كانت موضوع مناقشات لا حصر لها، انظر كتابنا «الفيلسوف المسيحى... والمرأة العدد الثالث من سلسلة «الفيلسوف... والمرأة» مكتبة مديونى بالقاهرة.

٢ - انظر «فى النفس والقيامة» الفصل الرابع عشر فقرة ٢.

الشريرة، ومن ثم تتجسد لهذا السبب فى موجودات أدنى، ولقد سبق أن رأينا أن «فورقوريوس» هو الذى رفض هذه النظرية، ورأى أن النفس البشرية لا يمكن أن تفقد أبداً خاصيتها العقلية، ومن ثم رفض إمكان أن تتجسد فى أجسام الحيوانات.

أما «ماكرينا» فقد عارضت فكرة التجسد بوضوح، ولا سيما إسكان تجسد النفس البشرية فى النباتات والحيوانات. وذهبت إلى أن ذلك سوف يعنى تدمير التفرقة بين الإنسان والحيوان، فضلاً عن ذلك فإن الحركة الدائرية للنفس البشرية مرفوضة؛ لأنها تتضمن خلطاً بين الخير والشر. إن الحركة الدائرية فى تفسير «ماكرينا» تبدأ من السماء وتسببها سقوط النفس، وتنتقد «ماكرينا» هذه الفكرة، لأنها قد تعنى أن الخليقة هى سبب الوجود البشرى الأرضى، فضلاً عن ذلك فمادامت السماء ينظر إليها على أنها ثابتة لا تتغير بواسطة الوثنيين، فليس من الممكن أن يفسر كيف حدث سقوط النفس. ولا تذكر «ماكرينا» أسماء الفلاسفة الذين تنتقدهم، لكنها عندما ترفض نظرية سقوط النفس فى السماء، فمن الواضح أنها ترفض نظرية أوريجين Origen القيلسوف اللاهوتى السكندرى المعروف (١٨٥ - ٢٥٢) الذى كان يذهب إلى أن سقوط الموجودات الحرة العاقلة هو الذى تسبب فى الحياة البشرية على الأرض. أما «ماكرينا» فهى تذهب إلى أن النفس والبدن معاً خلقهما الله بإرادته الحرة، ولم تظهر النفس إلى الوجود قبل البدن كما يذهب بعض الفلاسفة. وقل مثل ذلك فى التناسل؛ فالنفس والبدن يظهران معاً إلى الوجود أثناء الحمل. وهذا يعنى، عند «ماكرينا» أن النفس حاضرة فى الحيوان المنوى الذى يبدأ منه تشكيل الكائن الحى. وعندما تحقق البشرية مسيرتها فسوف تختفى عملية الكون والفساد،

أو الظهور والاختفاء، وسيكون ذلك يوم البعث والقيامة. وهنا سوف تشارك البشرية - بالنفس والبدن - فى الحياة الأزلية، وفى يوم القيامة سوف يسترد الجسد البشرى القانى بنيته الخالدة التى كان يمتلكها قبل السقوط؛ ذلك لأن «ماكرينا» تعتقد أن صفة الغناء لجسد الإنسان اكتسبها نتيجة لسقوطه فى الخطيئة الأولى، لكن القول بأن للإنسان جسد لا علاقة له بالسقوط على الإطلاق، بل على العكس وجود بدن للإنسان هو جزء من طبيعته ذاتها. والخلاف واضح بينها وبين أوريجين عند هذه النقطة، فالجسد الروحانى الموجود عند أوريجين - يقوم القيامة لا يستبعد إمكان اختفائه أيضاً، أما «ماكرينا» فهى تقيم فكرتها عن القيامة والبعث على أساس الكتاب المقدس. فكما جاء فى مزامير داود أنه سيكون هناك استرداد لجميع الأشياء يوم القيامة، فإنها تنظر إلى استرداد الحياة البشرية كجزء من هذا الاسترداد الشامل.

وتنتهى المحاور بين «ماكرينا وشقيقها» جريجورى بالدفاع عن النظرية المسيحية فى البعث والقيامة وهى تستمد معظم أدلتها من الكتاب المقدس، ولهذا فنحن نجد فى نهاية الحوار جوانب لاهوتية ممتعة، وأفكار كثيرة عُر عنها شقيقها بعد ذلك فى كتابه «خلق الإنسان» - كانت شقيقته العظيمة قد عرضتها ودافع عنها، وربما اقتضى الإنصاف أن يقوم باحث بالكتابة المفصلة عن هذه المفكرة التى تعد من أعظم نساء القرن الرابع الميلادى، لما كان لها من ذهن ثاقب، وفكر فلسفى عميق؛ ولهذا احتلت مكانة رفيعة بين «النساء... الفلاسفة» فى العالم القديم.



الفصل الثامن

«هيباشيا ... فيلسوفة

الإسكندرية»

«عند السُّكر تنال الحقيقة ... In Vino Veritas»

هيباشيا: الميلاد والنشأة:

فى هذا الجو ولدت «هيباشيا» فيلسوفة الإسكندرية عام ٣٧٠م، ابنة ثيون Theon أستاذ الرياضيات فى المتحف، وآخر عالم عظيم من علمائه الذين سجلت أسمائهم فى سجل أساتذة متحف الإسكندرية^(١).

وليست هناك وثائق عن تعليمها المبكر، رغم أن معظم المؤرخين يذهبون إلى أنها قد تعلمت ودرست فى البداية على يد والدها الذى كان يقوم بتدريس الرياضيات والفلك فى المتحف، ولكن بما أنه لم يرد ما يؤكد لنا أن أباهما درس الفلسفة، ومادامت «هيباشيا» قد درست الفلسفة ثم حاضرت فيها بعد ذلك فى مدينة الإسكندرية (دخل المتحف وخارجه) - فلا بد لنا من أن نفترض - على أقل تقدير أنها درست الفلسفة على يد فلاسفة من مدرسة الأفلاطونية المحدثة، وهى الفلسفة السائدة فى المدينة فى ذلك الوقت، أو أنها قد ثقفت نفسها بنفسها، بقراءة تاريخ الفلسفة، ولا سيما مؤلفات أفلاطون وأرسطو أولاً، ثم أفلوطين والأفلاطونية الجديدة بعد ذلك^(٢).

١ - ول ديورانت «قصة الحضارة» المجلد الثانى عشر ص ٢٤٦ ترجمة محمد يدران - دار الجيل للطبع والنشر - بيروت.

2- Ethel M. Kersey: «Women Philosophers» P.134 Greenwood press N.Y. 1989.

وهناك رأى ضعيف يقول به معجم سويداس Suidas Lexicon^(١) مفاده أن هيباشيا قد درست الفلسفة فى أثينا. ويتشكك معظم المؤرخين فى هذه الرواية، ويؤكدون أنها تعلمت على يد علماء الرياضة فى متحف الإسكندرية، كما درست الفلسفة على يد باحثين آخرين (ربما كانوا من فلاسفة المكتبة). ومما يثير الشك فى رواية سويداس قوله: «إن عليا القوم فى مدينة أثينا قد عرھوا إلى هيباشيا عندما وصلت إليها» - ولو صح ذلك لكان معناه أنها كانت شخصية مرموقة ومعروفة، وليست طالبة عندما زارت المدينة، ويبدو أن القول بأن «عليا القوم فى مدينة أثينا قد قاموا بزيارتها، يعنى أن عظماء الفلاسفة كانوا يعاملون معاملة حسنة من الشخصيات العامة فى أثينا عندما ياتون لزيارتها، أو أن هيباشيا لما لها من مكانة رفيعة قد زارها عليا القوم فى أثينا - على نحو ما كان يزورها عليا القوم فى مدينة الإسكندرية^(٢).

الأرجح، إذن، أن هيباشيا قضت فترة التلمذة فى مدينة الإسكندرية كما جاء فى دائرة المعارف البريطانية: «فيلسوفة مصرية وعالمة فى الرياضيات ولدت بالإسكندرية عام ٣٧٠، وماتت بالإسكندرية فى مارس عام ٤١٥.. كانت المرأة الاولى التى لمعت فى ميدان الرياضيات

١ - سويداس Suidas مؤلف معجم يونانى من مدينة القسطنطينية، كتب معجمه الشهير Suda, Suidas Lexicon فى أواخر القرن العاشر الميلادى، ويعد من أهم مصادر التراث اليونانى حتى ذلك التاريخ.

2- Mary Ellen Waithe: A History of Women Philosophers Vol. P.177 Kluwer Academic Publishers. 1992.

واشتهرت بكونها عالمة فيها^(١).. بل إن العبارة توحى بأنها لم تترك الإسكندرية قط، وعلى كل حال فالثابت أنها قضت فترة الطلب على الأقل في هذه المدينة، وأنها كانت طالبة مجدة ومتميزة، وذات قدرات عالية؛ وذلك لسببين على الأقل:

الأول: أن الثابت أنها تعلمت على نفقة الدولة، فقد دفعت لها نفقات التعليم من الموارد العامة^(٢)، وذلك شيء فريد أو هو استثناء له دلالة هامة، ولا سيما إذا عرفنا أن النساء بصفة خاصة لم يكن يتم اختيارهن لينفق عليهن من الموارد الرسمية^(٣).

والثاني: أنه قرب نهاية عام ٤٠٠م. تم تعيينها في المتحف، وكانت في الخامسة والعشرين (أو الثلاثين على الأكثر) من عمرها. ويظهر هنا الاستثناء واضحاً أيضاً، ولا سيما إذا عرفنا أن حكومة الإسكندرية كانت مسيحية (أو شبه مسيحية) في ذلك الوقت، في حين كانت هيباشيا لا تزال على ديانة اليونان. ويرى بعض المؤرخين أنه ما دامت التعيينات في المتحف كانت تتم بأمر من الإمبراطور أو نوابه، فلا بد أن تكون هيباشيا أستاذة متفوقة حتى تمنح بميزات علماء المتحف (كالراتب، والسكن، والمكانة... إلخ)، في هذه السن الصغيرة^(٤). كانت هيباشيا تلقى محاضراتها في المتحف (وربما في المكتبة).

1- Encyclopedia Britannica Vol.O,P.200.

2- Mary E. Waither Op. Cit. P.170.

3- Ibid, P.171.

4- Ibid.

ويقول سقراط - المؤرخ المسيحي - إنها بزت أهل زمانها من الفلاسفة عندما عينت أستاذة للفلسفة بالإسكندرية، فقد هرع لسماع محاضراتها عدد كبير من الناس من شتى الأقطار النائية، وكان الطلاب يتزاحمون ويحتشدون أفواجا إليها من كل مكان، وكانت الخطابات توجه إليها باسم «الربة Muse» أو «الفيلسوفة»، وعندما كانت هيأشيا تقوم بشرح مذهب أفلاطون أو أرسطو - كانت قاعة درسها تكتظ بأثرياء الإسكندرية وأكابرها... كانوا يختلفون إلى قاعاتها ليستمعوا إليها، وهى تبحث فى هذه الموضوعات التى أثارت الجدل منذ زمن: من أنا؟ وإلى أين مصيرى؟ وماذا فى استطاعتى أن أفعل أو أن أعرف؟ أين مكانى فى نظام الأشياء؟ ما طبيعة الإله؟ ما طبيعة الخير والشر...^(١).

ولما كانت هيأشيا معروفة بجمالها الأسطورى^(٢)، وكانت قد عزفت عن الزواج وتفرغت للفكر، فقد كان من الطبيعى أن تتعرض لبعض المضايقات من طلاب تقدموا للزواج منها، ولأنواع أخرى من الغزل من شباب لا يأخذ الدراسة مأخذ الجد، ويروى المؤرخون نماذج من هذه المضايقات: فقد ظل أحد الطلاب يطارها، وتعهد أن يلاحقها بعد انتهائها من دروسها، لكنها لقت هذا الشاب الوسيم «زير النساء» درساً بأن قذفت فى وجهه «بقوطة» مستعملة، وإن كانت نظيفة، وهى تصيح «إن الاستمتاع بالجنس هو هدفك أيها الشاب الاحمق، لا

1- Ethel M. Kersey: «Women Philosophers» P.134 Greenwood press, N.Y. 1989.

2- Ibid.

الاستمتاع بالفلسفة^(١) ويروى بعض المؤرخين أنها حاولت علاج الانفعالات الطاغية عند الشباب «بمناهج الفلسفة وتعاليمها»... غير أن زير النساء لم يرتدع، فأخذت متديلاً كانت قد استعملته، وقذفت به في وجهه وهي تقول: «هذا هو ما تحب، أيها الشاب الأحق، وهو ليس شيئاً جميلاً» ذلك أن الأفلاطونيين، وهي منهم، يعتقدون أن الخير والحكمة والفضيلة وغيرها تحمل في داخلها قيمتها، ولهذا فإن الناس يرغبون فيها لذاتها، أما أن يكون الشخص جميل الطلعة، جذاب المحيا، متناسق الجسد... إلخ، فتلك ليست قيمة إنسانية ذات جدارة خاصة، وهي لا ترتبط بالقيم إلا بتشابهات سطحية. ولقد كانت «هيباشيا» تدرس الفكرة الحقبة عن الحب الأفلاطوني وتمارسها، وهكذا استطاعت أن تصل بواحد من طلاب الفلسفة في الإسكندرية إلى مرحلة يشعر فيها بالخجل من نفسه، وكانت تلك هي أفضل طريقة لعلاجها أيضاً^(٢).

ويروى لنا «ول ديورانت»، نقلاً عن سويداس Suidas في معجمه - قصة أخرى فيها الكثير من المغالاة، فضلاً عما تنم عنه من سلوك شائن يصعب على المرء أن يصدق أن تقوم به العذراء الفاضلة «هيباشيا»، كما كانوا يطلقون عليها، ومضمون القصة: «أن شاباً راح يضايقها بالصاحبة المستمر حتى عيل صبرها، فما كان منها إلا أن رفعت ثيابها، وقالت له: إن الذي تحبه هو هذا الذي يرمز إلى التنازل، وليس هو شيئاً جميلاً قط»^(٣)، وأكبر الظن أن هذه القصة مختلفة، بدليل أن

1- Mary E. Waithe: Op. Cit. P.172.

2 - Ibid.

٣ - ول ديورانت: مرجع سابق ص ٢٤٧.

ديورانت نفسه يتشكك فيها ويقول: «لعل أعداءها هم مخترعوها»^(١)؛ ذلك لأن المؤرخين الذين كتبوا عنها مجمعون على أنها كانت شخصية محترمة، على خلق رفيع، ولذا فمن المستبعد جداً أن يكون السلوك السابق هو ردها على الشاب الأحمق.

ومهما يمكن من شيء فالثابت أنها رفضت الزواج من كل من تقدم طالباً أن تقتن به.. وظلت عذراء طوال حياتها، كما كانت قوية الشخصية تفرض احترامها على الجميع، ويصفها إدوارد جيبون E.gibbon (١٧٣٧ - ١٧٩٤) - وهو أعظم المؤرخين الإنجليز في عصره - في عبارة موجزة بقوله: «رغم أن هذه العذراء المتواضعة كانت بارعة الجمال، ناضجة الحكمة، فإنها رفضت عشاقها، وعلمت تلاميذها دروساً، ولذا تلهف أشهر الناس مقاماً وجدارة على زيارة تلك الفيلسوفة»^(٢). وجاء في دائرة المعارف البريطانية.. «واجهت لها الفصاحة والتواضع والجمال مع قدراتها العقلية الممتازة، فجذبت عدداً هائلاً من التلاميذ»^(٣). ويقول سقراط المؤرخ إنه «بلغ من رباطة جاشها، ودمائة أخلاقها الناشئين عن عقلها المثقف، أن كانت في كثير من الأحيان تقف أمام قضاة المدينة، وحكامها، دون أن تفقد - وهي في

١ - نفس المرجع في نفس الصفحة.

٢ - إدوارد جيبون «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» المجلد الثاني ص ٥٠٠ ترجمة لويس اسكندر، ومراجعة أحمد نجيب هاشم - الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة عام ١٩٦٩.

3- The New Encyclopedia Britannica Vol. 6. P.200.

حضرة الرجال - مسلكتها المتواضع المهيب، الذى امتازت به عن غيرها،
والذى أكسبها احترام الناس جميعاً، وإعجابهم بها^(١).

غير أن هذا الإعجاب لم يكن - فى واقع الأمر - يشمل الناس
جميعاً، فما من شك أن مسيحي الإسكندرية كانوا ينظرون إليها بقدر
غير قليل من الكراهية؛ وذلك لأسباب متعددة منها:

أولاً: أنها ظلت على ديانة اليونان الوثنية.

ثانياً: كان المسيحيون الأول ينظرون إلى «هيباشيا» على أنها
تجسيد للعلم والفلسفة والثقافة بصفة عامة، وهى أمور تتصد فى
نظرهم مع الوثنية فى هوية واحدة. يقسول، أ.ولف، A-Wolf:

«لقد كان العداء عتيقاً بين المسيحية فى عهدى الأول وبين
الفلسفة والعلم، ولقد تجلى هذا العداء فى موقف الاحتقار الذى كانت
تقفه منهما^(٢). وهو ما كان يترجم على الصعيدي العملى فى اضطهاد
المفكرين الوثنيين، وتدمير معابدهم، وإحراق كتبهم، وهدم دور العلم
الذى يترددون عليها، ونهب ما يجدونه فيها - وهو ما كان يقوده
«توفيلوس» كبير الأساقفة كما سبق أن ذكرنا.

ثالثاً: كانت «هيباشيا» فى رأيهم ترتبط بعلاقة صداقة وطيدة
مع حاكم المدينة الوثنى أورستيس Orestes، الذى كان يستشيرها فى

١ - ول ديورانت؛ مرجع سابق ص ٢٤٧.

٢ - نقلاً عن د. توفيق الطويل فى كتابه «قصة الصراع بين الدين والفلسفة ص ٩٤
(من الطبعة الثالثة) دار النهضة العربية ١٩٧٩.

كثير من المسائل الفلسفية، ولما كانت الخلافات مستمرة بين هذا الحاكم وكبير الأساقفة، فقد حملوها مسؤولية هذه الخلافات، وأصبحت بما هي كذلك النقطة المحورية فى التوترات وأمور الشغب التى وقعت بين المسيحيين وأعدائهم، والتى اجتاحت مدينة الإسكندرية أكثر من مرة^(١).

ولا بد لنا أن نتوقف قليلاً عند رئيس الأساقفة الذى عاصرته فيلسوفة الإسكندرية، ونعنى به «القديس كيرلس»، وهو الذى نال لقب «القديس» لقاء ما ارتكبه من جرائم فى حق الطوائف الأخرى أنتصاراً للمسيحية، كما يقول جيبون: «يعتبر لقب القديس الذى لقب به دليلاً على أن آراءه وفريقه كُتبت لهم الغلبة فى نهاية الأمر...»^(٢).

تولى كيرلس الإسكندري منصب رئيس أساقفة المدينة عام ٤١٢ م خلفاً لعمه توفيلوس Theophilus بعد أن تشرب فى منزل هذا العم دروس الغيرة والحقد والهوس الدينى، صحيح أنه كان قد قضى خمس سنوات من شبابه فى أديرة صحراء النطرون مع مجموعة من الرهبان عندما ظهر نظام الرهبنة المسيحية أول ما ظهر فى مصر، وقى مدينة

١ - The New Encyclopedia Britannica Vol.6, P.200.

٢ - إيسارد جيبون «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» المجلد الثانى ص٤٩٧.

الإسكندرية على وجه التحديد^(١)، لكنه رغم ذلك كانت تسيطر عليه «قيم الحياة الدنيا ومباهجها». أو بعبارة إدوارد جيبون «كان كيرلس يؤدي الصلاة والصيام خلال إقامته في الصحراء، غير أن أفكاره (وهذا تقرير من صديق له) ظلت عالقة بالدنيا»^(٢)، ولهذا فسرعان ما لبى الدعوى في شوق ولهفة، عندما استدعاه عمه «توفيلوس إلى جلبة المدينة وضجيجها حيث: المناصب، والأضواء، والأنصار، وزخارف الحياة، فبادر الناسك الطموح إلى الاستجابة لتلك الدعوة، وشجعه عمه على تقلد منصب «واعظ الشعب»، وحقق في هذا الميدان الحسيت والشهرة التي كان يرجوها، وامتلاً المنبر بجسده الضخم المهيّب، ودوى صوته الرخيم في أرجاء الكاتدرائية. وكان الأصدقاء والأنصار والمعارف يجلسون هنا وهناك ليكونوا في مقدمة المصفقين المهلبين من بين المجتمعين.. بينما راح الكتبة يدونون أحاديثه ومواعظه في مذكرات سريعة لتوزيعها على الجمهور.

وعندما تربع كيرلس على عرش الأسقفية، استغل بُعدَه عن البلاط الإمبراطوري، ورئاسته الدينية لعاصمة ضخمة في العالم القديم هي مدينة الإسكندرية، وراح يختصّب شيئاً فشيئاً مكانه حكماًها المدني

١ - يذهب المؤرخون إلى أن نظام الرهبنة المسيحية نظام مصري (ساساً)، فهو امتداد لنظام الرهبنة أو النسك الذي عرف في عبادة سراجيس Sarpis، في منف وغيرها.
هـ - إيدرس بل «مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي» ص ١٦٤ - ١٦٥ ترجمة د. عبد اللطيف أحمد على ، ناز النهضة العربية بيروت عام ١٩٨٨.
٢ - إدوارد جيبون: «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها»، المجلد الثاني من ٤٩٧.

«أورستيس.. Orestes: وسلطته، فتصرف بمحض إرادته في صدقات المدينة العامة والخاصة، وكان صوته يلهم مشاعر الجماهير التي تحولت حديثاً إلى المسيحية. وهكذا كثر الأتباع والأنصار، بل تعصب لآرائه وأفكاره كثيرون ممن ألفوا مشاهد الموت، فكانوا يطيعون أوامره طاعة عمياء»^(١).

واشتد حماس كيرلس لمحاربة «الهرطقة» التي اتسع مفهومها عنده حتى شمل كل من ليس مسيحياً يدين بأفكار كبير الأساقفة. فاليهود الذين زاد عددهم حتى بلغ أكثر من أربعين ألفاً^(٢) - بل يرى البعض أن عدد أفراد الجالية اليهودية في الإسكندرية تجاوز يهود اورشليم نفسها في ذلك الوقت^(٣) - كانوا يعيشون في جو من التسامح كفله القيصرية، والبطالة من «الوثنيين»، وإقامة طويلة قدرها سبعمئة سنة منذ تأسيس الإسكندرية. غير أن كيرلس، ودون أي سند قسائوس، ودون أي تفويض ملكي، ودون أن تكون له أدنى سلطة سياسية قاد - مثلما فعل عمه من قبل - مجموعة من «الغوفاء» من الجمهور المتمرد، ومن مثيرى الشعب والفتنة، في فجر أحد الأيام

١ - المرجع السابق.

٢ - المرجع السابق ص ٤٩٩.

٣ - فيليب حتى «خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى» ص ١٨٢. وانظر أيضاً غسان خالد: «أفلوطين: رائد الوجدانية» ص ٢٠ منشورات عويدات عام ١٩٨٢، يرى آخرون «إن عدد سكان مدينة الإسكندرية بلغ ما يقرب من نصف مليون نسمة كان خمسمئة من اليهود» د. أحمد مهبج في «فلسفة الحضارة» (الحضارة الإغريقية ص ٢١٧)، حاشية مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية.

لهأجمة معايدهم. وعجز اليهود عن المقاومة، وهم عُزل، ولم يأخذوا للأمر عدته، فهدمت أماكن عبادتهم وسويت بالأرض، ثم كافأ الأسقف للناضل قواته الظافرة بأن سمح لها ينهب ممتلكات اليهود، ثم طرد من المدينة من تبقى من أبناء «الشعب الكافره مبررا عمله هذا بأنهم كانوا مسفين فى الشراء، وأنهم كانوا يكرهون المسيحيين.

ولقد شكأ أورستيس Orestes حاكم مصر إلى الإمبراطور ما يرتكبه كيرلس من جرائم، غير أن شكواه العادلة ضاعت اندراج الرياح؛ إذ لم تقابل من وزراء «ثيودسيوس» إلا بالنسيان السريع، ولا سيما أن رئيس الأساقفة كان يلجأ إلى الهدايا القيمة التى تساعد الذاكرة على النسيان، لكنه، مع ذلك، ظل فى أعماقه يضممر المقت والكراهية لهذا الحاكم، ويتربص به، حتى وافته القروصة: «فعندما كانت عربة الحاكم تخرق شوارع المدينة هاجمها فريق مكون من خمسمائة راهب من رهبان صحراء النطرون، فهرب حارسه أمام وحوش الصحراء، وقوبلت احتجاجاته بأنه مسيحي وكاثوليكي بسيل من الحجارة، فسالت الدماء من وجهه، وسارع مواطنو الإسكندرية المخلصون إلى نجسته^(١)». وعلينا أن نتذكر جيداً هذه القصة التى رواها «جيبون»؛ لأنها ستكرر مرة أخرى مع فيلسوفة الاسكندرية بطريقة أكثر إحكاماً ووحشية.

كانت «هيباشيا» تعيش للفكر وحده، بعد أن رفضت الزواج كما ذكرنا، وترهبتت فى محراب الفلسفة، بطريقة تختلف كثيراً عن طريقة ١ - إدوارد جيبون «الضمحلال الإمبراطورية الرومانية» المجلد الثانى ص ٤٤٩ - ٥٠٠.

الرهبان سالفة الذكر، فقد عاشت العذراء حياة روحية حقيقية تستهدف البحث عن الحقيقة، ويبلغ من حبها للفلسفة أنها كانت تقف في الشارع وتشرح لكل من يسألها عن النقاط الصعبة في مؤلفات أفلاطون أو أرسطو فيما يقول ديورانت^(١)، كما درست أفلوطين، والأفلاطونية المحدثة، وشددت على الحب الروحي لا الجسدي الذي يتفق بالطبع مع المذهب الأفلاطوني عموماً، والأفلاطونية الجديدة بصفة خاصة^(٢). ولك أن تقارن بين المحبة الوثنية وأفكار «الرهبان» في وادي النظرون.

تلهم الناس لسماع «هذه العذراء المتواضعة، بارعة الجمال»، كما سعى عليّة القوم في المدينة لزيارة تلك الفيلسوفة الشابة فيما يروي «جيبون».. وكان كيرلس يشاهد بعين الحقد والحسد ذلك الرتل الضخم من الجهاد الذين اصطفوا على باب أكاديميتها... فسرت إشاعة... كان هو نفسه مصدرها على الأرجح - تقول إن «ابنة ثيون» هي العقبة الوحيدة في طريق التوفيق بين الحاكم «أورستس»، ورئيس الأساقفة كيرلس. كما لو أن العذراء المتواضعة كانت هي المصدر الذي أوحى لرئيس الأساقفة بأن يبدأ عهده بالتمكين باتباع نوفاشيانوس - وهم أكثر أبناء الطوائف براءة ويعتدك عن الآنئ (٤) - أو أنها هي التي أشارت عليه بمهاجمة حي اليهود في المدينة، ونهب ما فيه، وطرد من

١ - ول ديورانت: «قصة الحضارة» المجلد الثاني عشر ص ٢٤٧.

2 - Ethel M. Kersey: Op. Cit. P.135.

٢ - إدوارد جيبون - مرجع سابق ص ٥٠٠ - ٥٠١.

٤ - المرجع السابق ص ٤٩٩.

فيه، أو أنها هي التي رتبت قيام خمسمائة من الرهبان باعتراض طريق الحاكم ومهاجمته.

لم يكن شيء من ذلك صحيحاً، لكن رئيس الأساقفة كان يمهّد لجريمة جديدة. ففي يوم مشئوم من فصل الصيام الكبير «المقدس»، وعلى وجه التحديد في ليلة مظلمة من ليالي مارس ٤١٥ م، والسبب مجهول حتى الآن اختار فيه المؤرخون لما نشره المغرضون من أسباب وحجج - اعترضت جماعة من رهبان صحراء النطرون - الذين قضوا في الصحراء سنوات طويلة يصارعون قوى الشر مجتمعة كما يقولون، ويديرون معركة «صراع باطنى ضد شهوات الجسد، ووسائل النفس الأمارة بالسوء»^(١) - اعترض هؤلاء الرهبان طريق عربة «هيباشيا» بإيعاز من كبيرهم كيرلس، فأوقفوها، وانزاعوا الفيلسوفة الشابة الجميلة - كما فعلوا مع حاكم المدينة من قبل - ثم جروها إلى كنيسة قيصرن Caesaron، حيث تقدمت مجموعة من هؤلاء الرهبان وقاموا بنزع ثيابها واحداً واحداً حتى تجردت من ملابسها لتصبح عارية كما ولدتها أمها (٢) - مشهد بالغ الغرابة يقوم به النساك الأظهارة - المهم أنه تقدم بعد ذلك بطرس القاريء Peter The Reader (وهو قاريء الصلوات في الكنيسة) وقام بذبحها، وهى عارية، وقد أمسك بها

١ - هـ - أيدرس بل «مرجع سابق» ص ١٦٦.

٢ - قارن التصوير الأدبي الرائع لقصة اغتيالها - كتاب استاذنا الدكتور زكى نجيب محمود «في مفترق الطرق» ص ٥٨ وما بعدها دار الشروق عام ١٩٨٥، وتاريخ الفلسفة الغربية لرسنل جـ ٢، ص ١٠٢، وديورانت مرجع سابق ص ٢٤٨ - إلخ.

مجموعة من الرهبان ليتمكن قارئ الصلوات من ذبحها ذبح الشاه، ثم عكف الرهبان «الأنقياء القلب» على مهمة باللغة الغرابية، وهي تقطيع جسدها إلى أشلاء مستمتعين بما يفعلون، ثم أمسكت كل مجموعة شلوا بعد شلو وراحت تكشط اللحم عن العظم بمحار حاد الأطراف. وفي شارع سينارون Cinaron أوقدوا ناراً ذات لهب «وقدفسوا في النار بأعضاء جسدها، وهي ترتعش بالحياة» فيما يقول رسل، حتى تحول الجسد إلى رماد، وهم يتحلقون حوله «في مرج وحشى شنيع» على حد تعبير «ديورانت».

أيمن أن يكون هؤلاء الوحوش من تلامذة المسيح؟ أيمن أن نقول إنهم «نور العالم» و«ملح الأرض» كما كان يصف حواريه؟ المسيح الذي عفا عن مريم المجدلية الزانية «وقال لها مغفورك خطاياك» لوقا ٧: ٤٨ - وقال عن زانية أخرى «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر». يوحنا ٧: ٨ - هل يمكن لمن ذبح فيلسوفة شهد لها أهل زمانها، أن يكون تلميذاً «لاين الإنسان» الذي رفع شعاره في موعظة الجبل بعدم مقاومة الشر بالشر؛ «لا تقاوموا الشر بالشر، بل من لطمك على الأيمن فحول له الآخر أيضاً». متى ٥: ٩.

غير أننا لا بد أن نسأل - قبل ذلك كله - لماذا جردها الرهبان من ملابسها قبل اغتيالها؟ فما دام «الذبح» في نيتهم فلم يكون وهي عارية تماماً؟ ألا يمكن أن يقول لنا علم النفس الشيء الكثير عن هذا الموقف الغريب؟ ليست هناك علاقة بين هذا الموقف، وما قاله صديق كرلس عنه من أن «فكره ظل عالماً بالدنيا»؟ ألا يعني ذلك أن الرهبان عندما دخلوا في معركة مع شهوات الجسد لم ينتصروا فيها، بل كان

انتصارهم ظاهرياً، في حين ظلت الغلبة لهذه الشهوات؟ أليكون تجريدنا
من ملابسها قد تم حتى يتمكن الراهبان «أنقياء القلب» من «معاينة»
جسد العذراء، وهو عار تماماً قبل الذبح؟ لقد سبق أن رأينا كيف حدث
هذا المشهد نفسه مع «أورستيس» حاكم المدينة، وكاد الراهبان أن يفتكوا
به لولا أن أنقذه المخلصون من أبناء الإسكندرية: ترى لكانوا يقومون
بتجريده هو الآخر من ملابسه قبل اغتياله لو حدث أن تمكنوا منه؟
ربما ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه القارئ لهذا السؤال، مما
يجعلنا نكرر السؤال الأول: لماذا، إذن، جردوا «العذراء» من ثيابها، اللهم
إلا إذا كانت شهوات الجسد لا تزال طاغية، فأرادوا أن يمتعوا القلب النقي
بمشهد الجسد الجميل العاري، ولما كان يصعب على الراهبان أن يصلوا
إليه، فإنه يسهل عليهم تمزيقه!

أعمالها : الأنشطة التعليمية

جاءت معلوماتنا عن الأنشطة التعليمية والثقافية التي قامت بها «هيباشيا» من عدد من المصادر بما في ذلك بعض تلاميذها المشهورين، فالفيلسوف اليوناني دمسقيوس Damascius - وكان من أتباع الأفلاطونية الجديدة - يروى أنها كانت تحاضر في علم الهندسة والرياضيات، ويخبرنا «فلوستجوريوس Philostogorius، أنها بذت في الرياضيات وألدها ثيون Theon أشهر علماء متحف الإسكندرية في هذا العلم، ويرى هسيخيوس Hesychius عالم النحو السكندري في أواخر القرن الرابع الميلادي، وصاحب معجم الكلمات اليونانية - أن «هيباشيا» كانت عالمة فلك ممتازة مثل والدها، ولقد تأكدت شهرتها في هذه المجالات كلها في الخطابات التي تبادلتها مع تلميذها سينسيوس Syne-sius أشهر تلاميذها على الإطلاق، وهو يحتاج إلى أن نقف عنده قليلاً،

«ولد سينسيوس بقورينا (إقليم بركة الآن) وهو لهذا كثير ما ينسب إليه فيقال سينسيوس القورينائي - ولد حوالي عام ٣٦٥. ولقد حضر في عام ٣٩٣ من بنتابوليس Pentapolis - أي المدن الخمسة ببرقة - إلى الإسكندرية ليدرس على يد فيلسوفة شهيرة في الثالثة والعشرين من عمرها. وفي نفس التاريخ تقريبا الذي رحل فيه سينسيوس إلى الإسكندرية ليدرس على «هيباشيا» - كان الإمبراطور الروماني ثيودوسوس Theodosius قد منع ممارسة الشعائر الدينية الوثنية في مصر؛ حيث كانت أعمال الشغب قد انتشرت بالفعل بين الوثنيين والمسيحيين^(١).

حضر سينسيوس إلى الإسكندرية ليدرس الرياضيات والفلسفة على «هيباشيا»، لكنه ظل حتى آخر حياته صديقها الوفي، وكان يسميها «الشارحة الحقة للفلسفة الحقة»، ثم زار أثينا وقويت عقيدته الوثنية، ولكنه تزوج بامرأة مسيحية عام ٤٠٣، واعتنق على أثر ذلك الديانة المسيحية، وحول ثلوث الأغلطونية المحدثه المؤلف من: الواحد، والعقل، والنفس - إلى: الأب، والروح، الابن. وكتب كثيراً في المسيحية منها: كتاب عنوانه: «فى انعدام النوم Deinsomnis» وكتاب عنوانه: «ديون Dion»^(١) وسوف نعود إليها بعد قليل.

والملاحظ أنه على الرغم من تحول سينسيوس القورينائى من الوثنية إلى المسيحية، فإن أستاذته «هيباشيا» بقيت على ديانة اليونان، ولكنها مع ذلك لم تغضب عليه، ولم تتحول مشاعرها نحوه على الإطلاق، وعندما عين بعد ذلك «أسقفاً فى كنيسة كاثوليكية من كنائس بطليمية»، لم يقل حبها له، ولم تأكل الغيرة قلبها عندما كانوا يصفونه بأنه «الأسقف الفيلسوف». ولك أن تقارن ذلك بالموقف السالف الذكر للقديس كيرلس من «هيباشيا» سواء من حيث موقفه من العقيدة، أو من حيث المكانة.. فى آن واحد. وظلت العلاقة بينهما قائمة على المحبة والاحترام المتبادل. ويقول جورج سارتون «... وصلنا ١٥٩ خطاباً تمتد تواريخها من سنة ٣٩٤ إلى سنة ٤١٣.. وهو يسألها فى الخطاب

١ - قارن التصوير الأدبي لقصة اغتيالها - كتاب استاذنا الدكتور زكى نجيب محمود «فى مقترب الطرف»، ص ٥ وما بعدها، دار الشروق عام ١٩٨٥، وتاريخ الفلسفة الغربية راسل ج. ٢ ص ١٠٣. وديورانت مرجع سابق ص ٢٤٨... إلخ.

2- Mary Ellen Waither: Op. Cit. P.173.

الخامس عشر أن تصنع له جهازاً لقياس الوزن النوعي للسوائل Baiyilion، وهو نوع من الهيدرومتر - في هذا الخطاب أول وصف وصل إليها لهذا الجهاز^(١).

ويذكر «سينسيوس» في خطابه أنه كان «لهيباشيا» الفضل في تثقيفه ثقافة شاملة، فقد درست له - مع شروح وأفية - مؤلفات أفلاطون وأرسطو، كما درس على يدها ميتافيزيقا الأفلاطونية المحدثة وأسرارها، فضلاً عن بعض العلوم الطبيعية مثل: علم الفلك، والميكانيكا، والرياضيات^(٢)، ونحن نعلم من مصادر أخرى أن سينسيوس درس على يد «هيباشيا» فلسفة أفلوطين، والفلسفة الدينية الوثنية التي تعارض - إلى حد ما - الفلسفة المسيحية، ولقد أصبحت فلسفة أفلوطين بصفة عامة، جانباً متكاملاً في عملية الانتقال العقلي من الفلسفة اليونانية الوثنية إلى المسيحية، ولقد كانت دراسة سينسيوس لأفلوطين على يد «هيباشيا» هي التي أدت به إلى اعتناق المسيحية، ثم إلى أن يصبح بعد ذلك أسقفاً في إحدى الكنائس الكاثوليكية - كما سبق أن ذكرنا - وهو يقول في أحد خطابه إن الناس، في ذلك العصر، لم ينظروا إلى «هيباشيا» على أنها فقط أعظم شارحة على قيد الحياة لفلسفة أفلاطون وأرسطو، بل إن تلاميذها كانوا يأتون إليها من أماكن نائية ليدرسوا على يدها الحكمة والفلسفة الحقّة. وفي خطاب من سينسيوس عام ٣٩٥ إلى هيركيولانوس... Herculianus يقول لقد

1- Ibid, P.174.

٢ - جورج ساتون «العلم القديم والمدينة الحديثة»، ص ٦٧، ترجمة د. عبد الحميد صبرة.

سافر الشباب من قورينا Cyrene إلى الإسكندرية ليدرسوا على يد:

«... شخصية معروفة تماماً ويبدو أن شهرتها كانت تفوق الوصف. لقد رأيناها بأنفسنا بعد أن سمعنا عن تلك المرأة التي تتربع، بشرف، على قمة الأسرار الفلسفية...»^(١).

في عام ٤٠٤ أرسل سينيوس إلى «هيباشيا» كتابين من تأليفهما: «في انعدام النوم» و«ديون»، وكانت قد عينت في ذلك الوقت رئيسة للمدرسة الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية - وهو في هذا الخطاب يسألها أن تكتب تحليلاتها على الكتابين. ولقد لاحظ «سينيوس» نفسه أنه ربما كان كتاب «في انعدام النوم» وحيًا إلهيًا، وهو لهذا عازم على نشره مهما اختلفت فيه الآراء. وليس في استطاعتنا أن نستنتج من خطابه أن آراء «هيباشيا» الإيستمولوجية كانت تنكر الإيمان بالوحى الإلهي كمصدر من مصادر المعرفة. وأغلب الظن أنها لم تناقشه في المقدمات التي بدأ منها. أما الكتاب الثانى فوضعه مختلف؛ إذ تذكر رسالة سينيوس أنه لن ينشر كتاب ديون Dion إلا بعد أن تكتب له «هيباشيا» رأيها فيه، وتوافق على نشره. وبما أن الكتاب قد تم نشره بالفعل فإن لنا أن نستنتج من ذلك أن «هيباشيا» قد وافقت عليه، وكتاب «ديون» Dion، في جانب منه دفاع عن الفلسفة ضد الخطباء الذين صنفوا أنفسهم على أنهم فلاسفة، ويتحدث فيه «الأسقف الفيلسوف» عن الأفلاطونية الجديدة التي تعلمها على يد «هيباشيا»، وهو مزيج من الصوفية والمذهب الكلبى، قاله ليس موجوداً متعالياً

1- Mary Ellen Waithe: Op. Cit. P.173.

فحسب، وإنما هو واحد أيضاً، ولا يمكن للإنسان أن يعرفه معرفة مباشرة بأية طريقة. ومن الواحد المتعالى المفارق يفيض النوس الكلى Nous (العقل) الذى تشبه أفكاره النظرية مثل أفلاطون. ومن النوس Nous نفسه تفيض المادة ماهية الكون المادى، والسبب المباشر للكون، ولموجوداته الحسية. ولما كانت المادة «شراً» والنوس هو المقدس، ومادام الإنسان فى جانب منه مادة، وفى الجانب الآخر روحاً وعقلاً، فإن الإنسان فى جانب منه شرير، وفى الجانب الآخر روح مقدس، وفى استطاعة الإنسان من خلال ضبط النفس، والإخضاع الكلى للحواس أن يصبح قادراً على تلقى الوحي المباشر عن الحقيقة الإلهية من النوس أعنى من العقل الكلى. ولقد قاربت هذه الفلسفة ذات الأبستمولوجية الدينية بين «سينسيوس» و«هيباشيا»، فهى تتفق تماماً مع وثنية «هيباشيا» ومسيحية «سينسيوس»^(١).

ومن الأنشطة التعليمية التى قامت بها «هيباشيا»، أنها كانت تدرس - كما سبق أن ذكرنا - مؤلفات عمالقة الفلاسفة الوثنيين: أفلاطون وأرسطو، كما أنها قامت بتدريس فلسفة فيثاغورس وزينوفان، والمدرسة الكلبية، ويضيف بعض المؤرخين المدرسة الرواقية أيضاً، كما وضع شروحاً على فلسفة أفلاطون. ولما كانت مهتمة مثل أئبيها بالرياضيات والعلوم، فربما ركزت بعض الوقت على أن تدريس تلك المؤلفات القديمة التى تتعلق بالميتافيزيقا، والكسمولوجيا، والأبستمولوجيا - أكثر من اهتمامها بالفلسفة السياسية والأخلاقية.

1- Ibid.

ومن المحتمل كذلك أن تكون قد قامت بقدريس كتاب «ديوفانتس
Diophantus علم الحساب... Arithmeticon»^(١).

ومن السهل أن نتبين كيف أن ثقافة «هيباشيا» الفلسفية قد
ساعدتها في تشكيل الأساس الطبيعي لما أصبح اهتمامها العقلى
الأول، وأعني به: علم الفلك. فقد كانت، مثل والدها «ثيون» Theon
عالمة فلك، وعالمة رياضية، (فالفلك كان فرعاً من الرياضيات) ولقد
كان علم الفلك في بداية القرن الخامس الميلادى من أهم العلوم في
الدراسات الفلسفية التى كانت تشمل في جوقها الأفرع المختلفة من
المعرفة البشرية، حيث كانت للفلسفة أم المعارف، أو ملكة العلوم
Regina scientiarum. ومن هنا فقد سعى العلماء التجريبيون وعلماء
الرياضة في آن واحد إلى فهم ميتافيزيقا أرسطو، فضلاً عن الفيزيقا
والكسمولوجيا، وتطبيقاتها، كذلك إستمولوجيا أفلاطون وتطبيقاتها
على الكون المرئى مستخدمين نظريات الرياضة والهندسة، والأدوات
والأجهزة العلمية للإجابة عن أسئلة فلسفية أساسية مثل من نحن؟
وما هو مصيرنا؟ وأين مكان الإنسان في نظام الأشياء... إلخ^(٢).

1- Ibid. P.174.

2- Ibid. P.175.

الشروح ...

قامت «هيباشيا» - على ما يروى سويداس في معجمه - بتأليف ثلاثة كتب هامة هي:-

١ - شرح على كتاب «ديفونتس Diophantus» الإسكندري المسمى «علم الحساب Arithmeticon»، أو «الأرثميقيقا» ... كما كان يسميه العرب.

٢ - شرح على كتاب بطليموس المجموع الرياضي أو المركب الرياضي Syntax. Mathematica (وهو العنوان الأصلي اليوناني للكتاب المعروف في الترجمات العبرية باسم «المجسطي» حيث كان يطلق على الكتاب أحياناً اسم Megiste Syntax، أي للمركب العظيم أو للمجموع العظيم، فآخذ العرب كلمة Megiste - أي العظيم - وأضافوا إليها أداة التعريف Al فأمسحت المجسطي، أو الكتاب العظيم).

٣ - شروح على كتاب «قطوع المخروط Conic Sections»، لأبولونيوس البرجي Apollouins Pergaeus .

وعلى الرغم من أن سويداس يروى أن الكتب الثلاثة قد فقدت، فإن «ماري إيلين ويث» كشفت عن وجود كتابين منهما على الأقل، وهما الكتاب الأول والثاني، أما الثالث فمن المحتمل أن يكون قد بقي أيضاً باسم شروح على النظريات الهندسية للبرجي Pergaeus.

ويجدر بنا أن نسوق كلمة موجزة عن هذه المؤلفات:

أولاً: شرح على كتاب ديفونطس ... Arithmeticonum

لقد كان ديفونطس السكندري الذي ازدهر حوالي عام ٢٥٠ م - عالم رياضيات مرموقاً في النصف الثاني من القرن الثالث للميلاد؛ فهو صاحب الكتاب المعروف باسم أرتمطيقا أي «علم الحساب»، وكان يقع في ثلاثة عشر كتاباً (أو مقالة)، لم يبق منها سوى ستة كتب فحسب، ولقد اختلف الباحثون حول المقالات أو الكتب التي فقدت من كتاب ديفونطس، والمقالات أو الكتب التي ظلت موجودة حتى الآن، لكنهم، مع ذلك، متفقون على أن «هيباشيا» كانت أعظم، وأشهر شارحة لهذا الكتاب في العالم القديم. كما إننا نعرف من بعض المصادر الحديثة أن التنقيحات والتعديلات التي أدخلتها «هيباشيا» على كتاب علم الحساب هي - فيما يبدو - أقدر وأعمق نسخة من هذه المخطوطة^(١).

وترجع أهمية «ديفونطس» وكتابه (وبالتالي شروح «هيباشيا» عليه) إلى أن هذا العالم كان أول من بذر البذور التي أثمرت علم الجبر فيما بعد، وإن كان هناك إجماع على أن أثر المصريين والبابليين في أعماله الرياضية كان بارزاً جداً، إذ ظل يحل كل مسألة تُعرض عليه حلاً مستقلاً دون أن يرجع إلى طريقة علمية، ولا إلى قاعدة عامة. لكنه مع ذلك كان أول من تعرض لفكرة إيجاد كم مجهول له نسبة ما إلى كميات أخرى معلومة. وإن كان قد وقف في معالجته لهذه الفكرة التي أثمرت

1 - Mary Ellen Waihe: "A history of Women Philosophers" Vol. 1. P.178.

الجبر عند الطرق الفيثاغورية التي كانت ترمز لكل عدد بخط أو شكل هندسي أكثر تعقيداً، والتي كانت تحل البراهين الهندسية محل العمليات الحسابية المعهودة الآن^(١).

وحتى نتبين جيداً مدى أهمية شروح «هيباشيا» على هذا الكتاب فلا بد أن نضع في ذهننا التفارقة التي ساقها أفلاطون في محاوره جورجياس Gorgias بين العلم النظري المجرد الذي يدرس موضوعات عامة بغير تخصيص، وبين الفن التطبيقي لهذا العلم، فلقد ميز سقراط في هذه المحاور بين علم الحساب Arithmetic، وبين فن العدد Calcula-tion (بين الجانب النظري المجرد والجانب العملي التطبيقي للحساب) ملاحظاً «أن علم الحساب يبحث في العدد الزوجي والعدد الفردي بغض النظر عن كمية كل منهما أو مقدارهما»، بينما فن العدد «يبحث في الكمية أو كيف يرتبط العدد الزوجي أو الفردي بنفسه من حيث الكمية، من ناحية، وبعضهما البعض الآخر من ناحية أخرى»^(٢).

غير أن التفارقة بين الأعداد المجردة - كالأعداد الزوجية وال فردية بصفة عامة (أعني علم الحساب) - وبين الأعداد الخاصة أو النوعية أو المحددة (فن العدد) كثيراً ما كانت تختفى عند «ديفونطس»؛ وذلك بسبب أن «فن العدد» عنده كثيراً ما كان يتخذ شكلاً مجرداً، فكان دور «هيباشيا» أن شرحت أولاً هذه التفارقة، ثم أدخلت ثانياً مشكلات

١ - قارن عمر فريدغ: «تاريخ العلوم عند العرب» ص ٢٦ - ٢٨، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة بيروت عام ١٩٨٤. ود محمد ثابت الفندي «فلسفة الرياضات»، ص ٨٣ - ٨٤، دار النهضة العربية الطبعة الأولى بيروت، ١٩٦٩.

2- Plato: Gorgias. 451 - B.

جديدة، كما أسهمت في التوصل إلى بعض الحلول البديلة للمشكلات الأصلية عند ديفونطس، مما أدى إلى توضيح الطابع المجرد، فضلاً عن توضيح طبيعة علم الحساب بصفة عامة، وأبرزت إسهامات ديفونطس التي أثمرت نظرية الجبر بعد ذلك^(١).

ولقد قامت «مارى إلين ويث Mary E. Waith» في كتابها «تاريخ الفلاسفة من النساء» المجلد الأول ص ١٨٢ - بترجمة ما أضافته «هيباشيا» من تعليقات وتنقيحات. كما قامت بترجمة جنانب من المشروح المتبقية التي اشتهرت بها «هيباشيا» في العالم القديم. وذلك في ص ١٧٨ و ص ١٧٩، و ص ١٨٠، نقلاً عما نشره «بول تانرى Paul Tan- nery» الذي نشر النص اليوناني، وفي مقابله «النص اللاتيني» لكتاب ديفونطس علم الحساب، كما نشر القس أ. روم A. Rome النص نفسه مع مراجعة ثيون Theon والد «هيباشيا» له^(٢).

1- Mary Ellen Waith: Op. Cit. P.177.

2- Ibid. P.183.

ثانياً: شرح على كتاب بطليموس

«المجموع الرياضي Syntax Mathematica»

كان «بطليموس كلوديوس Ptolemy Claudius»، وهو الملقب عند العرب ببطليموس القلوذي، أشهر العلماء في هذه الحقبة، ومن أشدهم تأثيراً في الشرق والغرب بعد أرسطو. وقد ظل كذلك حتى كوبرنيكس Copernicus وهو عالم فلك، ورياضة (وكان الفلك فرعاً من الرياضيات كما قلنا). وجغرافى وفيزيقي مصري يوناني، ولد في صعيد مصر، ونشأ في مدينة الإسكندرية في الربع الأخير من القرن الثاني الميلادي (حوالي عام ١٧٠م)^(١)، وقد وضع بطليموس كتاباً كثيرة كان أشهرها كتابه «المجموع أو المركب الرياضي» والمعروف في اليونان باسم «التصنيف العظيم في الرياضيات» وهو المعروف في التراث العربي باسم «المجسطى Al Mageste» نحتاً من كلمة Megitse اليونانية التي تعني «عظيم»، وإضافة أداة التعريف الـ Al، لنعني كلمة - كما سبق أن ذكرنا - العظيم، فهو الكتاب العظيم؛ ذلك لأنه دائرة معارف في علوم الفلك والمثلثات وموضوعاته: كروية العالم، وثبوت الأرض في مركز العالم، والبروج، وعروض البلدان، وحركة الشمس، والانقلابان الربيعي والخريفي، والليل والنهار، وحركات القمر وحسابه، والنسوف والكسوف، والنجوم الثابتة، والكواكب المتحركة^(٢).

١- Ethel M. Kersey: Women Philosophers P.135.

وأكثر ما شغل بال بطليموس الكواكب المتحيرة وحركاتها (فى رأى العين) فإذا كانت الأرض ثابتة فى مركز العالم، والشمس والقمر والنجوم والكواكب تدور حولها من المشرق إلى المغرب، فلماذا نرى القمر والكواكب الخمسة (عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل) تتحير فى أسماء: تتقدم حيناً على الشمس وتتأخر عنها حيناً، ويتقدم بعضها على بعض مرة بعد مرة وتختلف مواقعها فى السماء بين حين وآخر، بالإضافة إلى النجوم الثابتة؟

والواقع أن مشكلة الكواكب المتحيرة كانت ترجع إلى الاعتقاد بأن الأرض ثابتة فى مركز العالم، وليست كوكباً يدور حول الشمس التى هى مركز نظامنا الشمسى^(٢).

ولقد كان «بابوس Pappus»، و«ثيون Theon». وألد «هيباشيا» - هما أعظم شراح كتاب «المجسطى» لبطليموس فى ذلك الوقت. غير أن «هيباشيا» اشتهرت بأنها كانت منقحة لعلم الفلك عند بطليموس، وهو ما يرويه المؤرخون من أمثال «فابريقيوس Fabricius»، وسقراط المؤرخ و«سويداس Suidas»، وغيرهم. وقد افترضوا أن ما قامت به هذه الفيلسوفة قد فقد. غير أن مجموعة من الكتب بقيت لنا من أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس، بما فى ذلك العديد من النسخ من شروح «ثيون» على كتاب المجموع الرياضى لبطليموس،

١ - عمر ادوخ وتاريخ العلوم عند العرب، ص ٤٨، دار العلم للملايين بيروت عام ١٩٨٤.

٢ - المرجع نفسه ص ٤٩.

والجداول الفلكية التي يرجح الباحثون أنها من تأليف «هيباشيا» .
ويلاحظ بول تانري Paul Tannery.. أن ترديد الديموى التي روج لها
المؤرخ «فابريقيوس» والتي تقول إن شروح هيباشيا» قد فقدت - جعل
مؤرخى الرياضيات يفسلون في التعرف على اختلاف مزدوج: ظهور
جداول فلكية جديدة فى عصر الشراح، تماثل العمل الاصلى من ناحية،
ثم اختفاء عمل هام (شروح «هيباشيا») دون أن يكون له أثر... وهكذا
ينتهى تانري إلى أن الجداول الفلكية هى من تأليف «هيباشيا»، كما
ينتهى باحث آخر إلى أن مؤلفاتها وشروحها على كتاب بطليموس لم
تفقد كلها، إذ يلاحظ ج.ف. مونتوكلا J.F. Montucla بقا:

«الكتاب الثالث من الشروح (على المجسطى.. Almageste) وهى
الشروح التي ينسبها إليها «سراحة» والدها «ثيون»، والظاهر أن ثيون
كان يقوم بإعداد شروح على كتاب بطليموس، وأنه طلب من «هيباشيا»
مراجعة المخطوطة ومساائل رياضية، ومنهجية، وعقلية، عديدة - لم يقف
عندها أحد من قبل: لا «ثيون» ولا بطليموس نفسه، فبدأت هى فى
دراستها ومواجهتها. لكنها أثناء تحليلها لهذه المسائل، أعادت دراسة
القيم الرياضية للأحداث السماوية التي وصفها علماء الفلك القدامى بما
فيهم «بطليموس»، كما وضعت الجداول الفلكية التي جاءت كنتائج لهذه
الدراسة. ولقد كانت شروحها على الكتاب الثالث من «المجسطى» (وربما
الكتب التالية أيضاً) هى التي جعلت تحليلاتها للموضوعات الفلسفية
والرياضية أكثر ثراءً وقوة - وهى الموضوعات التي أوحى بها والدها
«ثيون» فى شروحه الاصلية. وعندما تطورت هذه التحليلات أصبحت
الشروح، وشروحها هى، ولهذا السبب فإننا نرى المؤرخين يقولون إن

والدها ينسب إليها هذه الشروح.

وتقع شروح «هيباشيا» على الكتاب الثالث من كتاب بطليموس «المجسطى» أو المجموع الرياضى - فى الصفحات من ٨٠٧ حتى ٩٤٢ فى المجلد الثالث من الطبعة التى قام بنشرها الاب روم.. A. Rom. ولم تظهر لهذه الشروح حتى الآن أية ترجمة بلغة حديثة؛ لأن هذا الكتاب مازال يتحدى المترجمين بصعوبته، وتعقيداته؛ لأن فهم النص لا يحتاج فحسب إلى معرفة باللغة اليونانية السكندرية التى كانت سائدة فى القرن الخامس الميلادى، بل يتطلب كذلك إماماً دقيقاً بالطبعات المبكرة لمؤلفات بطليموس، كما يتطلب أيضاً معرفة بالرياضيات والفلك المصرى القديم.

والواقع أننا إذا أردنا أن نقدر شروح «هيباشيا» على الكتاب الثالث من المجسطى فإن علينا أن نضع هذه الشروح فى سياقها التاريخي. لقد وضع بطليموس نظاماً لعلم الفلك مكتملاً إلى حد ما، فكان التخطيط الهندسى للسماء كما يراه علماء الفلك يناظر تقريباً النظرية الهندسية، أما التعارضات بين النظرية والملاحظات الفلكية، فقد فسرها بطليموس بافتراضه البسيط الذى جعل الأرض مركزاً للكون، وظلت تلك هى النظرية المعتمدة حتى جاء كوبرنيكس Copernicus (١٤٧٣ - ١٥٤) عالم الفلك البولندى الشهير، فذهب إلى أن الأرض وسائر الكواكب السيارة تدور حول الشمس وحول نفسها. فهل قرأ كوبرنيكس تعليقات «هيباشيا» على الكتاب الثالث؟ أكان على علم بالانتقادات المنهجية التى وجهتها إلى بطليموس؟ الثالث، تاريخياً، أن كوبرنيكس ذهب إلى إيطاليا لدراسة علم الفلك، وأنه كان شغوفاً بقراءة

كل ما تستطيع يده أن تصل إليه عن علماء الفلك القدامى، ولا سيما بطليموس، كما أنه قرأ بإمعان الشروح التي كتبت عن بطليموس، أكان يمكن ألا يقرأ ما أسماه البعض أعظم شروح وصلت إلينا عن بطليموس، وأهمها، شروح ثيون وأبنته «هيباشيا»؟! إن الثابت تاريخياً أيضاً أن كوبرنيكس سافر إلى فلورنسا في الوقت الذي كانت فيه هذه الشروح مصنفة في مكتبة لورنزوي مدينتي renzo di Midicilau برقم ١٨٠٢٨، فهل يمكن أن يكون قد زار فلورنسا، لكنه لم يتوقف عند مكتبة تضم أعظم النصوص القديمة وأشهرها في إيطاليا؟! أيمكن ألا يكون قد قرأ «هيباشيا»؟!

ثالثاً: شروح على كتاب

القطوع المخروطية Conic Section

يذكر «معجم سويداس» وكذلك سقراط المؤرخ، وفابريقيوس وغيرهم - أن «هيباشيا» ألقت كتاباً عنوانه شروح على كتاب «القطوع المخروطية» لأبولونيوس البرجي Apolonius of Pergaeus، والظاهر أن هذا الكتاب هو الوحيد الذي فقد من مؤلفات «هيباشيا» الثلاثة. ولقد قام عالم الفلك الإنجليزي الشهير إدموند هالي Edmund Halley (١٦٥٦ - ١٧٤٢)، في نهاية القرن السابع عشر بتجميع النسخ العربية واللاتينية القديمة من كتاب «القطوع المخروطية»، في محاولة لإعادة تجميع النص الأصلي، وما كتب عليه من شروح، وتعليقات، وقد تعرف على شروح «هيباشيا» من بين ما جمعه من شروح، وإن كان قد وجد صفحة العنوان فقط دون أن يجد نص الكتاب نفسه، كذلك لم تنجح «ماري ويت»، في العثور على المادة العلمية التي كان «هالي» يشتغل عليها، ومازال الأمل ضعيفاً في العثور على هذا الكتاب الذي يتضمن شروح «هيباشيا» على النص الأصلي^(١).

بقى أن نشير إلى اختراعين كثيراً ما ينسبهما المؤرخون إلى

«هيباشيا»:

الاختراع الأول:

1- Ibid. P.191.

البلانيسفير *Plansisphere*، وهى خريطة ذات ثلاثة أبعاد لنصف الكرة السماوية، ذات أداة تشير إلى الجزء المنظور منه فى وقت معين. أو الآلة الفلكية القديمة المسماة «الأسطرلاب» *Astrolabe* التى طلبها منها تلميذها سينسيوس *Synsios*، وقد أهداها سينسيوس بعد ذلك إلى بآينوسوس *Paeonius*، وهو نبيل فى بلاط الإمبراطور فى القسطنطينية^(١).

الاختراع الثانى:

يسألها سينسيوس فى الخطاب الخامس عشر إليها - أن تصنع له جهازاً لقياس الوزن النوعى للسوائل *Baryllio*، وهو نوع من الهيدرومتر *terHydrome*، وفى هذا الخطاب أول وصف وصل إلينا بهذا الجهاز^(٢)، ويقول «تأمرى» إن هذا الجهاز الذى ابتكرته «هيباشيا» كان يستخدم لمعرفة الأوزان المختلفة للسوائل التى يستخدمها المرضى بوجه خاص، حيث كان الطب القديم ينصح المرضى بتناول السوائل الأخف وزناً لأنها أفضل^(٣).

١- Ibid. P.192.

٢ - جورج سارتون: «العلم القديم والمدينة»، ص ١٦٧.

3- Mary E. Waithe. Op. Cit. P.192.

خاتمة...

تلك نبذة موجزة عن «هيباشيا» فيلسوفة الإسكندرية التي ولدت في جو ثقافي حرص عليه الملوك البطالمة، فدرست الفلسفة والرياضة والفلك وبزت أمل العصر في هذه المعارف، فقد تمكنت من الفلسفة ولا سيما عمالقة الفكر اليوناني زينوفان وفيثاغورس وأفلاطون وأرسوط، ثم أفلوطين والأفلاطونية الجديدة، وحاضرت في الميافيزيقا والإبستمولوجيا، وأمدتها الفكرة بالأسس النظرية التي استخدمتها في تقييم النظريات الفلكية والهندسية، وكانت عقلاً ناضجاً شهيراً حتى قبل أن تصل إلى سن الثلاثين. لقد عاشت في بيئة عقلية كانت تستبعد منها النساء، وعينت في منصب لم تسبقها إليه امرأة قط: رئيسة لمدرسة الأفلاطونية الجديدة، وعرفت في عصرها بالفيلسوفة العظيمة^(١).

هذه «الفيلسوفة العظيمة» تعرضت للاضطهاد من جانب التعصب الديني، أو الهوى الديني بمعنى أدق، فتمزقت أشلاء، وألقيت أطرافها المرتعدة - فيما يقول جيبون - في لهب النار... ثم أوقف البطريك أو كبير الأساقفة سير التحقيق والعقاب العادل بالهدايا المناسبة، غير أن مقتل هيباشيا وصم أخلاق كيرلس الإسكندري وديانته وصمة عار لا تزول ولا تمحى...^(٢). ويقول رسل: «وبعدئذ لم يعكر

١- Ibid. P.193

٢ - إدوارد جيبون «اضمحلال الامبراطورية الرومانية» - المجلد الثاني ص ٥١٠.

الفلاسفة صغو الاسكندرية أبدأ»^(١). فقد رحل اساتذة الفلسفة الوثنيون بعد موت «هيباشيا» إلى أثينا ليتقوا فيها الأذى. وكان التعليم غير المسيحي لا يزال حراً نسبياً، ولا يزال معظموه آمنين على أنفسهم من غيرهم في المدن الأخرى^(٢).

غير أن الاهتمام بهذه المرأة الممتازة استمر في الماضي وامتد، وإن كان على فترات متقطعة ولاسياب متنوعة، ففي القرن السابع عشر كتب الأديب الفرنسي Gille Menage في كتابه تاريخ الفلاسفة من النساء «قصيدة قصيرة عنوانها «في الحكمة» يقول فيها:

«لا بد لكل من يشاهده، ويتأمل بيتك الطاهر...

الخالي تماماً من كل زخرف أو زينة...

أن ينشغل بأمر الثقافة...

حقاً، لقد انشغلت أنت بالسماء...

«هيباشيا»، أيتها المرأة الحكيمة...

لغتك عذبة... ونجمك متالق في سماء الحكمة...»^(٣).

وفي القرن التاسع عشر استغل الروائي الإنجليزي تشارلز كنجزلي (١٨١٩ - ١٨٧٥) Charles Kingsley أحداث حياتها في رواية

١ - برتراند رسل: «تاريخ الفلسفة الغربية» المجلد الثاني ١٠٣ ترجمة د. زكي نجيب محمود - لجنة التأليف والترجمة والنشر ط٢، عام ١٩٦٨.

٢ - ول ديورانت: «قصة الحضارة» - المجلد الثاني عشر ص٢٤٨.

3- Ethel M. Kersey: Women Philosophers. P.16.

اسمها «هيباشيا». ولما كان قد عمل هو نفسه أستاذاً للتاريخ بجامعة كيمبردج فقد كان لديه حس تاريخى واضح - وإن لم يكن دقيقاً على الدوام - فأصدر «هيباشيا» عام ١٨٥٣ وفيها يعود بالزمن إلى الوراء ليصور مدينة الإسكندرية في بداية القرن الخامس الميلادى حيث نرى شاباً مسيحياً اسمه فيلامون Philammon يأتى من الصحراء إلى المدينة منجذباً بقوة ليتعلم على يد «هيباشيا» فى المتحف. وهنا يصور الكاتب مدينة الإسكندرية فى شيء من التفصيل، ويقدم وصفاً وصوراً جيدة للمدينة وشوارعها المزدهمة، ومشاكل الحياة فيها فى ذلك الوقت، كما يصور الأديب ثورة الجمهور الغاضب والقوى المتتمدة - ويتهى بتصوير اغتيال «هيباشيا»، عندئذ يعود الشاب فيلامون مرة أخرى إلى الصحراء التى جاء منها.

والواقع أن الكاتب أراد تصوير الصراع الذى حدث بين المسيحية - وهى تمكن لنفسها فى بداية عهدها - وبين الفلسفة اليونانية على نحو ما حدث فى مدينة الإسكندرية فى القرن الخامس الميلادى^(١).

وتزايد الاهتمام «بهيباشيا» مع نشأة الحركة النسائية، والبحث المتزايد عن الجهود النسائية فى الماضى، وجمع الوثائق التى تثبت إسهامات النساء فى النشاط الأدبى أو الفلسفى أو العلمى. وحديثاً ظهرت جريدة فى الفلسفة النسائية تحمل اسم «هيباشيا» تكريماً

1- Chamber's Encyclopedia Vol.8.

وانظر أيضاً الأدب الإنجليزى - تأليف ج. ثورنلى، وترجمة أحمد الشويخات ص ١٨٤ - دار العريخ بالرياض.

للجدة الأولى^(١).

وهي «مجلة فلسفية» رئيسة تحريرها مارجريت سيمونز
Marongarel Sim، وتصدرها جامعة إلينوي في الولايات المتحدة
الأمريكية^(٢).

وفي النهاية لا بد أن نقول مع جورج سارتون إن هذه المرأة
العظيمة. «كان لها شرف مزدوج: فهي أول من اشتغل بالرياضيات من
النساء - وهي من أوائل الذين استشهدوا في سبيل العلم...»^(٣).

١- Ethel M. Kersary: Op. Cit.

٢ - انظر الحركة النسائية والفلسفة - عدد أصدرته الجمعية الفلسفية الأمريكية في نوفمبر
١٩٨٧ «on Feminism and Philosophy».

٣ - جورج سارتون «العلم القديم والمدينة الحديثة» ص ١٦٨.

خاتمة البحث ...

عرضنا في هذا الكتاب - على مدى ثمانية فصول - لجموعة من النساء ... الفلاسفة في العالم القديم، في محاولة أردنا بها أن نرفع الغشاء عن عيون المرأة التي تصجب عنها الرؤية ليكون بصيرها اليوم حديداً، فتسترد ثققتها بنفسها، وتأخذ دورها في بناء المجتمع مع الرجل جنباً إلى جنب. ولن يتم ذلك كله إلا إذا أثبتنا رجاحة عقل المرأة، وسديد رأيها، وقدرتها على التفكير العلمي التي لا تقل عن قدرة الرجل، ولا سيما في مجال الفيلسوف الذي يبدو حقلاً مغلقاً مقتصر على الرجال وحدهم، وبذلك نهدم الفكرة المسائدة والسانجة معاً عن العقلية النسائية الضعيفة الناقصة، وتنتهي إلى إلغاء تلك الفكرة العقيمة التي تشطر العقل البشري شطرين «رجالي» و«نسائي».

ونود في هذه الخاتمة أن نشير إلى أمرين هامين:

الأمر الأول:

هو أنه من الطبيعي أن تكون البدايات الأولى للفيلسوف عند المرأة بسيطة وسانجة، فقد تتألف من عبارات قليلة أو شذرات متناثرة هي التي بقيت لنا، وقد تدور حول موضوع بسيط، أو تكتفي بمد فكرة ما إلى مجالات أوسع كما حدث لنساء الفيثاغورية، لكن ينبغي ألا يغيب عن ذهننا عدة أمور:

١- أنه هكذا كانت بدايات الفيلسوف عند الفلاسفة الأول من الرجال بسيطة وسانجة، كالماء هو أصل الأشياء «مثلاً عند

طاليس أول الفلاسفة، بل إن العبارة نفسها مأخوذة من
الفكرة المصرية عن النيل الذي كان يكون جزراً تخرج من
جوفه باستمرار فضلاً عن الدلتا - وهى الفكرة التى نقلها
طاليس عندما عاش فى مصر، وتعلم من كهنتها!

ب - عندما تتعدل الظروف الاجتماعية للمرأة فى العالم الحديث،
فسوف نجد فكراً أوضح فى القرن السابع عشر حتى يصل
إلى القمة فى القرن العشرين، وسوف نعرض فى الجزء
الثانى من هذا الكتاب «نساء... فلاسفة» فى العالم الحديث
لفلاسفة من أمثال: «مارجريت كافنديش Margaret Ca-
vendish» (١٦٢٢-١٦٧٢) الفيلسوفة الإنجليزية التى كتبت
فى «الفلسفة الطبيعية»، و«كرستينا فازا Kristina Wasa»
(١٦٢٦-١٦٨٩) ملكة السويد الشهيرة تلميذة ديكارت
التي دعته إلى استكهولم عام ١٦٥٠، وتعلمت على يد
الفلسفة الديكارتية، و«آن فينش كونواى Anne Finch Con-
way» (١٦٣١ - ١٦٧٩) التى أثرت بقوة فى «ليبنتز»، حتى
أن من الباحثين من يرد إليها فكرة «الموناد Monad» الشهيرة
فى فلسفة ليبنتز! حتى تصل إلى أسماء لامعة فى القرن
العشرين من أمثال: «مارى وارنوك Mary Warnock»،
«سوزان ستينج»، و«سوزان لانجر»، و«سيمون دى بوفوار»،
وحدة أرندت وغيرهن.

ج - إن الهدف كما قلنا هو أن نثبت عن طريق تقديم أمثلة، من
حقل الدراسات الفلسفية وهو أعلى درجات التجريد - أنه

كان للمرأة إسهامات في هذا الحقل المجرد، وبالتالي أن عقلها لا يقل في قدرته عن عقل الرجل، وإنما الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وسيطرة الرجل وطغيانه هي التي منعت هذه القدرة من الظهور. وكما سبق أن ذكرنا في المدخل فإن المثال «السلبى» الواحد - أى الذى يهدم دونية المرأة - يحطم عشرات الأمثلة الإيجابية - فمالك لو كان لدينا مئات من الأمثلة، طوال التاريخ، على قدرة المرأة!

د - أننا بذلك كله نثبت ما أكدته الآية الكريمة عن رجاحة العقل، وسداد الرأى، وقوة الحجة، وبراعة التفكير عند المرأة ممثلة فى بلقيس ملكة سبأ، والتي يتفاضى عنها كثير من الرجال. فنحن لا نخرج أبداً عما جاء به الإسلام، بل نؤكد به بشواهد من التاريخ، ونماذج من «النساء ... الفلاسفة فى العالمين القديم والحديث».

أما الأمر الثانى الذى نود أن نشير إليه، بإيجاز، فى هذه الخاتمة فهو أننا لم نحاول فى هذا الكتاب، إجراء حصر شامل لكل «النساء ... الفلاسفة فى العالم القديم»، وإنما أردنا فقط تقديم نماذج لقدرة المرأة على التفلسف، فلم نذكر، مثلاً، من النساء الفيشاغوريات سوى ثلاث نساء من الفيشاغورية المبكرة، وثلاث من الفيشاغورية المتأخرة، فى الوقت الذى يذكر فيه ميناج O.Menages فى كتابه تاريخ الفلاسفة من النساء «ست وعشرين فيلسوفة فيشاغورية»، ولم نذكر مثلاً امرأة واحدة من أهل الرواق، مع أنه يذكر أربع نساء وواقفيات فى الفصل العاشر من كتابه، ولم نذكر شيئاً عن النساء الأبيقوريات، مع أنه يذكر

منهن ثلاث؛ ولم نذكر من النساء الأفلاطونيات سوى امرأة واحدة هي «هيباشيا» فيلسوفة الإسكندرية، مع أنه يذكر منهن سبع نساء في الفصل الثامن، أما الفصل الأول فهو يذكر عشرين فيلسوفة!

ومعنى ذلك كله أننا نقدم نماذج أو شواهد من تاريخ الفلسفة على قدرة المرأة على التفلسف لتكون شموخاً أمام المرأة العربية تثير لها طريق التقدم والازدهار.

مراجع البحث

أولاً : المراجع العربية

- ١ - د. أحمد فؤاد الأهواني «فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط» عيسى البابى الحلبي، بالقاهرة، عام ١٩٥٤.
- ٢ - إدوارد جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد علي أبو درة، ومراجعة أحمد نجيب هاشم - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر.
- ٣ - د. إمام عبد الفتاح إمام: «أفلاطون ... والمرأة» العدد الأول من سلسلة «الفيلسوف ... والمرأة» - مكتبة مدبولي ط ٢، القاهرة ١٩٩٦.
- ٤ - د. إمام عبد الفتاح إمام: «أرسطو ... والمرأة» العدد الثاني من سلسلة «الفيلسوف ... والمرأة» - مكتبة مدبولي، بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٦.
- ٥ - د. إمام عبد الفتاح إمام: «الفيلسوف المسيحي ... والمرأة» - العدد الثالث من سلسلة «الفيلسوف ... والمرأة» مكتبة مدبولي، بالقاهرة، الطبعة الأولى عام ١٩٩٦.
- ٦ - د. إمام عبد الفتاح إمام: «أفكار ... ومواقف» الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، بالقاهرة عام ١٩٩٦.
- ٧ - د. إمام عبد الفتاح إمام: «الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي» عالم المعرفة عدد ١٨٣.

٨ - د. إمام عبد الفتاح إمام: «مسيرة الديمقراطية... رؤية فلسفية» دراسة في مجلة عالم الفكر، عدد خاص عن الديمقراطية، أصدره المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت، العدد الحادي والعشرون عام ١٩٩٣.

٩ - أرسطو «الخطابة» ترجمة. د. عبيد الرحمن بدوي - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد عام ١٩٨٦.

١٠ - أميرة حلمي مطر: «الفلسفة عند اليونان» دار الثقافة، بالقاهرة، عام ١٩٨٦.

١١ - أفلاطون «محاورة الجمهورية» ترجمة. د. فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة.

١٢ - أفلاطون «محاورات أفلاطون» ترجمة. د. زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

١٣ - أفلاطون: «الغادبة» ترجمة. د. وليم الميري، دار المعارف بالقاهرة.

١٤ - أفلوطين: «التساعية الرابعة» ترجمة. د. فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة.

١٥ - أوفيد: «مسخ الكائنات» ترجمة. د. ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة، عام ١٩٨٤.

١٦ - برتراند رسل: «تاريخ الفلسفة الغربية» الجزء الأول، ترجمة. د. زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة.

١٧ - تشارلز ألكسندر روينصن: «أثينا في عهد بوكليس» ترجمة. د.

أنيس فريجة، مكتبة لبنان عام ١٩٦٦.

١٨- عباس محمود العقاد: «أثر العرب في الحضارة الأوروبية» دار المعارف، بمصر عام ١٩٤٦.

١٩- عبد الغفار مكاوي: «هلدرلين» نوابغ الفكر الغربي، العدد رقم ٢١، دار المعارف بمصر.

٢٠- سارتون (جورج): «العلم القديم والمدينة الحديثة» ترجمة د. عبد الحميد صيره معاجم ودوائر معارف:

— عبد الرحمن بدوي: «موسوعة الفلسفة» مجلدات المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، عم ١٩٨٤.

— جورج طرابيشي: «معجم الفلاسفة» دار الطليعة، بيروت.

— «الموسوعة الفلسفية المختصرة» بإشراف د. زكي نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية.

ثانياً: المراجع الأجنبية

- 1 - Peter Gorman: "Pythagoras: A Life" Routledge & Kegan Paul 1979, P.120.
- 2 - Diogenes Laertius: "Lives of Eminent Philosophers" Translated by R. D. Hicks, Harvard University Press, 1979, P.27.
- 3 - G. Menages: "The History of Women Philosophers" Eng. Trans. by Beatrice H. Zedler.
- 4 - Mary Ellen Waither: "A History of Women Philosophers" Vol.1. Kluwer Academic Publishers.
- 5 - James Donaldson: Women: "Her Position and Her Influence in Ancient Greece and Rome, N.Y. 1973.
- 6 - Plato: Menexenus:
- 7 - Thucydides: History of The Peloponnesian War, Eng. Trans. By Rex Warner, 1954. Penguin Classics.
- 8 - The Dialogues of Plato, Vol.1. Trans. By R.E. Allen, Yale University Press. 1984.
- 9 - Stanley Rosen: Plato's Symposium, Yale Uni-

versity, 1987.

10 - Mary Ellen Waithe: "A History of Women Philosophers", Vol.1.P.108.

11 - Xenophon: Memorabilia of Socrates Book 111, ch x1.

12 - A. E. Taylor: Plato: "The Man and His Work Methuen", 1926, P.224.

13 - A. E. Taylor: Socrates, Greenwood Press, 1975 -

14 - Beatrice H. Zedler: "Julia Domna in A History of Women Philosophers" Vol.1.P.117.

15 - Ethel M. Kersey: "Women Philosophers". A Bio-Critical Source Book, Green Wood Press N.Y. 1989, P.137.

16 - Cornelia W. Walfskeel: Makrina.

17 - Plato : Timaeus 69 - C.

18 - Phaedo, 105 - C.

مؤلفات الأستاذ الدكتور

إمام عبد الفتاح إمام

أولاً - التأليف:

- ١ - المنهج الجدلي عند هيجل « طبعة أولى دار المعارف بمصر عام ١٩٦٩ - طبعة رابعة دار التنوير بيروت عام ١٩٩٢ (العدد الثاني من المكتبة الهيجيلية) مكتبة مديولى بالقاهرة.
- ٢ - «مدخل إلى الفلسفة» طبعة أولى دار الثقافة بالقاهرة عام ١٩٧٢ - طبعة خامسة ١٩٨٢ - طبعة سادسة مؤسسة عالم الكتب بالكويت عام ١٩٩٣.
- ٣ - «كيركجور، رائد الوجودية» المجلد الأول (حياته وأعماله) طبعة أولى دار الثقافة ١٩٨٢ - طبعة ثانية دار التنوير بيروت ١٩٨٢ العدد الثاني من سلسلة الفكر المعاصر.
- ٤ - «دراسات هيجيلية» طبعة أولى دار الثقافة للنشر والتوزيع عام ١٩٨٤ - طبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٩٢ (سلسلة المكتبة الهيجيلية) - طبعة ثالثة، مكتبة مديولى بالقاهرة.
- ٥ - «توماس هوبز، فيلسوف العقلانية» طبعة أولى دار الثقافة للنشر والتوزيع عام ١٩٨٤ - طبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٨٥ - طبعة ثالثة عام ١٩٩٣ - طبعة رابعة ١٩٩٦ مكتبة مديولى.
- ٦ - «تطور الجدول بعد هيجل» المجلد الأول «جدل الفكر» دار التنوير عام

- ١٩٨٥ طبعة ثانية عام ١٩٩٣ (العدد ٨ من سلسلة المكتبة الهيجيلية).
- ٧ - «تطور الجدول بعد هيجل» المجلد الثاني «جدول الطبيعة» دار التنوير بيروت عام ١٩٨٥ - طبعة ثانية عام ١٩٩٣ (العدد ١٠ من سلسلة المكتبة الهيجيلية).
- ٨ - «تطور الجدول بعد هيجل» المجلد الثالث «جدول الإنسان» دار التنوير بيروت عام ١٩٨٥ - طبعة ثانية عام ١٩٩٣ (العدد ١٠ من سلسلة المكتبة الهيجيلية).
- ٩ - «دراسات في الفلسفة السياسية عند هيجل» طبعة أولى دار الثقافة بالقاهرة - طبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣ طبعة ثالثة - مكتبة مديولى بالقاهرة.
- ١٠ - «كيركجور، رائد الوجودية» المجلد الثاني، فلسفته - طبعة أولى دار الثقافة بالقاهرة ١٩٨٦ - طبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣.
- ١١ - «أفلاطون... والمرأة» طبعة أولى حوليات كلية الآداب جامعة الكويت عام ١٩٩٢، طبعة ثانية مكتبة مديولى بالقاهرة (سلسلة الفيلسوف والمرأة).
- ١٢ - «رحلة في فكر زكي نجيب محمود» دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣.
- ١٣ - «الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي» سلسلة عالم المعرفة بالكويت عدد ١٨٣ - ١٩٩٤.

٢ ثانياً- بحوث ودراسات:

- ١ - «المقولات بين أرسطو وكانط و هيغل» ... دراسة بحوليات كلية التربية بجامعة الفتح بليبيا عام ١٩٧٦ .
- ٢ - «مفهوم التهكم عند كيركجور» ... دراسة بحوليات كلية الآداب - جامعة الكويت عدد رقم ١٩ عام ١٩٨٣ .
- ٣ - «الهيغيلية» ... دراسة للموسوعة الفلسفية (المجلد الثاني) معهد الإنماء العربي بيروت.
- ٤ - «الهيغيلية الجديدة» ... دراسة للموسوعة الفلسفية (المجلد الثاني) معهد الإنماء العربي بيروت.
- ٥ - «الفلسفة الثنائية عند زكي نجيب محمود» ... عالم الفكر بالكويت المجلد العشرين العدد الرابع يناير ١٩٩٠ .
- ٦ - «مسيرة الديمقراطية: رؤية فلسفية» ... مجلة عالم الفكر بالكويت يناير عام ١٩٩٤ .
- ٧ - «هيباشيا: فيلسوفة الإسكندرية» ... مجلة عالم الفكر بالكويت المجلد الثاني والعشرين يونيو ١٩٩٤ .

٥ ثالثاً- الترجمة:

- ١ - «الجبر الذاتى» ... رسالة كتبها بالإنجليزية الدكتور زكى نجيب محمود -
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر عام ١٩٧٢.
- ٢ - «العقل فى التاريخ» ... لهيجل - طبعة أولى دار الثقافة بالقاهرة عام
١٩٧٢، وطبعة ثانية دار التنوير ببيروت عام ١٩٨٠ - وطبعة رابعة ١٩٩٣
(العدد الأول فى سلسلة المكتبة الهيجلية).
- ٣ - «روح الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط» ... اتين جلسون - دار الثقافة
عام ١٩٧٢.
- ٤ - «فلسفة هيجل» ... تأليف ولتر ستيس المجلد الأول «المنطق وفلسفة
الطبيعة» دار التنوير عام ١٩٨٣ وطبعة رابعة عام ١٩٩٣ (العدد الثالث من
المكتبة الهيجلية).
- ٥ - «فلسفة هيجل» ... تأليف ولتر ستيس المجلد الثانى «فلسفة الروح»
الطبعة الثالثة عام ١٩٨٣ والرابعة ١٩٩٣ (العدد الرابع من المكتبة
الهيجلية).
- ٦ - «أصول فلسفة الحق» ... لهيجل المجلد الأول طبعة أولى دار الثقافة ١٩٨١
- طبعة ثانية دار التنوير ببيروت عام ١٩٨٣ . طبعة رابعة عام ١٩٩٣
(العدد الخامس من المكتبة الهيجلية)، طبعة خامسة - مكتبة مبدولى
بالقاهرة.
- ٧ - «موسوعة العلوم الفلسفية لهيجل» ... طبعة أولى عام ١٩٨٣ دار التنوير

بيروت. طبعة ثالثة ١٩٩٣ (العدد السادس من سلسلة المكتبة الهيجيلية)
طبعة رابعة - مكتبة مديولى بالقاهرة.

٨ - «العالم الشرقى» ... المجلد الثانى من محاضرات فى فلسفة التاريخ لهيجل
العدد التاسع من سلسلة المكتبة الهيجيلية طبعة أولى ١٩٨٥ - طبعة ثانية
١٩٩٣.

٩ - «الوجودية» ... تأليف جون ماكورى سلسلة عالم المعرفة بالكويت عدد
٥٨ أكتوبر ١٩٨٢ - طبعة ثانية دار الثقافة بالقاهرة ١٩٨٧.

١٠ - «أصول فلسفة الحق لهيجل» ... المجلد الثانى دار التنوير بيروت، عام
١٩٩٣ سلسلة المكتبة الهيجيلية - مكتبة مديولى بالقاهرة.

١١ - «هيجل والديمقراطية» ... تأليف ميشيل متياس - دار الحدائق بيروت
عام ١٩٩٠.

١٢ - «المعتقدات الدينية لدى الشعوب» ... تأليف جوفرى بارندر - سلسلة
عالم المعرفة بالكويت عدد ١٧٣ مايو ١٩٩٣.

٥ رابعاً-مراجعة:

- ١ - « الموت في الفكر الغربي » تأليف جاك شورون ، ترجمة كامل يوسف حسين - سلسلة عالم المعرفة بالكويت عدد ٧٦ إبريل ١٩٨٤ .
- ٢ - « الفلاسفة الإغريق : من طاليس إلى أرسطو » تأليف وجنرى، ترجمة د . رأفت حليم سيف - دار الطليعة بالكويت عام ١٩٨٥ .
- ٣ - « الفكر الشرقي القديم » - تأليف جون كولر، ترجمة كامل يوسف حسين - سلسلة عالم المعرفة بالكويت - عدد ١٩٩ .

٥ خامساً-التأليف بالاشتراك:

- ١ - « المنطق ومناهج البحث العلمى » لـلصف الثالث الثانوى بتكليف من وزارة التربية والتعليم بالجمهورية العربية الليبية عام ١٩٧٧ .
- ٢ - « دراسات فلسفية » للمستوى الرفيع بتكليف من وزارة التربية والتعليم بجمهورية مصر العربية عام ١٩٩٢ .

٥ سادساً-الترجمة بالاشتراك:

- ١ - « أسس النبرالية السياسية » لجون ستيوارت مل، بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور ميشيل متياس المجلد الأول - مكتبة مديولى بالقاهرة عام ١٩٩٦ .

تسلسل «الفيلسوف... والمرأة»

بإشراف الأستاذ الدكتور

إمام عبد الفتاح إمام

تصدرها مكتبة مدهولى بالقاهرة

★★★ صدر منها :

- ١ - أفلاطون ... والمرأة بقلم. د/إمام عبد الفتاح إمام
- ٢ - أرسطو ... والمرأة بقلم. د/إمام عبد الفتاح إمام
- ٣ - الفيلسوف المسيحي ... والمرأة بقلم. د/إمام عبد الفتاح إمام
- ٤ - «نساء فلاسفة» .. فى العالَم القديم، بقلم. د/إمام عبد الفتاح إمام

★★★ يصدر فى الأعداد القادمة :

- * «جون لوك ... والمرأة» بقلم. د/إمام عبد الفتاح إمام
- * «نساء فلاسفة» .. فى العالَم الحديث، بقلم. د/إمام عبد الفتاح إمام

هذا الكتاب

هذا الكتاب - وهو العدد الرابع من سلسلة «الفيلسوف» .
والمرأة - دعوة إلى المرأة العربية لتستعيد الثقة بنفسها،
وتنفض عنها غبار السنين الطويلة من الجهل والتخلف، إنه دعوة
لنبدن فكرة أرسطو الساذجة التي تزعم « أن عقل المرأة أضعف من
عقل الرجل »، وأن تفكيرها يغلب عليه العاطفة والانفعال، وأن
أحكامها يسيطر عليها الاندفاع والتهور، وتنقصها الروية والتدبر.
فلا الدين يقول شيئاً من ذلك، ولا العلم يعترف به، ولا التاريخ
يشهد بصحة شيء منه!

وهو يعرض «لنساء فلاسفة» . من العالَم القديم : من
الفيثاغورية المبكرة «ثيانو زوجة فيثاغورس التي تولت رئاسة
المدرسة بعد وفاة زوجها، وأريجنوت، ومييا»، ومن الفيثاغورية
المتأخرة «إيزارا، وفينتس، ثم إسبازيا، وديوتيميا معلمة سقراط،
وماكرينا، وهيباشيا فيلسوفة الإسكندرية الشهيرة، وغيرهن.

على أن يتلوه، بإذن الله، كتاب آخر يعرض لنماذج من «نساء
فلاسفة» . في العالَم الحديث، من أمثال مارجريت كافنديش،
وكريستينا فازا، وغيرهن في القرن السابع عشر حتى نصل إلى
أسماء لامعة في القرن العشرين من أمثال: مساري وارنوك،
وسوزان ستبج، وسوزان لانجر، وسيمون دي بقوار وغيرهن.

وسوف تشعر المرأة العربية بعد اطلاعها على هذين الكتابين
أن «ضعف العقل عند الأنثى ليس سوى «خرافة» ابتكرها الرجل
ليُحكم سيطرته عليها!».

الناشر

To: www.al-mostafa.com